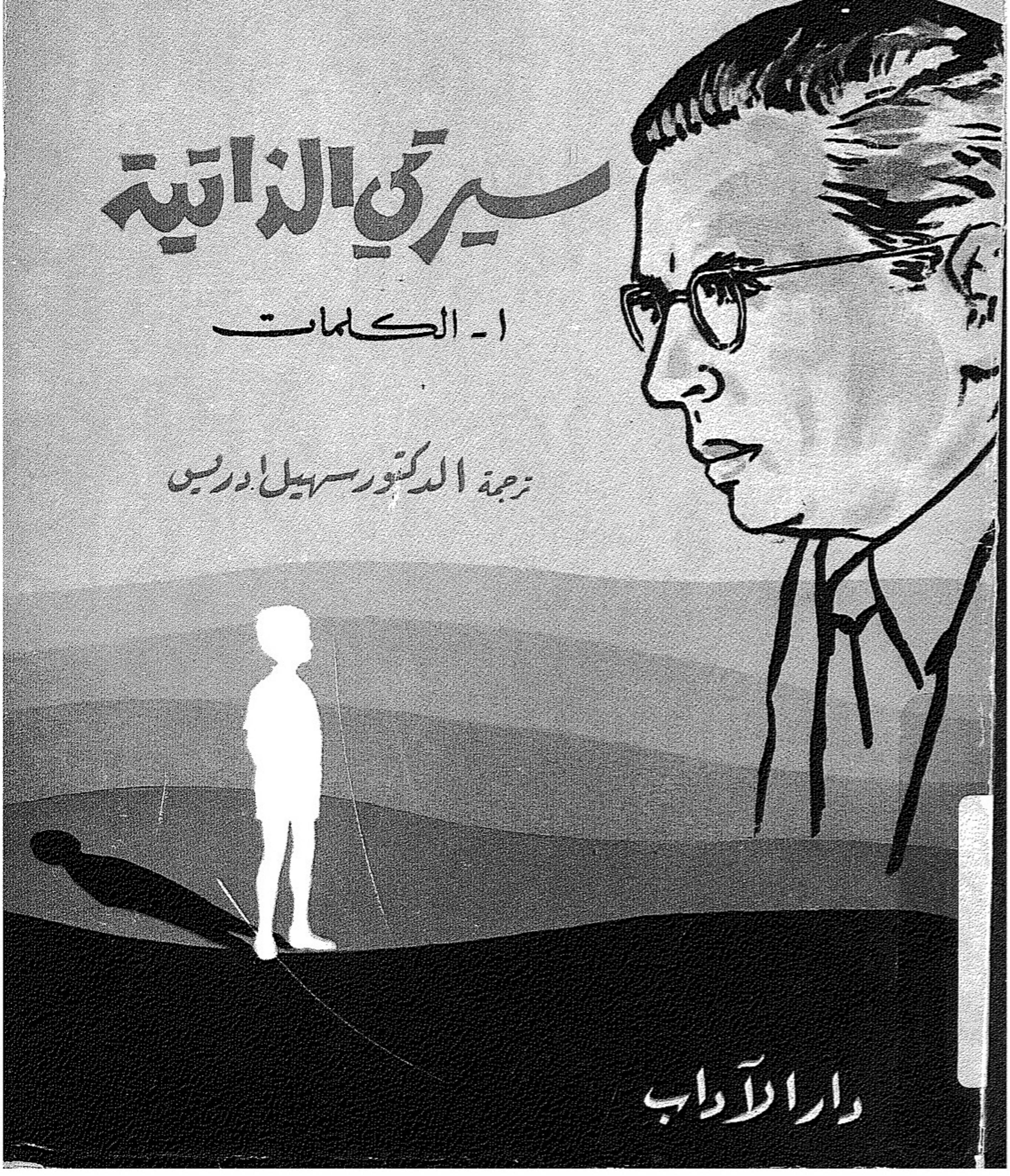
جان بول سارتر

سيرتي الذاتية

١ - الكلمات

ترجمة الدكتور سهيل ادريس



دار الآداب

جان بول سارتر

سيرتي الذاتية

١ - الكلمات

نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى
كانون الثاني ١٩٦٤

إهـــــــداء ٢٠٠٦
المرحوم الدكتور/ علي حسين كرار
القاهرة

١ـ الكَلِمات

١ - القراءة

في الألزاس ، حوالي عام ١٨٥٠ ، وافق معلّم مرهق بالأولاد على ان يصبح سمّاناً .

وقد أراد خالع الثوب الرهباني هذا تعويضاً ؛ فما دام قد عدل عن تثقيف العقول ، فلا بدّ لواحدٍ من أبنائه أن يُهذّب النفوس : وسيكون ثمة راعٍ في الأسرة ، هو شارل ، أكبر الأبناء .

وتهرّب شارل ، مؤثراً أن يعبر الطرق في إثر امرأة فارسة . وكان أن قُلبت صورته على الجدار ، ومُنع التلفّظ باسمه . فلمن الدور ، بعد ذلك ؟

وأسرع اوغست ، الابن الثاني ، يحذو حذو التضحية الأبوية : فدخل التجارة ، وألفى نفسه مرتاحاً فيها .

ويبقى لويس الذي لم يكن له استعدادٌ واضح : وأطبق الأب على هذا الفتى الهادىء وجعله راعياً بين ليلة وضحاها . وفيما بعد ، دفع لويس الطاعة الى حدّ إنجاب راعٍ بدوره ، هو ألبير شوايتزر ، صاحب الحياة المعروفة . غير أنّ شارل لم يعثُر ، في تلك الأثناء ، على فارسته ؛ وكانت بادرة أبيه الجميلة قد دمغته : فاحتفظ طوال حياته بحسّ السموّ والرفعة ، ووجّه همّته لصنع مناسبات كبيرة من أحداث صغيرة . إنه لم يكن يحلم ، كما يتّضح ، بأن يتجنّب رسالة الأسرة : وإنما كان يتمنى ان يرصد نفسه لشكلٍ معتدلٍ

من الروحانية ، لكهنوت يسمح له بمطاردة الفارسات .

وكان التدريس مناسباً : فاختار شارل ان يعلّم الألمانية . وقد أنشأ اطروحة عن هانز ساشس ، وفضّل المنهج المباشر الذي ادّعى فيما بعد انه مخترعه ، ونشر بالاشتراك مع السيد سيمونو **Deutsches Sesebuch** محترماً ، ومارس حياة عملية سريعة في ماكون وليون وباريس .

وفي باريس ، ألقى في احتفال توزيع الجوائز خطاباً حظي بشرف التنويه : « سيدي الوزير ، سيداتي ، سادتي ، أبنائي الأعزّاء ، انكم لن تحزروا ابداً ما سوف أحدثكم عنه اليوم : الموسيقى ! » وكان يُبدع في نظم قصائد المناسبات وكان قد اعتاد ان يقول في اجتماعات الأسرة : « إن لويس هو التقيّ ، واوغست هو الأغنى ؛ اما انا ، فالأذكى . » وكان الأخوة يضحكون ، وكانت زوجاتهم يزممن شفاههنّ .

وكان شارل شوايتزر قد تزوّج في ماكون إبنة كاتب عدل كاثوليكي ، تُدعى لويز غويومان . وقد ازدرت رحلة شهر العسل : إذ كان قد خطفها قبل نهاية المأدبة وقذف بها الى القطار . وكانت لويز ما تزال تتحدث ، وهي في السبعين من عمرها ، عن « سَلطة الكرّاث » التي قُدّمت لهما في مطعم احدى المحطّات : « كان يأخذ كل ما هو أبيض ، ويترك لي الأخضر . » وقد قضيا خمسة عشر يوماً في الألزاس من غير ان يغادرا الطاولة ؛ وكان الاخوة يتداولون ، باللهجة الاقليمية ، حكايات بذيئة ؛ وكان الراعي ، بين الفينة والفينة ، يلتفت نحو لويز ويترجم لها ، بدافع من الاحسان المسيحي . ولم يطل بها الوقت حتى استحصلت على شهادات مجاملة أعفتها من العلاقات الزوجية ومنحتها الحق بأن تستقلّ بغرفتها ؛ وكانت تتحدث عن الصداع الذي تعانيه ، واعتادت أن تلزم السرير ، وأخذت تحتقر الضجيج وألوان التحمّس والهوس ، وكل جوانب الحياة المسرحية الخشنة التي كانت تعيشها اسرة شوايتزر .

وكانت هذه المرأة الحيّة الخبيثة تفكّر تفكيراً صريحاً وسيئاً ؛ لأن زوجها

كان يفكر تفكيراً طيّباً وجانبياً ؛ ولأنه كان كاذباً سريع التصديق ، كانت تشكّ في كل شيء : « انهم يزعمون ان الأرض تدور ؛ فما أدراهم بذالك ؟ » كان يحيط بها ممثّلون أفاضل ، فكان أن حقدت على التمثيل والفضيلة . وهذه الواقعية المرهفة الى ذلك الحدّ ، الضائعة وسط اسرة من الروحانيين الخشنين ، كانت من اتباع فولتير ، بالتحدّي ، من غير ان تقرأ فولتير . كانت لطيفة وسمينة ، وقحةً وفكهة ، فأصبحت النفيَ المطلق ، وكانت برفع حاجبين ، وبيسمة لا تكاد تُرى ، تفتّت جميع المواقف الكبرى ، لصالحها ، ومن غير أن يلحظ ذلك أحد . وقد افترستها كبرياؤها السلبية وأنانيتها الرفضية . إنها لم تكن ترى أحداً ، لكونها أشدّ اعتزازاً من أن تحاول الاستيلاء على المكان الأول ، وأشدّ غروراً من أن تكتفي بالمكان الثاني . وكانت تقول : « اعرفوا كيف تجعلون الناس يشتهونكم . » ولقد اشتُهيت كثيراً ، ثم قلَّ ذلك تدريجياً ، وانتهى الأمر بالناس الى أن ينسوها ، لأنهم لم يكونوا يرونها : ولم تغادر بعد ذلك أريكتها أو سريرها .

اما اسرة شوايتزر التي كان أفرادها من ذوي النزعة الطبيعية والطهرية — وهذا المزيج من الفضائل هو أقلّ ندرةً مما يُظنّ — فقد كانوا يحبّون الكلمات الفجّة التي كانت ، فيما هي تُحِطّ الجسد بطريقة مسيحية جداً ، تعبّر عن إقرارهم العميق بالوظائف الطبيعية : اما لويز فقد كانت تحبّ الكلمات المغطّاة . وكانت تقرأ كثيراً من الروايات الخفيفة التي كانت تقدّر حبكتها أقلّ مما تقدّر الغلالات الشفّافة التي كانت تسربلها ؛ وكانت تقول بلهجة رهيفة : « إن ذلك جريء ، وهو مكتوب ببراعة . فانسلّوا برفق ، ايها الناس الميّتون ، ولا تُلحّوا ! » وقد ظنّت هذه المرأة الثلجية انها ستموت من فرط الضحك لدى قراءتها « فتاة النار » لأدولف بيلو . وكان يروقها ان تروي حكايات الليالي الأولى للأعراس التي كانت تنتهي دائماً نهايات سيئة : فتارةً كان العريس ، وهو في إبّان استعجاله المتوحّش ، يدقّ عنق زوجته بخشب السرير ، وطوراً كانت العروس هي التي توجد ، في الصباح ، وقد

اعتلت الخزانة عارية ، مستطارة اللب .

وكانت لويز تعيش في الظلّ ؛ وكان شارل يدخل عليها ، فيدفع المصاريع ، ويشعل جميع المصابيح ، فكانت تئنّ وهي ترفع يدها الى عينيها : « شارل ، إنك تبهرني ! » ولكن ألوان مقاومتها لم تكن تتعدّى حدود معارضة تشريعية : كان شارل يوحي لها بالخوف ، وبانزعاج عجيب ، وأحياناً بالصداقة ايضاً ، شريطة ألاّ يمسّها . وكانت ترضخ له في كل شيء حين يأخذ في الصراخ .

ولقد أولدها أربعة أولاد بشكل مفاجيء : بنتاً ماتت في حداثة السنّ ، وصبيين ، وبنتاً أخرى . وكان قد سمح بتربيتهم تربية دينية كاثوليكية ، بدافع من لامبالاة او احترام . وقد جعلتهم لويز ، وهي اللامؤمنة ، مؤمنين ، بدافع من نفورها من البروتستانتية .

وقد انحاز الصبيّان الى أمّهما : فقد أبعدتهما برفق عن هذا الأب الضخم ؛ وتمّ ذلك ، حتّى من غير ان يلاحظ شارل الأمر . ودخل كبيرهما ، جورج ، معهد البوليتكنيك ؛ وأصبح الثاني ، اميل ، استاذاً للغة الألمانية . إنه يثير فضولي : فأنا أعلم انه ظلّ عازباً ، ولكنه كان يقلّد أباه في كل شيء ، بالرغم من أنه لم يحبّه . وانتهى الأمر بالأب والابن الى التخاصم ، وحدثت بعد ذلك مصالحات احتفالية .

وأما أميل ، فكان يخفي حياته ؛ كان يعبد أمّه ، وقد احتفظ حتّى النهاية بعادته في أن يقوم بزيارات سرّية لها ، من غير ان يبلّغها ؛ وكان يغطّيها بالقبلات والملامسات ، ثم يأخذ في التحدّث عن الأب ، بلهجة ساخرة أولاً ، ثم بغضب ، ويتركها وهو يصفق الباب . وأعتقد انها كانت تحبّه ، ولكنه كان يخيفها : كان هذان الرجلان الفظّان والصعبان يتعبانها ، وكانت تؤثر عليهما جورج الذي لم يكن حاضراً هناك قط .

وقد مات أميل عام ١٩٢٧ ، مجنوناً بسبب الوحدة : فقد عُثر تحت وسادته على مسدّس ؛ وعثر في صناديقه على مئة زوج من الجوارب المثقوبة ، وعشرين زوجاً من الأحذية المعقوفة .

وأما آن ماري ، الفتاة الصغرى ، فقد قضت طفولتها على كرسيّ . وقد علّموها أن تسأم ، وأن تقف باستقامة ، وأن تخيط . وكانت لها مواهب : وقد حسبوا أن من الأمتياز تركها بوراً . وكان لها جمال : فحرصوا على اخفائه عنها . لقد كان هؤلاء البورجوازيون المتواضعون الفخورون يرون الجمال فوق مستوى وسائلهم ودون وضعهم ؛ فكانوا يسمحون به للمركيزات والبغايا .

كانت لويز تملك أشدّ أنواع الكبرياء جفافاً ؛ فخشية ان تُخدع ، كانت تنكر لدى اولادها ، ولدى زوجها ، ولديها هي نفسها ، أوضح المزايا وأكثرها بداهة ؛ ولم يكن شارل يُحسن الاعتراف بالجمال لدى الآخرين ، إذ كان لا يميّزه عن الصحّة : فمنذ سقطت زوجته مريضة ، كان يتعزّى منها بصحبة نساء مثاليات ذوات شوارب وألوان ، وصحّة جيدة . وبعد مضيّ خمسين عاماً ، لاحظت آن ماري ، وهي تقلّب مجموعة من صور الأسرة ، انها كانت في الماضي جميلـــة .

وفي الوقت نفسه تقريباً الذي كان شارل شوايتزر يلتقي فيه لويز غويومان ، تزوّج طبيب ريفيّ ابنة ملاّك من بيريغورد ، وأقام معها في شارع تيفيه الكبير الحزين ، تجاه الصيدلي . وفي اليوم التالي للزواج ، اكتُشف ان ابا العروس كان في فقر مُدقع . فحنق الدكتور سارتر وظل أربعين عاماً لا يوجّه كلمة الى زوجته ؛ وكان على المائدة يعبّر عن رغباته بالاشارات ، وانتهى بها الأمر الى أن تسمّيه « نزيلي » . على انه كان يقاسمها الفراش ، وكان بين الحين والحين ، يجعلها حاملاً ، من غير أن يقول كلمة : وقد وهبته ذكرين وأنثى ؛ وكان أبناء الصمت هؤلاء يُدعون جان باتيست ، وجوزيف ، وهيلين . وقد تزوّجت هيلين في أواخر حياتها ضابطاً في كتيبة الفرسان ما لبث ان جُنّ ؛ وأما جوزيف فقد قضى خدمته العسكرية في فرقة المشاة الزواوية ١ ثم عاد مبكراً الى منزل أبويه . ولم تكن له مهنة : ذلك انه أصبح لجلاج اللسان

---

(١) اسم قبيلة في منطقة القبائل بالجزائر — المترجم

بين صمت الأب وصراخ الأم ، وأنفق حياته في صراع مع الكلمات . وأراد جان باتيست أن يهيء شهادة البحرية ، لكي ينعم برؤية البحر . وفي عام ١٩٠٤ ، حين كان في « برست » ضابط بحرية ، وقد تأكّلته حمّيات الهند الصينية ، تعرّف الى آنماري شوايتزر ، فاستولى على هذه الفتاة الطويلة المتروكة وتزوجها ، وأولدها ، وهو يكاد يعدو ، ابناً هو أنا ، وحاول أن يجد له ملجأ في الموت .

ولم يكن الموت بالأمر اليسير : كانت الحمّى المعوية تصعد بلا عجلة ، وقد عرفت عدة هجعات . وكانت آن ماري تعنى به باخلاص ، ولكن من غير أن تدفع عدم الحشمة الى حدّ أن تحبّه . كانت لويز قد حذّرتها من الحياة الزوجية : فانها ، بعد عُرس الدم ، سلسلة لا تنتهي من التضحيات ، تتخللها ابتذالات ليلية . وآثرت امي ، على غرار امها ، الواجب على اللذة . ولم تكن قد عرفت ابي كثيراً ، لا قبل الزواج ولا بعده ، فكان لا بد لها أحياناً من أن تتساءل لماذا اختار هذا الغريب أن يموت بين ذراعيها . وقد نُقل الى مزرعة تبعد عدة فراسخ عن « تيفيه » ؛ وكان أبوه يقصده للزيارة كل يوم في عربة .

وقد استنفد السهر والهمّ قوى آنماري ، فنضب لبنها ، وكان ان عهدوا بي الى مرضع هناك ، غير بعيدة ، فاجتهدت انا أيضاً في أن أموت : بالتهاب الأمعاء ، وربما ببقايا مرض أبوي .

لقد كانت أمي ، وهي في العشرين من عمرها ، بلا تجربة ولا نصائح ، تتمزّق بين محتَضرينْ مجهولين : كان زواجها العقلي يجد حقيقته في المرض والحداد . وكنت أنا أفيد من الوضع : فقد كانت النساء ، في ذلك العهد ، يُرضعن بأنفسهنّ ولمدة طويلة ؛ ولولا الحظّ الذي واتاني من هذا الاحتضار المزدوج ، لتعرّضت لمصاعب عبوديّة متأخّرة .

لقد فُطمت قسراً في الشهر التاسع ، وأنا مريض ، فمنعتني الحمّى والتخبّل من الشعور بآخر ضربة مقصّ قطعت صلات الأم والولد ؛ وغطست في عالم

ملتاث ، تعمره هلسنات بسيطة وأصنامٌ فظّة . وعند موت أبي ، استيقظت أنا وآنماري من كابوس مشترك ؛ وشفيت . ولكننا كنا ضحية سوء تفاهم : لقد كانت تلتقي من جديد ، في حبّ ، ابناً لم تتركه من قبل قط ؛ وكنت أستعيد وعيي على ركبتي امرأة أجنبية .

وعزمت آنماري ، وهي بلا مال ولا مهنة ، على العودة الى بيت أبويها . ولكن الموت الوقح الذي أصاب أبي كان قد أغمّ اسرة شوايتزر : لقد كان مفرط الشبه بالطلاق . ولأنّ أمي لم تحسن التنبؤ به ولا الاحتياط له ، فقد حُكم بأنها مذنبة : ذلك انها كانت قد اتخذت لها ، في طيش ، زوجاً لم تسبق له تجربة .

ولقد كان الجميع مرحّبين بـ « أريان » التي عادت الى « مودون » وبين ذراعيها طفل : كان جدّي قد طلب إحالته على التقاعد ، فاستعاد الخدمة بلا كلمة عتاب ؛ وجدّتي نفسها أخفت شعورها بالانتصار . واما آنماري ، فقد كانت تحزر ، وهي مثلجة بالعرفان ، التوبيخ في الأساليب اللطيفة : صحيح أنّ الأسر تفضّل الأرامل على العوانس ، ولكنّها تكاد لا تفضلهنّ . ولكي تستحق الغفران ، بذلت نفسها بلا شحّ ، وأشرفت على منزل والديها ، في مودون ثم في باريس ، وجعلت نفسها مربّية ، وممرضة ، ورئيسة خَدَم المائدة ، وسيدة مرافقة ، وخادمة من غير أن تتمكّن من القضاء على ضيق أمها الأبكم . وكانت لويز تجد مضجراً أن تضع لائحة الطعام كلّ صباح وأن تجمع الحساب كل مساء ، ولكنها كانت لا تطيق ، الا على مضض ، أن يقوم غيرها بذلك ؛ فكانت تتخلّى عن واجباتها وهي مغتاظةٌ أن تفقد حقوقها . ولم يكن لهذه المرأة الوقحة التي تشيخ الا وهم واحد : كانت تحسب نفسها لا غنى عنها . وتلاشى الوهم : فأخذت لويز تغار من إبنتها . فيا لآنماري المسكينة : اذا لزمت الصمت والهدوء ، وُصفت بأنها عبء ؛ واذا أبدت النشاط والحيوية ، اتهمت بأنها تريد أن تحكم البيت . ومن أجل تحاشي العقبة الأولى ، كانت بحاجة الى شجاعتها كلّها ؛ ومن أجل تحاشي الثانية ، كانت

بحاجة الى كلّ ذُلّها : فجعلت نفسها عبداً . ولم يلزم وقت طويل لتعود الأرمل الشابة فتصبح قاصرة : عذراء ذات لطخة . ولم يكونوا يمنعون عنها مصروف الجيب ، وانما كانوا ينسون منحها إيّاه ؛ ولقد أبلت ملابسها حتّى آخر خيط ، من غير أن يتنبّه جدّي الى ضرورة تجديدها لها . وكادوا لا يسمحون لها بأن تخرج وحدها . وحين كانت صديقاتها القديمات ، ومعظمهن متزوجات، يدعونها الى العشاء ، كان ينبغي الاستئذان مقدماً قبل وقت طويل والوعد باعادتها قبل الساعة العاشرة . وكان رب البيت ينهض عن المائدة ، في وسط الطعام ، ليعود بها في السيارة . وفي هذه الأثناء ، يكون جدّي في قميص النوم ، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وساعته في يده . فإذا دقّت الدقة الأخيرة من الساعة العاشرة ، بدأ يبرق ويرعد . وتدنّت الدعوات ، وزهدت أمي بمثل تلك المُتع الغالية الى ذلك الحدّ .

لقد كان موت جان باتيست قضية حياتي الكبرى : ذلك انها ردّت أمي الى أغلالها ومنحتني الحرية .

●

ليس هناك أب صالح ، تلك هي القاعدة ؛ ولا يكنْ في ذلك مأخذٌ على الرجال ، بل على صلة الأبوة التي هي فاسدة . ليس هناك أفضل من إنجاب الأولاد ، ولكن أيّ ظلم أن « يكون » لنا أولاد ! لو أنّ أبي عاش ، لاضطجع عليّ بكل جسمه ، ولسحقني . فمن حظ انه مات في سنّ مبكّرة ؛ ووسط رجال أمثال « اينيه » يحملون على ظهورهم آباءهم « انشيز » (١) ، عبرتُ شطاً الى شطّ ، وحيداً ومزدرياً أولئك الآباء اللامرئيين المعتلين ظهور أبنائهم طوال الحياة ؛ وخلّفت ورائي ميتاً فتيّاً لم يُتح له وقت كافٍ لكي يكون أبي ،

---

(١) اينيه امير طروادي جعله فيرجيل بطلَ « انياذته » وهو ابن افروديت وانشيز ، وقد حارب الاغريق بشجاعة في اثناء حصار طراودة ، وحين سقطت المدينة ، فر حاملا على ظهره أباه أنشيز ومصطحباً ابنه ايول او اسكاني . — المترجم

ويمكن اليوم أن يكون ابني . أكان ذلك شرّاً أم خيراً ؟ لست أدري ؛ ولكني أقرّ طوعاً حُكمَ عالم نفسٍ تحليليّ بأني : ليس لي « انا فوقية » Surmoi

وليس الموت هو كل شيء : فينبغي للمرء أن يموت في الأوان . لقد أحسست ، فيما بعد ، بأني مذنب ؛ إن اليتيم الواعي يسيء الى نفسه : لقد اغتاظ والداه من رؤيته ، فانسحبا الى منزلهما السماوي . أما انا ، فكنت مفتوناً : كان وضعي المحزن يفرض الاحترام ، ويرسي أساس أهميّتي ، وكنت أعدّ حدادي من جملة فضائلي . لقد أوتي أبي ظرافة أن يموت بسبب أخطائه : فقد كانت جدّتي تردّد انه قد تهرّب من واجباته ؛ ولم يكن جدّي ، المعتزّ بطول أعمار آل شوايتزر ، يقرّ أن يختفي أحدهم وهو في الثلاثين ؛ وعلى ضوء تلك الميتة المشبوهة ، انتهى الى الارتياب بأن يكون صهره قد وُجد أصلاً ، وانتهى الى نسيانه . أما انا ، فلم يكن لي حتى ان أنساه : ذلك ان جان باتيست ، حين مضى على الطريقة الانكليزية ١ ، انما حرمني مُتعة ان أتعرّف إليه . وما زلت حتى اليوم أعجب من معلوماتي القليلة عنه . ومع ذلك ، فهو قد أحبّ ، وأراد ان يعيش ، ورأى نفسه يموت ؛ وذلك كافٍ لخلق رجل ، ولكن لم يعرف أحدٌ في اسرتي أن يثير فضولي بصدد ذلك الرجل . وقد استطعت طوال عدة سنوات ان أرى ، فوق سريري ، صورة ضابط قصير ذي عينين بريئتين ، ورأس مستدير أصلع ، وشاربين كثيفين ؛ وحين تزوجت أمي للمرة الثانية ، اختفت الصورة . وقد ورثت فيما بعد كتباً كانت تخصّه : مؤلفاً لـ « لودانتيك » عن مستقبل العلم ، وآخر لـ « ويبر » بعنوان « نحو الوضعية عن طريق المثالية المطلقة » . لقد كان سيء الاختيار لكتب المطالعة ، شأن جميع معاصريه . وقد اكتشفت في الهوامش خربشات لا تُفهم ، وهي علائم ميتة لإشراقٍ صغير كان حيّاً متوهّجاً حوالي موعد ولادتي . وقد بعت الكتب : كان ذلك المرحوم قليلاً ما يعنيني . انني أعرفه

(١) اي بلا استئذان ... – المترجم

بالسماع ، كـ « القناع الحديدي » او « فارس ايون » ، وما أعرفه منه لا يختص بي قط ؛ فلئن أحبّني ، ولئن أخذني في ذراعيه ، ولئن أدار نحو ابنه عينيه الصافيتين ، المتأكلتين اليوم ، فان أحداً لم يحفظ من ذلك ذكراً : انها هموم حبّ ضائعة . بل إن هذا الأب ليس حتّى ظلاً ، ليس حتّى نظراً : كل ما في الأمر ، اننا كلينا ثقُلنا ، ردحاً من الزمن ، على الأرض نفسها .

لقد أفهموني انني كنت ابن معجزة ، اكثر مما كنت ابن ميت . وهذا ، بلا أدنى شك ، مصدر خفتّي التي لا تُصدّق . انني لست قائداً ، ولا أصبو إلى أن أصبحه . فالقيادة والطاعة ، شيء واحد . إن أشدّ متسلّط يقود باسم رجل آخر ، طفيليّ مقدّس — أبيه — ، وينقل ألوان العنف المجرّدة التي يتلقّاها . وأنا ، حياتي ، لم أعطِ أمراً من غير ان أضحك ، ومن غير أن أُضحِك ، ذلك انني لا تقرضني قرحة السلطة : انهم لم يعلّموني الطاعة .

ومن عساني أُطيع ؟ انهم يدلّونني على عملاقة فتيّة ، ويقولون لي انها امي . ولو كان لي الأمر لحسبتها بالأحرى اختاً كبيرة لي . تلك العذراء في الإقامة المراقَبة ، الخاضعة للجميع ، أرى جيداً انها انما هي قائمة هنا لتخدمني . انني أحبّها ، ولكن كيف تراني أحترمها ، ان لم يحترمها أحد ؟ إن في بيتنا ثلاث غرف : غرفة جدّي ، وغرفة جدّتي ، وغرفة « الأولاد » . و « الأولاد » هم نحن كلانا : المتشابهان في أننا قاصران ، ومُعالان . ولكن جميع ضروب الرعاية محفوظة لي : ففي « غرفتي » وضعوا سرير فتاة صبيّة . وتنام الصبيّة وحدها ، وتستيقظ بطهارة ؛ وأكون نائماً بعدُ حين تهرع لتأخذ « حمّامها » وتعود وقد ارتدت كل ثيابها : فكيف أكون قد وُلدت منها ؟ انها تروي لي مصائبها فأصغي اليها في مشاركة : سأتزوّجها فيما بعد لأحميها . وأعِدُها بذلك : سأبسط يدي فوقها ، وسأجعل أهميّتي الفتيّة في خدمتها . فهل يُظنّ اني سأطيعها ؟ إنّ لديّ طيبة ان أستجيب لابتهالاتها . والحقّ انها لا تُصدر إليّ أوامر : انها ترسم بكلمات خفيفة مستقبلاً تثني عليّ أن أريـد تحقيقه : « سيكون حبيبي الصغير لطيفاً ، وعاقلاً ، وسيتركني

أقطر له في أنفه بكل لطف . » وكنت أتداعى للوقوع في شَرَك هذه التنبوءات الناعمة .

ويبقى البطريرك : وقد كان يشبه « أبانا الرب » حتى كان غالباً ما يُظن أنه هو . وقد دخل ذات يوم الى كنيسة من موهفها ، وكان الخوري ينذر الفاترين بالصواعق السماوية : « إن الرب موجود هنا ! إنه يراكم ! » واكتشف المؤمنون فجأة ، تحت المنبر ، رجلاً عجوزاً طويلاً ملتحياً ينظر اليهم : فلاذوا بالفرار . وكان جدّي يقول إنهم ، في مناسبات أخرى ، قد انحنوا راكعين . واستلذّ هذه التجلّيات . وفي شهر أيلول ١٩١٤ ، تجلّى في دار سينما بمدينة « أركاشون » : وكنّا انا وأمي على الشرفة حين طلب إضاءة النور ؛وكان بعض السادة الآخرين يحيطون به كالملائكة ويصيحون : « النصر ! النصر ! » وصعد الربّ الى المسرح وقرأ بلاغ « المارن » . ويوم كانت لحيته سوداء،كان يمثّل يهوه ، وانا أرتاب في أن يكون أميل قد مات بسببه، بصورة غير مباشرة . وقد كان رب الغضب هذا يكتظّ من دم أبنائه . ولكني كنت أتجلّى في نهاية حياته الطويلة ، وكانت لحيته قد ابيضّت ، وكان التبغ قد جعله يصفرّ . وكانت الأبوّة قد كفّت عن أن تسلّيه . ومع ذلك ، فلو أنّه أنجبني ، لما امتنع ، كما أظن ، عن استعبادي : بدافع العادة .

وكان حظّي ان أنتمي الى ميت : كان ميت قد صبّ بضع قطرات من منيّ هي الثمن العاديّ لطفل ؛ كنت اقطاعاً للشمس ، فكان بوسع جدّي أن يتمتّع بي من غير أن يمتلكني : كنت « أعجوبته » لأنه يتمنّى ان ينهي أيامه عجوزاً مندهشاً ؛ وقد عزم أن يعتبرني حظوة من القدر فريدة ، هبةً مجانية قابلة أبداً للإلغاء ؛ وما كان عساه يطلب مني ؟ كنت أملأه بحضوري وحده . لقد كان « الهٓ المحبة » بلحية « الأب » وقلب « الابن المقدس » ؛ لقد كان يضع يديه على رأسي ، وكنت أحسّ حرارة راحته ، وكان يدعوني بصغيره ، بصوت يرتعش حناناً ، وكانت الدموع تندّي عينيه الباردتين . وكان الجميع يصيحون : « إن هذا الشقيّ قد أطار صوابه ! » كان يعبدني ، وكان ذلك

واضحاً . ترُى ، هل كان يحبني ؟ إنه يشقّ عليّ ان اميّز في عاطفة عامّة الى هذا الحدّ بين الإخلاص والتصنّع : فأنا لا أعتقد انه قد دلّل عن حبّ كبير لأحفاده الآخرين ؛ ويبقى صحيحاً انه لم يكن يراهم قط ، وأنهم لم يكونوا بأية حاجة إليه . أما انا ، فكنت تابعاً له في كل شيء : فكان يعبد فيّ سخاءه .

وفي الحقيقة ، كان يبالغ في تطلّب النبالة : كان رجلاً من القرن التاسع عشر كان يحسب نفسه فكتور هوغو ، ككثيرين غيره ، وكفكتور هوغو نفسه . وانا أعتبر هذا الرجل الجميل ذا اللحية الغامرة ، بين ضربتين من ضربات المسرح ، كشارب الخمر بين قدحيْ خمر ، ضحية تكنيكيْن مكتَشفيْن حديثاً : فنّ التصوير ، وفنّ أن يكون المرء جداً . وقد كان من حظّه ومصيبته انه كان قابلاً للتصوير ؛ وكانت صوره تملأ البيت : ولما كانت طريقة الصورة السريعة غير مستعملة ، فقد كسب من ذلك حسّ الأوضاع واللوحات الحيّة ، فكان كل شيء حجّة لديه لتعليق حركاته ، وللتسمّر في وضع جميل ، وللتحجّر ؛ وكان يُجنّ عشقاً بلحظات الخلود القصيرة ، تلك التي كان يُصبح فيها تمثاله بالذات . وأنا لم أحتفظ منه — بسبب كلفه باللوحات الحيّة — إلاّ بصور صلبة من صور الفانوس السحري : رسم خلفيّته تمثّل غابة ، وأنا جالس على جذع شجرة ، ولي من العمر خمس سنوات؛ ويرتدي شارل شوايتزر قبعة طرية ، وثوباً من الفلانيل ذا خطوط سود ، وصدرة منقّطة بالبياض ، تعترضها سلسلة ساعة ؛ وأما منظاره فيتدلى من طرف حبل صغير ؛ وهو منحنٍ فوقي يرفع اصبعاً ذا خاتم ذهبي ، ويتكلم . إن كل شيء مظلم ، وكل شيء رطب ، ما عدا لحيته الشمسية : إنه يحمل اكليله حول ذقنه . ولا أدري ماذا يقول : فقد كنت أكثر اهتماماً للإصغاء من أن أسمع . وأحسب ان هذا الجمهوري الامبراطوري العجوز كان يلقّنني واجباتي المدنية ويروي لي التاريخ البورجوازي ؛ لقد كان ثمة ملوك وأباطرة ، وكانوا شرّيرين جداً ، وكانوا قد طُردوا ، وكان كل شيء

يجري على ما يُرام .

وحين كنّا نذهب مساءً لانتظاره على الطريق ، كنا ما نلبث ان نتعرّفه في جمع المسافرين الخارجين من القطار الكهربائي ، بفضل قامته الطويلة ومشيته الشبيهة بمشية معلّم الرقص . ومن أبعد مكان يرانا منه،كان « يتوضّع » ليستجيب الى أوامر مصوّر غير مرئيّ : فيترك لحيته للريح ، وجسمه مستقيماً ، وقدميه في زاوية مثلّثة ، وصدره بارزاً ، وذراعيه منفرجتين . وكنت ازاء هذه الاشارة أتجمّد ، فأنحني الى أمام ، شبيهاً بالعدّاء الذي يستعدّ للانطلاق ، والعصفور الذي يهمّ بالخروج من الآلة ؛ وكنّا نبقى لحظات وجهاً لوجه ، أشبه بفريق جميل من « ساكس » ، ثم كنت أنطلق ، محمّلاً بالفاكهة والزهور ، وبسعادة جدّي ، فأمضي لأصطدم بين ركبتيه وانا ألهث لهاثاً مصطنعاً ، وكان يرفعني عن الأرض ، ويحملني الى الغيوم ، على طرف ذراعه ، ثم يلقي بي الى قلبه وهو يتمتم : « ياكنزي ! » وكان هذا هو الشكل الثاني في التمرين ، وكان المارّة يلاحظونه تماماً . لقد كنّا نمثّل مسرحية كبيرة ذات مئة فصل مختلفة : الغزل ، ضروب سوء التفاهم التي سرعان ما تُبدّد ، المناكدات الصابرة ، التوبيخات اللطيفة ، الحزن الغرامي ، المسّاراة الرقيقة والحب المهووس ؛ وكنّا نتصوّر عقبات لحبّنا لنمنح نفسينا فرحة ازاحتها : ولقد كنت أتخذ أحياناً لهجة الأمر ، ولكنّ الأهواء لم تكن تستطيع تقنيع حساسيّتي اللذيذة ؛ وكان هو يُظهر الغرور النبيل والساذج الذي كان يلائم الأجداد ، والعناد ، وضروب الضعف المذنبة التي يوصي بها هوغو . فلو أُعطيت خبزاً جافاً ، لحمل إليّ المربّيات ؛ ولكن المرأتين المذعورتين كانتا تتجنّبان اعطائي الخبز الجافّ .

ثم انني كنت صبياً عاقلاً : لقد كنت أجد دوري ملائماً الى حدّ انني لم اكن أخرج منه . والحق ان تقاعد ابي السريع كان قد منحني « اوديباً » ناقصاً تماماً : صحيح انه لم يكن لي « أنا فوقية » ، ولكن لم يكن لي كذلك أيضاً ايّ خُلق عدواني . لقد كانت أمي لي ، ولم يكن ثمة من ينكر عليّ

امتلاكها الهادىء : كنت أجهل العنف والحقد ، فوفّروا عليّ ذلك التلقين القاسي ، الحسد ، ولأنّني لم أصطدم بزوايا الحقيقة الواقعة ، لم أعرفها أول الأمر إلاّ عبر ميوعتها الضاحكة . وعلى من ، وضد من ، كان عساي أن أتمرّد ؟ إنه لم يحدث قطّ ان انتصب هوى انسان آخر قانوناً لي .

كنت أسمح بلطف أن يلبسوني حذائي ، وأن يقطروا لي في أنفي ، وأن ينظّفوا ثوبي بالفرشاة وأن يغسلوني ، وأن يلبسوني ثيابي وينزعوها عني ، وان يزيّنوني وأن يفركوني ؛ انني لا أعرف ما هو اكثر تسلية من أن يمثل المرء أن يكون عاقلاً . انني لا أبكي ابداً ، ولا أضحك أبداً ، ولا أحدث اية ضجّة ؛ وقد ضبطوني يوماً ، وكنت في الرابعة ، وأنا أضع الملح في المربّى : وأحسب ان ذلك كان بدافع من حبّ العلم ، اكثر مما كان بدافع من خبث ؛ وذلك على أي حال هو الجرم الوحيد الذي احتفظت بذكراه . وتانك السيدتان تذهبان يوم الأحد احياناً الى القدّاس لتستمعا الى الموسيقى الجميلة يعزفها عازف ارغن مشهور . انهما لا تمارسان الشعائر الدينية ، لا هذه ولا تلك ، ولكن ايمان الآخرين يُعدّهما للنشوة الموسيقية ؛ انهما تؤمنان بالله ساعة تستمتعان بلحن جميل . ولحظات الروحانية السامية تلك هي متعتي الكبرى : فالجميع يبدو عليهم انهم نيام ، وتلك هي الحالة التي يتاح لي فيها ان أُظهر ما أعرف ان أفعله : انني احوّل نفسي الى تمثال ، وأنا جاثم على المركع ؛ ينبغي ألاّ أحرّك حتى إبهام رجلي ، وأنظر باستقامة أمامي ، من غير ان تطرف جفوني ، الى أن تتدحرج الدموع على خدّي ؛ انني بالطبع أشهر معركة جبابرة ضد النمل ، ولكني واثق من النصر ، عظيم الاحساس بقوتي حتى اني لا أتردّد بأن ابتعث في نفسي أشدّ الاغراءات إجراماً لأمنح ذاتي لذة مدافعتها : فماذا لو نهضت وصرخت : « بادابوم ! » ؟ وماذا لو تسلّقت العمود لأبول في جرن الماء المقدّس ؟ إن هذه الذكريات الفظيعة ستمنح تهاني أمي ، عما قليل ، قيمة أكبر . ولكني أكذب على نفسي ؛ أتصنّع أني في خطر لأزيد مجدي : إن الاغراءات لم تكن لحظةً مدوّخة ؛ انني أخشى

الفضيحة اكثر مما ينبغي ؛ واذا شئت ان أثير الدهشة ، فبفضائلي . وهذه الانتصارات السهلة تقنعني اني أملك طبعاً طيباً ؛ فليس لي إلاّ ان أستسلم له لكي يرهقوني بالمديح .

إن الرغائب الشريرة والأفكار السيئة ، اذا وُجدت ، فانما تأتي من الخارج ؛ فما أن تدخل فيّ حتى تسترخي وتجفّ : انني أرض غير خصبة للشرّ . ولئن كنت فاضلاً بالتمثيل ، فاني لا أقسر نفسي قط ولا أُجبرها : بل أخترع ، انني أملك الحرية الاميرية التي يملكها الممثل الذي يمسك على الجمهور أنفاسه ويقتل دوره إرهافاً . إنهم يعبدونني ، فأنا إذن قابل للعبادة . فأيّ شيء أبسط من هذا ، ما دام العالم مصنوعاً صنعاً جيداً ؟ يُقال لي انني جميل ، فأصدّق ذلك . انني منذ حين أحمل في عيني اليمنى الغشاوة التي ستجعلني أعور او أحول ، ولكن لا يظهر من ذلك شيء بعد . وتؤخذ لي مئة صورة ترتوشها أمّي بأقلام ملوّنة . وفي احداها ، وقد بقيت ، أبدو مورّداً أشقر ، بخصلات شعر معقوفة ، والخدّ مستدير ، وفي النظر احترام حفيّ للنظام القائم ، وخصلة الشعر منفوخةٌ بغطرسة منافقة : انني أعرف قيمتي .

وليس يكفي أن يكون طبعي طيّباً ؛ ينبغي أن يكون تنبوّياً : إن الحقيقة تخرج من فم الأولاد . إنهم بعدُ قريبون من الطبيعة ، فهم أبناء عمّ الريح والبحر : وتمتماتهم تمنح من يُحسن الإصغاء اليها تعاليم عريضة غامضة ، ولقد سبق لجدّي أن عبر بحيرة جنيف بصحبة هنري برغسون ، وكان يقول : « لقد كنتُ مجنوناً من الحماسة ، ولم تكن لي عينان كافيتان لكي أتأمّل القمم المشعّة ، وأتابع انعكاسات الماء . اما برغسون ، الجالس على حقيبة ، فانه لم يكفّ عن النظر فيما بين قدميه . » وكان يستنتج من هذا الحدث السَفَري أنّ التأمّل الشاعري خيرٌ من الفلسفة . وقد وجّه تأمّله إليّ : كان يقتعد في الحديقة كرسياً قابلة للطيّ ، وقدح بيرة في متناول يده ، وهو ينظر إليّ أعدو وأقفز ، ويبحث عن حكمة في كلماتي المضطربة ، فيعثر عليها . وقد ضحكت فيما بعد من هذا الجنون ، واني آسف لذلك : لقد كان هذا عمل الموت .

كان شارل يحارب الضيق بالنشوة . وكان يتأمّل فيّ معجباً عملَ الأرض الرائع ليقتنع بأن كل شيء طيّب ، وحتّى نهايتنا الجديرة بالرثاء . وتلك الطبيعة التي كانت تتهيّأ لأخذه مرة ثانية ، كان يذهب ليلتمسها على القمم ، وفي الأمواج ، ووسط النجوم ، وعند ينبوع حياتي الطفلة ، ليستطيع أن يعانقها بكلّيتها ، ويتقبّل كلّ شيء فيها ، حتى الحفرة التي كانت تنفغر له فيها . لم تكن هي « الحقيقة » بل كان « موته » الذي كان يتحدث اليه بلساني . فليس هناك ما يُدهش إن كان للسعادة البائخة التي عرفتها سنواتي الأولى مذاق مأتميّ أحياناً : لقد كنت مديناً بحريتي لميتة ملائمة ، وبأهميتي لوفاة منتظرة جداً . ولكن ماذا : إن مثيلات « بيثي »[1] جميعاً ميّتات ، فكل انسان يعرف ذلك ؛ وجميع الأطفال هم مرايا الموت .

ثم إن جدّي يروقه أن يبعص أولاده . لقد قضى هذا الأب الفظيع حياته في سحقهم ؛ إنهم يدخلون على رؤوس أصابعهم فيفاجئونه عند ركبتي طفل : مما كان يفجّر قلوبهم غيظاً . إن الأطفال والشيوخ ، في صراع الأجيال ، غالباً ما يشكّلون قضية مشتركة : فالأولون يأتون المعجزات . والآخرون يحلّون ألغازها . إن « الطبيعة » تتكلم ، والتجربة تترجم : فلا يبقى للراشدين إلاّ ان يسدّوا أفواههم . فان لم يوجد الطفل ، فليؤخذ جَرْو : لقد تعرّفت ، في العام الماضي ، في مقبرة الكلاب ، الى حكَم جدّي ، في الخطاب الراعش الذي يتتابع من قبر الى قبر : إن الكلاب تعرف ان تحبّ ؛ انها أرقّ من البشر ، وأشدّ إخلاصاً ؛ وإن لها بصيرة وفطنة ، غريزة لا تخطىء تتيح لها أن تتعرّف الخير ، وأن تميّز الطيبين من الأشرار . كانت امرأة تحدّث كلبها الميت بلهجة لا عزاء فيها : « انك يا بولونيوس أفضل مني : فلو متّ قبلك لما ظللت حيّاً بعدي ؛ أما انا ، فأظلّ حيّة بعدك . » وكان يرافقني صديق

---

(١) احدى كاهنات ابولون في معبد دلف . وقد كانت مكلفة بان تنطق بالمعجزات، وكانت تجلس على أثفية فوق شق تنبعث منه أبخرة باردة كانت تحدث هذياناً عابراً . —المترجم

اميركي ، وكان مغتاظاً ، فركل بقدمه كلباً من الاسمنت وكسر له أذنه . وكان على حق : إن الأولاد والكلاب ، اذا أحببناهم « اكثر مما ينبغي » ، فانما نحبّهم ضدّ البشر .

وإذن ، فأنا جروُ مستقبل ؛ انني أتنبّأ . وأتلفّظ بكلمات طفل ، فتُحفظ ، وتُردّد على مسمعي : وأتعلّم أن أصنع منها سواها . إنّ لي كلمات رجل : فأنا أحسن النطق بعبارات « تفوق سنّي » . وهذه الأحاديث قصائد : والوصفة بسيطة : يجب الاتكال على « الشيطان » ، على المصادفة ، على الفراغ ، واستعارة عبارات كاملة من الراشدين ، ووضعها الواحدة تلو الأخرى ، ثم ترديدها بلا فهم .

وبالاختصار فاني آتي معجزات حقيقية ، وكل انسان يفهمها كما يشاء . إن « الخير » يولد في أعمق أعماق قلبي ، و « الحق » في ظلمات « ادراكي » الفتيّة . واني أتأمل نفسي معجباً في ثقة : ذلك ان حركاتي وكلماتي تتميّز بصفة تفوتني وتقفز في عيون الأشخاص الكبار : فماذا يهم ! إنني سأمنحهم بلا تباطؤ المتعة الدقيقة التي أحرم منها . وتتخذ مداعباتي مظاهر الكرم الخارجية ، لقد كان أشخاص مساكين يعبّرون عن أساهم ألاّ يُرزقوا ولداً ؛ وتأخذني الشفقة ، فأنسحب من العدم في موجة حماسية من الإحساس بالغيرية ، وأرتدي لباس الطفولة التنكّري لأمنحهم وهْمَ ان لهم ولداً . وتدعوني أمي وجدّتي غالباً الى ان أكرر عمل الطيبة العظيمة التي منحتني الحياة : انهما تتملّقان رغائب شارل شوايتزر ، وكلفه بالضربات المسرحية ، وتدبّران له مفاجئات كأن تخفياني خلف قطعة أثاث ، فأمسك نَفَسي ، وتغادر المرأتان القاعة أو تتظاهران بنسياني ، فأتلاشى ؛ ويدخل جدّي القاعة ، كئيباً متعباً ، كما سيكون لو لم أكن موجوداً ؛ وفجأة ، أخرج من مخبئي ، فأمنحه نعمة أن أولد ، ويلمحني ، فيدخل في اللعبة ، ويغيّر وجهه ، ويرمي ذراعيه الى السماء : إنني أملأه بحضوري . انني بكلمة واحدة أهب نفسي ؛ أهب نفسي دائماً وفي كل مكان ، أهب كلّ شيء : وحسْبي ان أدفع باباً ، لأحسّ انا

أيضاً بأني أتجلّى تجلّياً . وأضع مكعّباتي واحداً فوق الآخر ، وأُخرج معجّناتي الرملية من قوالبها ، وأنادي بصرخات عالية ؛ ويأتي مَنْ ينفجر متعجباً معجباً : وهكذا أكون قد أسعدت شخصاً آخر .

إن الطعام والنوم وألوان الوقاية ضد التقلّبات تشكّل الأعياد الرئيسية والواجبات الرئيسية في حياة احتفالية كلّها . انني آكل أمام الناس ، كأنني ملك : فاذا أكلت « جيداً » هنّأوني ؛ وتهتف جدّتي بالذات : « ما أعقله أن يكون جائعاً ! »

ولا أني أخلق نفسي ؛ إنني الواهب والهبة ؛ ولو كان أبي حيّاً ، لكنت عرفت حقوقي وواجباتي ؛ لقد مات وأنا أجهلها : فليس لي من حق ما دمت أعطي كل شيء بالحبّ . إن هناك وصيّة واحدة : أن أروق . كلّ شيء من أجل المظهر والواجهة . وكم كان في اسرتنا اسراف في الكرم ! لقد كان جدّي يعيّشني ، وكنت أنا أُسعده ؛ وأمي تذوب إخلاصاً للجميع . وحين أفكر اليوم بذلك ، يبدو لي هذا الاخلاص وحده حقيقياً ؛ ولكننا كنا نميل الى التغاضي والصمت عنه . لا أهمية لذلك : إن حياتنا ليست الا سلسلة من الحفلات،ونحن ننفق وقتنا في إرهاق أنفسنا بالمجاملات والتشريفات . انني أحترم الراشدين شريطة أن يعبدوني ؛ إنني صريح ، منفتح ، رقيق كفتاة . انني أفكر جيداً ، وأثق بالناس : فالجميع طيبون ما دام الجميع مسرورين . انني أعتبر المجتمع نظاماً تسلسلياً صارماً من المزايا والسلطات . فالذين يحتلّون قمّة السلّم يعطون كل ما يملكون للذين هم تحتهم . غير اني أحترس من الوقوف في أعلى الدرج : فأنا لا أجهل انهم يحتفظون به لأشخاص قُساة ذوي نوايا طيّبة مهمّتهم فرض النظام . وانما أنا أقف على درجة صغيرة هامشية ، غير بعيد عنهم ، ويمتدّ إشعاعي من أعلى السلّم الى أسفله .

وبالاختصار إنني أبذل كل عنايتي للابتعاد عن السلطة المدنية : فلا تحت ، ولا فوق ، بل في مكان آخر . انني ، أنا حفيد كاهن ، منذ طفولتي كاهن . إنني أملك طلاوة أمراء الكنيسة ، بشاشة كهنوتية ؛ أعامل من هم دوني على

انهم مساوون لي : وانها لكذبة تقية هذه التي أفعلها لهم لأسعدهم ويحسن أن ينخدعوا بها الى حدّ ما . فأنا أتحدّث الى خادمتي والى ساعي البريد وإلى كلبتي بصوت صابر ومعتدل . إن في هذا العالم المنظّم فقراء ؛ وهناك أيضاً خرفان ذات خمس أرجل ، واخوات سياميات ، وحوادث قطارات حديدية ؛ وليست هذه الشواذّ خطيئة أحد . إن الفقراء الطيبين لا يعلمون أن وظيفتهم هي أن يمرّنوا سخاءنا ؛ انهم فقراء خجولون يمشون بلصق الجدران ؛ وأندفع ، وأدسّ في يدهم قطعة من درهمين ، وأهدي اليهم خصوصاً بسمة جميلة توحي بالمساواة . انني أجد هيئتهم بليدة ، ولا أحبّ أن ألمسهم ، ولكني أقسر نفسي على هذا : ذلك هو امتحان ؛ ثم إنهم ينبغي أن يحبّوني : فهذا الحب سوف يجمّل حياتهم . انا أعلم انهم يحتاجون الى الضروري ، ويروق لي ان أكون فائضهم . والحقّ انهم مهما بلغوا من البؤس ، فلن يتألموا ابداً بمقدار ما تألم جدّي : فحين كان صغيراً ، كان ينهض قبل الفجر ، فيرتدي ثيابه في الظلام ؛ وكان ينبغي له في الشتاء ، حين كان يريد أن يغتسل ، ان يكسر المرآة في دلو الماء . ومن حسن الحظ ان الأمور قد سُوّيت منذ ذلك الحين : إن جدّي يؤمن بـ « التقدّم » ، وأنا كذلك : « التقدّم » هذا الطريق الطويل الوعر الذي يفضي إليّ .

كانت هي « الجنة » . كنت كل صباح استيقظ في خدرٍ من الفرح ، معجباً بالحظ المجنون الذي جعلني أُولد في أوفر الأسر وحدة ، وفي أجمل بلدٍ في العالم . ولقد كان المستاؤون يثيرون دهشتي : ما عساهم كانوا يشكون ؟ لقد كانوا عصاة عنيدين . وكانت جدّتي بصورة خاصة تثير لديّ ضروباً عنيفة من القلق : كان لديّ ألم التحقّق من أنها لم تكن معجبة بي اعجاباً كافياً . والواقع ان لويز كانت قد فهمت حقيقتي في الوقت المناسب . كانت تأخذ عليّ بصراحة التهريج الذي لم تكن تجرؤ ان تأخذه على زوجها : لقد كنت ممثلاً هزلياً ، مهرّجاً ، منافقاً ، وكانت تأمرني ان اكفّ عن « حركاتي

المرائية » . وكان يبلغ بي الغيظ ان كنت أتهمها بأنها كانت تسخر كذلك من جدّي : كانت هي « الروح التي تنكر دائماً »، كنت « أجاوبها » ، فكانت تطلب اعتذارات ، ولكني كنت أرفض ان اقدّمها لها ، واثقاً من اني سوف أُدعم . وكان جدّي يقبض على الفرصة ليُظهر ضعفه : كان ينحاز إليّ ضد زوجته التي كانت تدخل الحمّام ، مغتاظة ، لكي تغتسل ، ثم تحبس نفسها في غرفتها .

وتقلق أمي ، وتخشى صواعق جدّتي ، فتتكلم بصوت خافت وتلقي الخطأ ، في مذلّة ، على أبيها الذي كان يهزّ كتفيه لامبالياً ويدخل الى مكتب عمله ؛ وتبتهل إليّ أخيراً ان أذهب فأطلب الصفح . كنت أتمتّع بسلطتي : لقد كنت القديس ميخائيل ، وكنت قد صعقت « الروح » الشرير . وينتهي بيَ الأمر الى ان أذهب فأعتذر في إهمال .

وفيما عدا ذلك ، كنت طبعاً أعبدها : « ما دام » انها كانت جدتي . وكانوا قد اقترحوا عليّ ان أدعوها « مامي » وان ادعو رب الأسرة باسمه الصغير الالزاسي «كارل » . كارل ومامي ، كانا أجمل وقعاً على السمع من روميو وجولييت ، ومن فيليمون وبوسيس . وكانت أمي تردّد على مسمعي مئة مرة في النهار ، ولها في ذلك غاية : « إن كارلومامي ينتظراننا ؛ وسيكون كارلومامي مسرورين ، كارلومامي ... » موحية من وحدة هذه المقاطع الأربعة بتوافق الأشخاص الكامل . ولم أكن أنخدع الا نصف خدعة ، وكنت أتدبّر الأمر لأبدو منخدعاً تماماً : في نظر نفسي ، قبل كل شيء . كانت الكلمة تلقي ظلّها على الشيء : فقد كنت أستطيع ، عبر كارلومامي ، ان أحافظ على وحدة الأسرة بلا هوادة ، وأن أصبّ على رأس لويز قسماً كبيراً من مزايا شارل . لقد كانت جدّتي بسبب شبهتها – على وشك أن تسقط دائماً ، فكانت سلطة كلمة تمسكها في اذرعة الملائكة .

إن هناك أشراراً حقيقيين : منهم البروسيّون الذين سلبونا الألزاس واللورين وجميع ساعاتنا ، باستثناء الساعة العاجية السوداء التي تزيّن مدخنة

جدّي ، والتي قدّمها له فريق من الطلاّب الألمان ؛ ويتساءل المرء من اين سرقوها . وقد كان يُشترى لي كتبُ هانسي لأتفرّج على صورها : فلا أحسّ بأية كراهية لأولئك الرجال الضخام المورّدين الذين يشبهون شبهاً كبيراً أعمامي الألزاسيين . وكان جدي الذي اختار فرنسا عام ٧١ ، يقصد بين حين وآخر الى « غانسباش » و « بافانهوفن » ليزور اولئك الذين بقوا . فكنت أصحبه . وفي القطارات ، حين كان مفتّش ألماني يسأله عن تذاكره ، وفي المقاهي حين كان خادم يتأخّر في أخذ الطلب ، كان شارل شوايتزر يحمرّ غضباً وطنياً ؛ وكانت المرأتان تتشبّثان بذراعيه : « شارل ؟ هـل تفكر بما تصنع ؟ انهم سيطردوننا من الأراضي ، وهذا ما ييسّر أمورك ! » فيرفع جدّي صوته : « اودّ كثيراً ان أرى كيف يطردونني : انني في أرضي ! » وتدفعانني بين ساقيه ، فأنظر إليه نظرة مبتهلة ، فيهدأ ويتنهّد قائلاً : « انما أنا أصمت اكراماً للصغير » ويربّت رأسي بأصابعه الجافة . وقد كانت هذه المشاهد تثير غيظي منه ، من غير أن تثير حقدي على المحتلّين . ثم إن شارل لم يكن يتورّع ، في « غانسباش » عن أن يغضب ضد كنّته ؛ فهو كثيراً ما يُلقي بفوطته على المائدة ويغادر غرفة الطعام وهو يصفق الباب ؛ مع العلم بأنها ليست ألمانية . وكنّا بعد الغداء نذهب لننتحب ونبكي عند قدميه ، فيقابلنا بجبين قاسٍ صارم . فكيف لنا ألاّ نقرّ حكم جدّتي : « إن الألزاس لا تساوي بالنسبة اليه شيئاً ؛ فليس عليه ان يرجع اليها غالباً . » ؟ والحق انني لا أحب كثيراً الالزاسيين الذين يعاملونني بلا احترام ، ولست غاضباً ان يكونوا قد أخذوا منا . ويبدو انني كنت أقصد غالباً بائع حلويات بافنهوفن ، السيد بلومنفلد الذي كنت أزعجه من أجل شيء زهيد . وقد أدلت عمّتي كارولين « بأفكار » الى أمي أطلعوني عليها ؛ وللمرة الأولى تواطأت مع لويز : « إنها تحتقر اسرة زوجها . »

وفي ستراسبورغ ، سمعت في غرفة فندق كنّا مجتمعين فيها انغاماً دقيقة ، فهرعت الى النافذة : الجيش ! وكنت سعيداً جداً أن أرى بروسيا

تمرّ في عرض أمامي على لحن تلك الموسيقى الطفولية. فجعلت أصفق بيدي وظلّ جدّي مقتعداً كرسيه وهو يرتجف؛ واقبلت أمي تهمس في أذني انّ عليّ ان أترك النافذة، فأطعتها وأنا أعبس قليلاً. صحيح انني أكره الألمان، ولكن بلا اقتناع. ثم إن شارل لم يكن يسمح لنفسه إلاّ بطرف دقيقٍ من التعصّب الوطني: ففي عام ١٩١١، غادرنا مودون لنقيم في باريس، شارع لوغوف: وكان لابدّ له من أن يأخذ تقاعده، وأسّس «معهد اللغات الحية» لكي يعيلنا: وكانت غايته تدريس الفرنسية للأجانب الزائرين. بواسطة المنهج المباشر. وكان معظم الطلاب يأتون من ألمانيا. وكانوا يدفعون جيداً: فيضع جدي الدراهم الذهبية في جيب سترته من غير ان يعدها أبداً؛ وكانت جدتي التي تشكو الأرق تنسلُ ليلاً الى الممر لتأخذ عُشرها «بالخفية» كما كانت تقول هي نفسها لابنتها: وبكلمة واحدة، كان العدوّ يعيلنا؛ فاذا وقعت حرب فرنسية ألمانية، فستعيد لنا الألزاس ولكنها ستخرب المعهد: من أجل ذلك، كان شارل من مؤيدي الحفاظ على السلام. ثم إن هناك ألماناً طيبين يأتون لتناول الغداء عندنا: ومنهم روائية حمراء الوجه ذات بشرة مشعرة كان لويس يدعوها وهو يطلق ضحكة صغيرة فيها غيرة «أثيرة شارل»، وطبيب أصلع ضحّاك كان يدفع أمي الى الأبواب ويحاول أن يقبلها؛ وحين تشكو ذلك في خجل، كان جدي ينفجر: «انك تحملينني على مخاصمة جميع الناس!» ويهزّ كتفيه ويختم قائلاً: «لا شكّ انها أوهام، يا بنتي، يا بنتي!» فيكون ان تحس هي نفسها بأنها مذنبة.

وكان جميع هؤلاء المدعوين يدركون أن عليهم ان يتحمسوا لمزاياي، وكانوا يربتون على كتفي بوداعة: وإذن، فانهم يملكون، بالرغم من أصلهم، فكرة غامضة عن «الخير». وقد بلغ عدد المدعوين، في عيد الذكرى السنوية لتأسيس «المعهد»، اكثر من مئة، فقُدّم مغليّ الشمبانيا، وعزفت امي والآنسة موتيه مقطوعات لباخ بالأيدي الأربع؛ وكنت

ادري ثوباً من الموسلين الأزرق ، وقد نُثرت في شعري النجوم ، ورُكّب لي جناحان ، فجعلت أتنقل بين المدعوين ، وأنا أقدّم ليمون الماندرين في سلة ، فتنطلق الصيحات : « إنه حقاً ملاك ! » وإذن ، فليسوا أشخاصاً ارديباء الى ذلك الحد . وبالطبع ، لم نتراجع عن ان نثأر للألزاس الشهيدة ؛ فكنا في الأسرة نقتل الألمان لعباً ، بصوت منخفض ، كما كان يفعل اقرباؤنا في غانسباش وبافنهوفن ؛ ونضحك مئة مرة على تلك الطالبة التي كتبت في موضوع فرنسي : « كانت شارلوت مشلولةً من شدة الألم على قبل ورتر » ، وعلى ذلك الاستاذ الشاب الذي تأمل في تحدّ وحذر قطعة البطيخ الأصفر التي قُدمت له في اثناء العشاء ، ثم انتهى الى أن يأكلها كلها ، بما في ذلك البزر والقشرة . وكانت هذه الأخطاء الفاحشة تجعلني أميل الى الرحمة : إن الالمان كائنات دُنيا اوتوا حظّ ان يكونوا جيراننا ؛ ونحن نعطيهم أنوارنا .

وكان يُقال آنذاك : إن قبلة بلا شارب ، هي كالبيضة بلا ملح ؛ وأضيف : وكالخير بلا شر ، وكحياتي بين ١٩٠٥ و ١٩١٤ . واذا لم يكن ممكناً تعريف المرء إلا بنقيضه ، فقد كنت « الذي لا يُعرَّف » لحماً وعظماً ؛ واذا كان الحب والحقد هما وجه المدالية وظهرها ، فاني لم اكن احبّ شيئاً ولا أحداً . وكان هذا امراً حسناً : فلا يمكن ان يطلب الى المرء ان يحقد وان يُعجِب في وقت واحد . ولا ان يُعجِبَ ويُحِبّ .

أأكون إذن « نرجساً » ؟ حتى ولا هذا : كنت أنسى نفسي ، لإسرافي في الاهتمام بأن أُغوي . وبعد كل حساب ، لم يكن يسلّيني كثيراً ان أصنع معجنات ، وخربشات ، وغيرها من حاجاتي الطبيعية : فلكي أُعطي منتوجاتي قيمة في نظري ، فيجب ان يتحمس لها على الأقل رجل كبير حماساً منتشياً . ومن حسن الحظ ان التصفيق لم يكن نادراً : إن الراشدين كانوا يطلقون بسمة التلذذ الخبيث المتواطىء حين يسمعون تمتمتي كما لو أنهم يسمعون « فنّ التسلسل الموسيقي » ؛ وهذا يُظهر ما كنتُه في

حقيقة الأمر : ثروة ثقافية . كانت الثقافة تملأني ، وكنت اردّها الى الاسرة بالإشعاع ، كما تعكس المستنقعات في المساء حرارة النهار .

بدأت حياتي كما سوف أنهيها بلا شك : وسط الكتب . وفي مكتب جدي ، كانت الكتب موجودة في كل مكان ؛ وكان محظوراً نفض الغبار عنها الا مرة في العام ، قبل افتتاح المدارس في تشرين الاول . وكنت لا أعرف القراءة بعدُ حين كنت احترمها ، تلك الحجارة المرفوعة : مستقيمة كانت ام مائلة ، مرصوفة كالقرميد على رفوف المكتبة ام منثورة في الممرات الحجرية ، كنت أحسّ ان ازدهار أسرتنا متوقف عليها . كانت تتشابه جميعاً ، وكنت ألهو في معبد صغير ، تحيط بي أبنية كثيفة قديمة ، رأتني أولد ، وستراني أموت ، وسيؤمّن لي بقاؤها مستقبلاً لا يقلّ هدوءاً عن الماضي . وكنت ألمسها خفيةً لأشرّف يديّ بغبارها ، ولكني لم اكن أدري ما أفعل بها ، وكنت أحضر كلّ يوم حفلات يفوتني مغزاها : فقد كان جدّي – الذي كان مرتبكاً أخرق الحركات في العادة ، حتّى ان أمي كانت تزرّر له قفازيه – يقلب هذه الأشياء الثقافية ببراعة مُقدّس . وقد رأيته ألف مرة ينهض بهيئة غائبة ، فيدور حول طاولته ، ويعبر الغرفة في خطوتين ، ويتناول كتاباً بلا تردّد ، ومن غير أن يمنح نفسه وقتاً للاختيار ، فيقلب صفحاته فيما هو يعود الى أريكته ، بحركة مشتركة من الإبهام والسبابة ، وما يكاد يجلس حتّى يفتحه بضربة جافة « على الصفحة المطلوبة » جاعلاً إياه يصطفق كالحذاء . وقد كنت أحياناً ما أقترب لألاحظ هذه العلب التي كانت تنشقّ كالمحار ، وكنت اكتشف عُري أعضائها الداخلية ، أوراقاً ممتقعة عفنة ، منتفخة بعض الشيء ، مغطّاة بأوردة صغيرة سود كانت تشرب الحبر وتنبعث منها رائحة الفطر .

أما في غرفة جدّتي فقد كانت الكتب مُضجعة ؛ وكانت تستعيرها من مكتب للمطالعة ، ولم أر منها اكثر من اثنين معاً . وكانت هذه الترّهات تجعلني

أفكر بحلويات «عيد رأس السنة» لأن وريقاتها الطرية المتلألئة كانت تبدو مقطوعة من ورق لمّاع . إنها حيّة ، بيضاء ، شبه جديدة ، وكانت تُتخذ حجّة لأسرار خفية . فقد كانت جدتي ، كل يوم جمعة ، ترتدي ثيابها لتخرج وكانت تقول : «إنني ذاهبة لأردها» واذ تعود ، بعد أن تخلع قبعتها السوداء وغلالتها ، كانت تسحبها من كمّها ، فأتساءل بفضول : «أتراها هي نفسها؟» وكانت «تغطّيها» بعناية ، وبعد أن تختار أحدها ، كانت تجلس قرب النافذة ، في أريكتها ذات الوسادة ، فتنتعل خفّها ، وتتنهّد سعادة واسترخاء ، وتسبل جفنيها مع بسمة شهوانية رقيقة عثرت عليها مرة أخرى بعد ذلك على شفتي «الجوكوندا» ؛ وكانت امي تصمت ، وتدعوني الى الصمت ، فكنت افكر بالقداس ، وبالموت ، وبالنوم : كنت امتلىء بصمت مقدس ، وبين الفينة والفينة كانت تندّ عن لويز ضحكة صغيرة ، فتنادي ابنتها وتدلّ باصبعها على سطر ، وتتبادل المرأتان نظرة متواطئة غير انني لم اكن احب تلك الكتب المضبورة المتميّزة اكثر مما ينبغي : كانت دخيلة ، ولم يكن جدّي يخفي انها كانت موضوع عبادة صغرى ، نسوية وحسب : كان يدخل يوم الأحد غرفة زوجته ، بدافع من التعطّل ، فينزرع أمامها من غير أن يجد ما يقوله لها ؛ وكان الجميع ينظرون اليه وهو يدقّ الزجاج بأصابعه ، ثم ينفتل نحو لويز وينتزع روايتها من يديها ، فكانت تصرخ غاضبة : «شارل ، إنك ستُفقدني الصفحة التي أقرأها !» ويكون قد شرع في القراءة ، وقد رفع حاجبيه ؛ وفجأة ، تضرب سبابته الكتاب : «لا أفهم» ! فتقول جدتي : «ولكن كيف تريد أن تفهم : انك تقرأ من الداخل !» وينتهي به الأمر الى ان يقذف الكتاب على الطاولة ويمضي وهو يهزّ كتفيه .

ولا شك في أنه كان على حق ، لأنه كان من أصحاب المهنة . كنت أعرف ذلك : فقد سبق له أن أراني ، على رف من المكتبة ، مجلّدات كبيرة ذات ورق مقوّى ، مغطّاة بالقماش الأسمر : «هذه ، يا صغيري ، قد صنعها جدّك .» اي اعتزاز ! لقد كنت حفيد فنّان متخصّص في صنع الأشياء

المقدّسة ، لا يقل احترامًا عن صانع أراغن ، أو عن خياط لرجال الكهنوت . وقد رأيته يعمل : ففي كل سنة ، كان يعاد طبع Deutshes Lesebuch وفي أثناء العطلة ، كانت الأسرة كلها تنتظر « التجارب » بفارغ الصبر : ان شارل لم يكن يحتمل اللاعمل ، وكان يغضب لكي يُمضي الوقت . وكان الساعي يحمل أخيراً رزماً طرية ضخمة ، فكانت خيوطها تُقطع بالمقصّ ، وكان جدّي ينشر الأوراق المطوية فيمدّها على طاولة غرفة الطعام ويخنجرها بالخطوط الحمر ؛ وكان كلما التقى خطأً مطبعياً جدّف على الرب بين أسنانه ولكنه لا ينقطع عن الصراخ إلاّ حين تقبل الخادمة وهي راغبة في وضع الصحون على المائدة . وكان الجميع مسرورين ؛ وكنت أنا أعتلي كرسياً فأتأمل في انتشاء هذه الخطوط السود المخدّدة بالدم . وأعلمني شارل شوايتزر أن له عدواً لدوداً ، هو ناشره .

ولم يسبق لجدّي قط أن أحسن العدّ : وهو المبذّر بدافع من اللامبالاة ، السخيّ بدافع من التباهي ، انتهى به الأمر فيما بعد الى أن يقع صريع ذلك المرض الذي يصاب به شيوخ الثمانين : البخل ، نتيجة العجز والخوف من الموت . ولم يكن يظهر ، في تلك الفترة ، إلاّ بصورة حذر غريب : فحين كان يتلقى تحويلاً بحقوقه كمؤلف ، كان يرفع ذراعيه الى السماء وهو يصيح بأنهم كانوا يقطعون له حنجرته ، أو كان يدخل على جدتي ويصرّح في كآبة : « إن ناشري يسرقني كما لو اني كنت في غاب. » واكتشفت وأنا مندهش استغلال الانسان للانسان . ومع ذلك ، فلولا هذه الفظاعة ، التي هي محدودة لحسن الحظ ، لكان العالم مصنوعاً على خير ما يرام : كان أرباب العمل يعطون حسب طاقاتهم العمالَ حسب استحقاقهم . فلماذا يسمح الناشرون ، هؤلاء المختلسون ، ان يؤذوهم بأن يشربوا دم جدّي المسكين ؟ وازداد احترامي لهذا الرجل القديس الذي لم يكن ينال ثمن إخلاصه : وأعددتُ في وقت مبكر لأن أعتبر التدريس كهنوتاً والأدب ألماً مقدّساً .

ولم اكن أعرف القراءة بعد ، ولكني كنت معجباً بما هو شائع الى حدّ

اني تطلّبت أن تكون لي «كتبي». وقصد جدّي ناشره النذل، فجلب من عنده «حكايات» الشاعر موريس بوشور، وهي حكايات مقتبسة من الفولكلور ومكتوبة للأولاد بقلم رجل يقول إنه ظلّ محتفظاً بعيني طفل. وأردت ان أبدأ على الفور احتفالات الامتلاك، فتناولت الكتابين، وشممتهما، ولامستهما، وفتحتهما بلامبالاة «على الصفحة المطلوبة» وانا أصفقهما. وحاولت، من غير ان أنجح اكثر من قبل، ان أعاملهما كلعبتين، فأهدهدهما وأقبّلهما، وأضربهما. واذ أوشكت ان أبكي، وضعتهما أخيراً على ركبتي أمّي. ورفعت عينيها عما كان بين يديها من عمل، وقالت لي: «ماذا تريد أن اقرأ لك، يا حبيبي؟ الجنيّات؟» فسألتها، غير مصدّق: «الجنّيات؟ أهي موجودة في الداخل؟» وكانت تلك الحكاية مألوفة عندي: كانت أمي غالباً ما ترويها لي، حين كانت تغسل لي وجهي، فتتوقّف لتفركني بماء الكولونيا، ولتلتقط من تحت المغسل قطعة الصابون التي زلقت من يديها، وكنت استمع بشرود الى الحكاية المعروفة اكثر مما ينبغي؛ ولم تكن لي عينان إلا لرؤية آنماري، تلك الفتاة الصبية التي ترافقني كل صباح، ولم تكن لي اذنان الا لسماع صوتها الذي كانت تُفسده الخدمة، وكنت ألتذّ بعباراتها غير الناجزة، وكلماتها المتأخرة دائماً، وطمأنينتها المفاجئة التي تضطرب بقوة وتتحول الى انهزام لتختفي في تمزّق منغّم، ثم تنتظم من جديد، بعد فترة صمت. اما الحكاية، فكانت تجيء، بشكل نافل: كانت الرابطة التي تشدّ مناجياتها الذاتية. وطوال الوقت الذي كانت تتحدث فيه، كنّا وحيدين، خافيين، بعيداً عن البشر والآلهة والكهنة، وعلتين في الغاب، بصحبة الوعلات الأخرى «الجنّيات»؛ ولم اكن أستطيع التصديق بأن هذا الكتاب كلّه قد أُلفّ ليُصوّر فيه هذا الجانب من حياتنا المدنّسة، التي كان ينبعث منها الصابون وماء الكولونيا.

وأجلستني آنماري قبالتها، على كرسيّ الصغير؛ وانحنت فأسبلت جفونها واستنامت. ومن ذلك الوجه الصنّمي خرج صوت من جصّ.

وأضعت رشادي : من كان الذي يروي ؟ ماذا ؟ ولمن ؟ كانت امي قد غابت : فلا بسمة ، ولا علامة تواطؤ ، وكنت أنا منفياً . ثم انني لم أكن أتعرّف لغتها . من اين كانت تستمدّ هذه الطمأنينة ؟ وبعد لحظة ، فهمت : كان الكتاب هو الذي يتكلم . كانت تخرج منها عباراتٌ تخيفني : إنها حشرات حقيقية بألف رجل ، وكانت تنغل بالمقاطع والحروف ، وتمدّد صوتيّاتها المزدوجة ، وتُرعِشُ حروفها الساكنة ؛ كانت مغنّية ، مُخنّة ، مقطوعة بالوقفات والتنهّدات ، زاخرة بالكلمات المجهولة ، وكانت مسحورة بنفسها وبتثنياتها من غير أن تهتمّ بي : وكانت احياناً تختفي قبل أن أستطيع فهمها ، وأحياناً أخرى أفهمها مقدّماً ، وتستمرّ في التدحرج بغطرسة نحو غايتها ، من غير ان تتكرّم عليّ بفاصلة . يقيناً ، إن هذا الخطاب غير موجّه إليّ . اما الحكاية ، فقد لبست ثياب يوم الأحد : فالحطّاب والحطّابة وبناتهما ، والجنّية ، وجميع أولئك الأناس الصغار ، أشباهنا ، كانوا قد اتخذوا مظهر الجلالة ، وكانت لهجة الحديث عن أسمالهم لهجة الروعة ، وكانت الكلمات تُزيل لون الأشياء ، محوّلةً الأفعال الى طقوس ، والأحداث الى احتفالات . وأخذ أحدهم يطرح أسئلة : إن ناشر جدّي ، المتخصّص في اصدار الكتب المدرسية ، لم يكن يفوّت أية فرصة لتمرين ذكاء قرّائه الفتيّ . وخيّل إليّ أنهم يسألون طفلاً : ماذا عساه كان يفعل ، لو كان محلّ الحطّاب ؟ أيّ الاختين كان يفضّل ؟ ولماذا ؟ أكان يوافق على معاقبة بابيت ؟ ولكن هذا الطفل لم يكن إيّاي تماماً ، وكنت قد خفت أن أجيب . وقد أجبت مع ذلك ، فضاع صوتي الضعيف وأحسستني أصبح طفلاً آخر .

وآنماري كذلك، كانت امرأة اخرى ، بهيئتها، هيئة العمياء البصيرة : كان يخيّل إليّ أني كنت ولد جميع الأمّهات ، وانها كانت أم جميع الأولاد . وحين انقطعت عن القراءة ، استعدت منها الكتابين بقوة وحملتهما تحت ذراعي، من غير ان أقول شكراً .

ومع الزمن راقت لي هذه الآلة المطقطقة التي كانت تنزعني من نفسي : لقد كان موريس بوشور ينحني على الطفولة بالعناية الشاملة التي يظهرها رؤساء الأقسام لزبونات المحلات الكبرى ؛ وكان ذلك يثير غروري . وانتهيت الى تفضيل الحكايات المصنوعة بتصميم على الحكايات المرتجلة ؛ وأصبحت حساساً ازاء التتابع الصارم للكلمات : فقد كانت تعود ، لدى كل قراءة ، هي نفسها دائماً وفي النظام نفسه ، وكنت أنتظرها . وفي حكايات آنماري ، كان الأشخاص يعيشون ليومهم ، كما كانت تفعل هي نفسها : فاكتسبوا مصائر . وكنت في قداس : كنت أشاهد العودة الأبدية للكلمات والأحداث .

وأخذتني الغيرة آنذاك من أمي ، فصممت أن أسلبها دورها . واستوليت على كتاب عنوانه « مصائب صيني في الصين » ، فحملته الى حجرة للحاجات اللامجدية ؛ وهناك ، اعتليت سريراً قفصياً ، وتظاهرت بأني أقرأ : كنت أتابع بعينيّ الخطوط السود من غير ان أقفز أيّ سطر ، وكنت أروي لنفسي حكاية بصوت مرتفع ، وأعتني بنطق كلّ مقطع . وفاجأوني — أو جعلتهم يفاجئونني — فصاحوا ، وعزموا على أنه قد آن الأوان لتعليمي الأبجدية . وتحمّست كطالب العماد ، بل ذهبت حتى الى اعطاء نفسي دروساً خاصة : كنت أتسلّق سريري القفصي ومعي « بلا أسرة » لهكتور مالو الذي كنت أحفظه عن ظهر قلب ، فأقرأ مرة ظاهراً ، ومرة محاولاً ان أحلّ الألغاز ، حتى تصفّحت جميع الصفحات ، الواحدة تلو الأخرى : وحين قُلبت الصفحة الأخيرة ، كنت أعرف القراءة .

وكنت مجنوناً من الفرح : انها لي ، تلك الأصوات التي جفّت في مجموعتها الورقية ، تلك الأصوات التي كان جدّي يبعث فيها الروح بنظره ، والتي كان يسمعها ، والتي لم أكن أسمعها ! سوف أصغي اليها ، وسأملأ نفسي بالخطب الاحتفالية ، وسأعرف كل شيء . وقد تركوني أتجوّل في المكتبة ، وأعطيت الكرّة للحكمة البشرية . وهذا ما صنعني . وفيما بعد ، سمعت

مئة مرة مناهضي السامية يأخذون على اليهود جهلهم دروس الطبيعة وألوان صمتها ؛ وكنت أجيب : « انني في هذه الحالة اكثر منهم يهودية » . عبثاً سوف أبحث في نفسي عن الذكريات المتشابكة والضلال اللذيذ للطفولات القروية . انني لم أنبش الأرض قطّ ، ولا فتّشت عن الأعشاش ، وانا لم أقطف نباتاً قط ، ولم أقذف العصافير بالحجارة . ولكن الكتب كانت عصافيري وأعشاشي ، حيواناتي الداجنة ، مراحي وريفي ؛ أما المكتبة ، فكانت العالم مأخوذاً في مرآة ؛ كانت تملك منه صفات الكثافة اللامتناهية والتنوع وعدم قابلية التنبّؤ .

وقذفت نفسي في مغامرات لا تُصدّق : كان ينبغي أن أتسلّق الكراسي والطاولات ، وأواجه خطر أحداث انهيارات من شأنها أن تدفنني . وقد ظلت مؤلفات الرفّ الأعلى خارج متناولي وقتاً طويلاً ؛ وما كدت اكتشف كتباً أخرى حتى انتُزعتْ من يدي ؛ وكانت كتب غيرها مختبئة : وكنت قد أخذتّها وبدأت قراءتها ، وكنت أحسب اني أعدتها الى موضعها ، فكان لا بد من انقضاء اسبوع للعثور عليها . وحدثت لي لقاءات فظيعة : فقد كنت أفتح مجموعة صور ، فأقع على لوحة بالألوان ، وكانت حشرات كريهة تنغل تحت نظري . وتمدّدت على السجادة ، وبدأت رحلات شاقة عبر « فونتنيل » و « ارسطوفان » و « رابليه » : وكانت الجمل تقاومني متماسكة على غرار الأشياء ؛ وكان ينبغي مراقبتها ، والاستدارة حولها ، والتظاهر بأني أبتعد ثم ارتدّ فجأة اليها لأباغتها خارج حراستها : وكانت أغلب الأحيان تحتفظ بسرّها . وقد كنت « لابيروز » و « ماجيلان » و « فاسكودوغاما » ؛ وكنت اكتشف سكاناً أصليين غرباء ، من مثل : « Heautomtioronenénos » [1] في ترجمة لـ « تيرانس » شعراً ، و idiosyncrasie [2] في كتاب للأدب المقارن . وكلمات Apocope [3] و Chiasme [4] و Parangon [5]

(١) لا معنى لهذه الكلمة – المترجم
(٢) المزاج الخاص
(٣) الترخيم (٤) نوع من المقابلة (٥) النموذج

ومئة كلمة أخرى مبهمة كانت تنبعث في منعطف صفحة ، وكان ظهورها وحده كافياً لتمزيق شمل المقطع كلّه . ولم أفهم معنى هذه الكلمات القاسية السوداء الا بعد عشرة أعوام او خمسة عشر ، وهي ما تزال اليوم تحتفظ عندي بكثافتها التي لا تخرَق : انها ذُبال ذاكرتي .

لم تكن المكتبة تضمّ الا كتب فرنسا والمانيا الكلاسيكية الكبرى . وكان فيها كذلك بعض كتب القواعد وبضع روايات مشهورة ، و « حكايات مختارة » لموباسان ، وكتب فنية عن « روبنس » و « فانديك » و « دورر » و « رامبرانت » كان تلامذة جدّي قد قدموها له بمناسبة عيد رأس السنة . عالَمٌ هزيل . ولكن « لاروس الكبير » كان يُغني لديّ عن كل شيء : وكنت أتناول أحد أجزائه ، كيفما اتفق ، من خلف المكتب ، فوق الرفّ قبل الأخير ، Belle - Cr ; A - Bello او Mele - Poc Ci - D او Pr - z (كانت التداعيات في هذه المقاطع قد أصبحت أسماء أعلام كانت تشير الى قطاعات المعرفة العالمية : فكانت هناك منطقة Ci - D ، ومنطقة Pr - z بحيواناتها ونباتاتها ومدنها ورجالها العظام ومعاركها) ؛ وكنت أضعه في مشقة تحت قرطاس جدّي ، فأفتحه وأكتشف فيه أعشاش العصافير الحقيقية ، وأقوم فيه بصيد الفراشات الحقيقية الواقفة على زهور حقيقية . لقد كان الناس والحيوانات موجودين هناك ، شخصياً ؛ وكانت الصور أجسامهم ، وكان النصّ روحهم ، وجوهرهم الفريد ؛ كان المرء يلتقي خارج الجدران ، رسوماً ايجازية مبهمة كانت تقترب كثيراً أو قليلاً من النماذج ، من غير أن تبلغ كمالها : ففي « حديقة التوطين » ، كانت القرود أقل قردنة ، وفي « حديقة اللكسمبورغ » كان البشر أقل بشرية . ولكوني افلاطونياً في الوضع ، كنت أمضي من المعرفة الى غرضها ؛ وكنت أجد للفكرة واقعيةً اكثر مما كنت أجد للشيء ، لأنها كانت تهب نفسها لي أولاً ، ولأنها كانت تهب نفسها كشيء . دائماً في الكتب ، التقيت الكون : متمثّلاً ، مصنّفاً ، مدموغاً ، مفكراً به ، مخيفاً بعد ؛ ولقد خلطت اضطراب تجاربي الكتبية

بالمجرى الاتفاقي للأحداث الواقعية . من هنا مصدر تلك المثالية الّتي انفقت ثلاثين عاماً للتخلّص منها .

كانت الحياة اليومية رائقة : كنّا نعاشر أشخاصاً هادئين يتكلمون بصوت مرتفع واضح ، ويقيمون يقينهم على مبادىء سليمة ، على «حكمة الأمم» ، ولا يتنازلون للتميّز عمّا هو عاديّ مشترك إلاّ بضرب من التصنّع في الروح كنت قد ألفته كلّ الألفة . لقد كانت آراؤهم ، فور إصدارها ، تقنعني في بدهية مبلورة وبسيطة ؛ فاذا كانت تريد ان تـــبرّر مسالكها ، فانّها كانت تقدّم حججاً مملّة جداً بحيث لا يمكنها إلاّ أن تكون حقيقية ؛ ولقد كانت حالاتهم الضميرية ، حين يعرضونها على هين ، تثير اضطرابي أقلّ مما كانت تعلّمني : لقد كانت صراعات مزيّفة محلولة سلفاً ، وكانت هي نفسها أبداً ؛ وكانت أخطاء هذه الآراء حين كانت تعترف بها ، غير ذات وزن : فان عجلة مفرطة ، وغيظاً مشروعاً ، ولكنه مبالغ فيه بلا شك ، كانا قد أفسدا حكمها ، ومن حسن الحظ انها قد تنبهت الى ذلك في الوقت المناسب ؛ اما أخطاء الغائبين ، وهي أعظم خطورة ، فكانت لا تُغتفر على الاطلاق : فلم يكن من دأبهم عندنا ان يغتابوا وينتقصوا ، بل كانوا يلاحظون ، آسفين ، مثالب شخصية من الشخصيات . كنت أصغي ، وكنت أفهم ، وكنت أوافق ، وكنت أجد هذه الأحاديث مدعاة الى الاطمئنان ، ولم أكن على خطأ ، لأنها كانت تهدف الى الطمأنة : ليس ثمة ما هو بلا علاج ، وليس ثمة ، في حقيقة الأمر ، ما يتحرك ، ولا ينبغي لاضطرابات السطح اللامجدية ان تخفي عنا الهدوء الخبازي الذي هو نصيبنا .

كان زوارنا يستأذنون بالانصراف ، فكنت أبقى وحدي ، وأهرب من هذه المقبرة التافهة لألتقي ثانية بالحياة ، وبالجنون في الكتب . وكان حسبي أن أفتح منها واحداً لكي اكتشف فيه من جديد تلك الفكرة اللاإنسانية القلقة الّتي كانت مباهجها وظلماتها تتجـــاوز ادراكي الـــذي كان يقفز

من فكرة الى أخرى بسرعة كبيرة جداً حتى اني كنت أهِنُ وأستسلم مئة مرة في الصفحة، وأتركها تمضي، دائخة، ضائعة. لقد كنت أشهد أحداثاً لا شك في أن جدّي كان يحكم بأنها غير قابلة التحقيق، وقد كانت مع ذلك تملك الحقيقة الناصعة للأشياء المكتوبة. كان الأشخاص ينبعثون بلا مقدمة ولا إنذار، وكانوا يتحابّون ويتنازعون ويتخانقون؛ وكان من يبقى حيّاً ينفق أيامه في الشتاء، ويلقي الى القبر بالصديق، بالعشيقة الرقيقة التي اغتالها. فماذا كان ينبغي أن أفعل؟ أكنت مدعواً كالرجال الكبار الى ان أوبّخ او أهنىء أو أبرّيء؟ ولكن هؤلاء الأصلاء لم يكن يبدو عليهم قط أنهم يسيرون على مبادئنا، وكانت دوافعهم، حتى حين كانوا يشرحونها، يفوتني ادراكها. إن بروتوس يقتل ابنه، وهذا ما يفعله كذلك ماتيو فالكون. وإذن، فهذا العمل كان يبدو مشتركاً بما فيه الكفاية. ومع ذلك، فلم يلجأ اليه احدٌ ممن أعرف حولي. صحيح ان جدّي كان قد تنازع في مودون مع خالي أميل، وقد سمعتهما يصيحان في الحديقة: ولكن لم يكن ثمة ما يدلّ على أنه قد فكّر في قتله. كيف تراه كان يحكم على الآباء الذين يقتلون أبناءهم؟ لقد كنت أنا أستنكف، إن أيامي لم تكن في خطر، اذ كنت يتيماً، وكانت ألوان القتل المسرحي هذا قليلاً ما تسلّيني، ولكني كنت أحسّ في القصص التي ترويها موافقةً كانت تحيّرني. فيما يخصّ هوراس، كنت مضطراً الى أخذ نفسي بالعنف حتى لا أبصق على الصورة المحفورة التي كانت تمثّله واضعاً قبعته، مشهراً السيف، راكضاً خلف المسكينة كامي. وكان كارل يدمدم أحياناً:

ليس هناك من هم أقرب قرابة
من الأخ والأخت بالتأكيد...

وكان ذلك يقلقني: فلو أعطيت بالحظّ اختاً، أكانت تكون أقرب إليّ من آنماري؟ أو من كارلومامي؟ إنها إذن ستكون حبيبتي. والحبيبة لم تكن بعدُ الا كلمة مظلمة كنت غالباً ما ألقاها في مآسي كورناي. محبّون

يتعانقون ويتواعدون على النوم في سرير واحد (يا لها من عادة غريبة : لماذا لا ينامون في سريرين توأمين ، كما كنا نفعل ، أمي وأنا ؟) ولم اكن أعرف اكثر من ذلك ، ولكني كنت أتحسّس تحت سطح الفكرة المشرق كتلةً مشعرة . وعلى أي حال ، كنت أكون أخاً مسافحاً . وكنت أحلم في ذلك . أهو تحويل ؟ ام تغطية للأحاسيس الممنوعة ؟ إن هـذا ممكن . كانت لي أخت كبرى ، هي أمي ، وكنت أتمنى اختاً صغرى . فحتّى اليوم — ١٩٦٣ — أجد أن هذه هي صلة القربى الوحيدة التي تهزّني وتقع في نفسي [١] . وقد ارتكبت الخطأ الكبير في أن أبحث غالباً بين النساء عن هذه الأخت التي لم توجد : فقد رُدّ طلبي ، وحُكم عليّ بالنفقات . وهذا لا يحول دون ان أبتعث ، وانا أكتب هذه الأسطر ، الغضب الذي تملّكني ضد قاتل كامي ؛ فانها من النضرة والحيوية بحيث أتساءل عما اذا لم يكن جرم هوراس هو أحد مصادر مناهضتي للعسكرية : إن العسكريين يقتلون أخواتهم . لو كنت في زمنه ، لكنت أريته ما أفعله به ، ذلك الوحش . انني أبدأ بارساله الى عمود الاعدام ! ثم اثنتا عشرة رصاصة في جلده ! وكنت أقلب الصفحة ، فأقع عـلى حروف طباعـة كانت تدلّني على خطئي : يجب تبرئة قتل الأخت . وكنت أظـل ألهث بضع لحظات ، وأضرب الأرض بكعب حذائي ، أشبه بالثور المخدوع . ثم اني كنت اسرع فألقي الرماد على غضبي .

---

(١) في حوالي العاشرة، كنت اتلذذ وانا اقرأ « عـابرات الاطلنطي » : وفيـه يرى اميركي صغير واخته، وهما بعيدان في الحقيقة عن السفاح ، ولكني كنت أتجسد في الصبي وكنت احب عبره الفتاة « بيدي » . وقد فكرت طويلا بان اكتب قصة صبي وصبية ضائعين وهما بالخفية مسافحان . وفي كتاباتي آثار من هذا الحلم : اورست واليكتر في « الذباب» بوريس وايفيش في « دروب الحرية » ، فرانز وليني في « أسرى التونا » . وهـذان الأخيران هما الوحيدان اللذان يطبقان الامر عملياً. وما كان يسحرني في هذه الصلةالعائلية هو خطر القيام بالحب اكثر من الاغراء الغرامي : كان السفاح يروق لي ، وهو نـار وثلج ، ومتعة وكبت ممزوجان ، اذا ظل افلاطونياً .

لقد كان الأمر هكذا ؛ وكان عليّ أن أقرّر منه وضعي : لقد كنت أصغر مما ينبغي .

وكنت قد واجهت كل شيء مواجهة جانبية ، وكانت ضرورة هذه التبرئة قائمة فعلاً في الأبيات العديدة التي ظلت مغلقة دوني باحكام ، او التي كنت قد قفزت عنها بدافع من نفاد الصبر . كنت أحبّ هذه الذبذبة ، واحبّ ان يفوتني التاريخ من كل جانب : إن ذلك كان ينقلني الى جوّ غريب آخر . ولقد قرأت عشرين مرة الصفحات الأخيرة من « مدام بوفاري » ؛ حتى انتهى بي الأمر الى أني كنت أحفظ المقاطع الأخيرة منها عن ظهر قلب ، من غير ان يزداد مسلك الأرمل المسكين وضوحاً : لقد كان يعثر على رسائل ، أفكان هذا سبباً لإرخاء لحيته ؟ وكان يلقي على رودولف نظرة مظلمة ، فهو إذن كان يكنّ له حقداً ، ولكن علامَ ، في الواقع ؟ ولماذا تراه كان يقول له : « انني لست عاتباً عليك . » ولماذا كان رودولف يجده « هزلياً وخسيساً بعض الشيء » ؟ ثم إن شارل بوفاري كان يموت : أسى ؟ ام مرضاً ؟ ولماذا كان الطبيب يشقه ما دام كل شيء قد انتهى ؟ لقد كنت أحبّ تلك المقاومة الصلبة التي لم أكن قط أبلغ نهايتها ؛ لقد كنت وأنا مخدوع ، مرهق ، أتذوّق شهوة ان أفهم من غير ان أفهم : تلك كانت كثافة العالم ؛ وذلك القلب البشري الذي كان جدّي يتحدث عنه مسروراً في الأسرة ، كنت أجده تافهاً أجوف في كل مكان ، الا في الكتب .

وكانت اسماء مدوّخة تكيّف مزاجي فتغرقني في ألوانٍ من الجزع او الكآبة كانت أسبابها تفوتني . كنت أقول « شاربورافي » ، وكنت أرى في لامكان ملتحياً طويلاً ذا أسمال يتنزّه في حوش : ولم يكن ذلك محتملاً . وكان مصدر هذه اللذاذات القلقة مزيج خوفيْن متناقضين . كنت أخشى أن أسقط ، ورأسي قبلي ، في عالم خرافيّ، وأن أتيه فيه بلا انقطاع ، صحبة هوراس ، وشاربورافي ، من غير أمل في أن ألتقي شارع « لوغوف »

ولا كارلومي ولا أمي . وكنت أخمّن ، من جهة اخرى ، أن هذه الصفوف من العبارات كانت تقدّم للقراء الراشدين معاني كانت تهرب مني . وكنت أدخل الى رأسي ، بواسطة عينيّ ، كلماتٍ سامّة ، أغنى جداً مما كنت أعرف ؛ وكانت قوة غريبة تؤلّف فيّ من جديد ، بواسطة خطاب حكايات الغاضب التي لم تكن تعنيني ، أسىً قاسياً ، تلف حياةٍ ما : أتراني لن أنتن ، ولن أموت مسموماً ؟ كنت ابتلع « الكلمة » وكانت الصورة تبتلعني ، فلم اكن انقذ نفسي اجمالاً الا بتناقض هذين الخطرين المتعاقبين . كنت عند زوال النهار أضلّ في غابة من الكلمات ، وارتعش لأدنى ضجّة ، وأحسب قرقعة الأرض الخشبية حروف ندبة ، فكنت أظنني اكتشف اللغة في حالتها الطبيعية ، بلا مساعدة البشر .

وكان يستولي عليّ عزاء جبان وخيبة كبيرة حين كنت ألتقي ثانية بالتفاهة العائلية اذ كانت أمي تدخل عليّ فتضيء النور وهي تصرخ : « يا حبيبي المسكين .. إنك تتلف عينيك ! » فأقفز على قدمي شرساً ، وأصرخ واعدو وأقوم بالتهريج . ولكني حتى في تلك الطفولة المستردّة ، كنت أرتعد : عمّ تتحدث الكتب ؟ من يكتبها ؟ لماذا ؟ وفاتحت جدي بقلقي هذا ، فحكم بعد تفكير أنه قد آن الآوان لكي أتحرّر .

وكان قد أرقصني لمدة طويلة على ساقه الممدودة وهو يغنيّ : « إركب حصاني الصغير ؛ إنه حين يقفز يضرّط .. » فكنت أضحك مندهشاً للفضيحة .. وكفّ عن الغناء : فأجلسني على ركبتيه ونظر في أعماق عينيّ ، وكان يردد بصوت جهوري : « اني رجل ، اني رجل ، وليس ثمة ما هو انساني الا أعرفه » وكان يبالغ كثيراً ؛ فكما فعل أفلاطون بالشاعر ، كان كارل يطرد من جمهوريته المهندس والبائع ، وعلى الأرجح الضابط . كانت المصانع تفسد عليه المنظر ؛ ولم يكن يتذوق من العلوم الصافية الا الصفاء . وفي « غيربنبي » حيث كنا نقضي الأسبوعين الاخيرين من تموز ، كان خالي جورج يأخذنا لزيارة مسابك المعادن ، في جوّ حارّ ، حيث

نجد رجالاً قساة بثياب بالية ، يدافعوننا . وكانت تصمّ اذني ضجة هائلة ، فكنت اكاد أموت خوفاً وضجراً ؛ وكان جدي ينظر الى المسيل وهو يصفر ، ادباً ، ولكن عينه كانت تظل جامدة . اما في « اوفيرنيي » فقد كان بالمقابل يفتش ، حين يزورها ، عبر القرى ، و ينزرع عند البنايات القديمة ، ويضرب قطع القرميد بطرف عصاه ؛ وكان يقول لي بحيوية : « إن ما تراه هنا ، أيها الصغير ، هو جدار من عهد الغاليين والرومان » وكان يقدّر كذلك الهندسة الدينية ؛ وبالرغم من أنه كان يزدري الخاضعين للبابا ، فإنه لم يكن يقصّر قط في دخول الكنائس حين تكون غوطية ؛ أما إذا كانت رومانية ، فكان ذلك يتوقف على مزاجه . وكان قد انقطع عن الذهاب الى الحفلات الموسيقية ، ولكنه كان قد حضرها كثيراً : وكان يحب بتهوفن وفخامته وجوقاته الكبيرة ؛ وكذلك باخ ، من غير حماسة . وكان يقترب احياناً من آلة البيانو فيوقّع باصابعه الصقعة بضعة أنغام ، من غير ان يجلس : وكانت جدتي تقول ، في بسمة مغلقة : « إن شارل يؤلّف » . وكان ابناؤه قد أصبحوا – ولا سيما جورج – عازفين مهرة يحتقرون بتهوفن ويفضلون « موسيقى الغرفة »[1] على كل موسيقى اخرى ؛ ولم يكن هذا الخلاف في وجهة النظر لنزعج جدي ؛ وكان يقول بلهجة طيبة : « لقد ولد آل شوايتزر موسيقيين » ولم يكن قد مضى على ولادتي ثمانية أيام ، فبدا أني أطرب لقرقعة ملعقة ، وعندها أعلن جدي أنّ لي « أذناً » .

كانت الواجهات الزجاجية ، والزوافر ، والبوابات المحفورة ، والجوقات ، وصور المصلوب المحفورة في الخشب او الحجر ، و « التأملات » الشعرية : كل هذه الألوان « الانسانية » كانت تردّنا دائماً الى « الإلهي » ، لاسيما وأنه كان علينا ان نضيف اليها ألوان الجمال الطبيعي . لقد كان نَفَسٌ

(١) هي الموسيقى المكتوبة لعدد محدد من الآلات – المترجم

واحد يصنع آثار الله والآثار البشرية العظيمة ، وكان قوس قزح واحد يلتمع في زبد الشلالات ، ويتلألأ بين سطور فلوبير ، ويبرق في رسوم رامبرانت المشرقة — المظلمة : ذلك هو الروح . لقد كان « الروح » يتحدث الى « الله » عن « البشر » ، وكان يشهد للبشر على « الله » . وفي « الجمال » كان جدي يرى الحضور الجسدي « للحق » والمصدر الأنبل للتساميات . وفي بعض الظروف الاستثنائية — حين كانت عاصفة ما تنفجر في الجبل ، وحين ينزل الوحي على فكتور هوغو — كان بالامكان بلوغ « النقطة القصوى » التي كان « الحق » و « الجمال » و « الخير » تمتزج عندها .

كنت قد وجدت ديني : فليس ثمة ما بدا لي أكثر أهمية من الكتاب . وكنت أرى في المكتبة معبداً . كنتُ ، وأنا حفيد كاهن ، أعيش على سقف العالم ، في الطابق السادس ، معلقاً على أعلى غصن في « الشجرة » المركزية : وكان الجذع هو قفص المصعد . كنت أروح وأغدو على الشرفة ، وألقي على المارة نظرة مائلة ، وأحيّي عبر الحاجز « لوسيت مورد » جارتي التي كانت في مثل سنّي ومثل خصلاتي الشقراء وأنوثتي الطفلة ، ثم أدخل ثانية الى « معبدي » ، ولم اكن أهبط منه قط « بشخصي » : فحين كانت أمي تصحبني الى حديقة اللكسمبورغ (يعني كل يوم) كنت أعير أسمالي الى المناطق الدنيا ، أما جسمي المجيد فلم يكن يترك مجثمه ، وأعتقد انه ما زال عنده حتى الآن .

إن لكل انسان مكانه الطبيعي ؛ وارتفاع هذا المكان لا تحدّده الكبرياء ولا القيمة : وانما الطفولة هي التي تقرّره . أما مكاني ، فهو طابق باريسي سادس ذو اشراف على السطوح . لقد اختنقت طويلاً في الوديان ، وأرهقتني السهول : فكنت أجرجر قدمي على كوكب المرّيخ ، وكان الثقل يسحقني ؛ وكان يكفيني ان ارقى ربوة صغيرة لكي أستعيد الفرح : كنت بذلك ألجأ من جديد الى طابقي الرمزي السادس ، فأتنفّس فيه هواء « الآداب

الجميلة » النادر ، وكان « الكون » يتنضّد تحت قدميّ ، وكان كل شيء يطلب له اسماً بتواضع ، فاذا أعطيته إيّاه خلقت الشيء وأخذته في وقت واحد . ولولا هذا الوهم الرئيسي ، لما كتبت أبداً .

انني اليوم ، في ٢٢ نيسان ١٩٦٣ ، أصحّح هذه المخطوطة في الطابق العاشر من بيت جديد : وأرى من نافذة مفتوحة مقبرة ، وباريس ، وروابي سانت كلود الزرقاء . وهذه علامة عنادي . ومع ذلك ، فكل شيء قد تغيّر . فلو أردت وأنا طفل ان أستحق هذا المكان المرتفع ، لوجب الحكم على ميلي لأبراج الحمام بأنه نتيجة طموح او أنانية أو تعويض عن قامتي الصغيرة ؛ ولكن لا ، لم يكن وارداً تسلق شجرتي المقدّسة ؛ فلقد كنت متسلقاً عليها ؛ وكنت ارفض أن أهبط منها . لم تكن القضية ان أضع نفسي فوق البشر؛ وانما كنت اريد ان اعيش ملء الأثير ، بين الأشباح الهوائية للأشياء . وفيما بعد ، بدلاً من أن أتعلّق بالغيوم ، أنفقت كل حيويتي لكي أسيل تحت : وكان لا بدّ من أن أنتعل حذاء من رصاص . وقد واتاني الحظ أحياناً ، فحدث لي أن لامست على رمال عارية أنواعاً تغوص تحت البحر كان عليّ أن أخترع لها أسماء . وأحياناً أخرى ، كان يسقط في يدي : فان خفّة لا تقاوم كانت تمسكني على السطح . وانتهى الأمر بأن تعطّل ميزان الارتفاع عندي ، فأنا تارةً « لودوبون »[1] وطوراً غوّاص ، وغالباً الاثنان معاً ، كما ينبغي في قضيتنا : انني أعيش في الهواء بداعي العادة ، وأتعاطى شؤون الناس تحت ، بغير ما أمل مفرط .

وكان ينبغي مع ذلك أن أُحدّث عن المؤلفين . وقد قام جدّي بذلك في براعة ، من غير حرارة . فعلّمني أسماء اولئك الرجال العظام ؛ وكنت اذا خلوت الى نفسي أتلو اللائحة ، من هزيود الى هوغو ، بلا ارتكاب الغلط : لقد كانوا هم القديسين والأنبياء . وكان شارل شوايتزر يقول إنه

---

(١) كلمة فرنسية تعني دمية صغيرة معلقة بكرة جوفاء ، تصعد او تهبط في اناء مملوء بالماء حين يضغط او لا يضغط على الغشاء المطاط الذي يغلق هذا الاناء . — المترجم

يكنّ لهم نوعاً من العبادة . ومع ذلك ، فقد كانوا يزعجونه : فان حضورهم اللاملائم كان يمنعه ان يعزو تواً الى « الروح القدس » أعمال « الانسان » . من أجل هذا كان يغذّي تفضيلاً خفياً للأسماء الغفل ، وللبنّائين الذين اوتوا التواضع الكافي لكي يمّحوا امام كاتدرائياتهم ، وللمؤلف المتكاثر الذي وضع الأغاني الشعبية . ولم يكن يحتقر شكسبير الذي لم تكن هويته ثابتة ؛ ولا هوميروس ، للسبب نفسه ، ولا آخرين لم يقم الدليل القاطع على وجودهم . وكان يجد المعاذير لأولئك الذين لم يريدوا او لم يحسنوا محو آثار حياتهم ، شريطة ان يكونوا قد ماتوا . ولكنه كان يدين بالجملة معاصريه باستثناء أناطول فرانس ، وكورتلين الذي كان يبعث لديه المرح . وكان شارل شوايتزر يتمتع في اعتزاز بالاعتبار الذي كانوا يكنّونه لسنّه الكبيرة ، ولثقافته ، ولجماله ، ولفضائله ، ولم يكن هذا اللوثري يمتنع عن أن يفكر ، تفكيراً توراتياً ، بأن « السرمدي » كان قد بارك بيته . فقد كان اذا جلس الى المائدة يخشع ويتأمل أحياناً ليأخذ نظرة فرسية عن حياته ، وليقول أخيراً : « يا أولاد ، كم هو طيّب ألاّ يجد المرء ما يأخذه على نفسه . » لقد كانت سورات غضبه ، وجلالته ، وكبرياؤه وحبّه للرفيع والنبيل تخفي خجلاً فكرياً كان صادراً عن دينه ، وعن عصره ، وعن « الجامعة » ، وسطه . من أجل هذا كان يستشعر نفوراً خفياً من عفاريت مكتبته الملعونين ، رجال الكيس والحبل أولئك الذين كان يعتبر كتبهم ، في دخيلته ، ألواناً من المجون .

وكنت مخطئاً في تقدير ذلك : لقد كنت أعتبر التحفّظ الذي يُغلّف حماسة أمر من الأوامر ، قسوة حاكم ؛ إن كهنوته كان يرفعه فوقهم . وعلى أي حال ، ليست العبقرية إلاّ قرضاً ، كما كان يوحي لي « وزير العبادة » : فيجب أن يستحقها المرء بعد آلام عظيمة ، ونحن يجتازها بتواضع وصلابة ؛ ثم ينتهي به الأمر الى سماع أصوات ، ويأخذ في الكتابة وكأنما يملى عليه إملاء . وبين الثورة الروسية الأولى وأول نزاع عالمي ، وبعد خمسة عشر عاماً من موت مالارميه ، وفي اللحظة التي كان دانيال دو

فونتانين يكتشف فيها « الأغذية الأرضية » ، كان رجل من القرن التاسع عشر يفرض على حفيده الأفكار الشائعة في عهد لويس فيليب .

وعلى هذا النحو ، كما يُقال ، تُفسّر العادات القروية : الآباء يذهبون الى الحقول ، تاركـين الأبنـاء في أيدي الأجـداد : لقد كنت ابدأ انطلاقي بتأخّر يعادل ثمانين عاماً . أيجب ان أشكو من ذلك ؟ لا أدري : إن التأخر في مجتمعاتنا المتحركة يعطي أحياناً تقدّماً . ومهما يكن من أمر ، فقد أُلقيت لي تلك العظمة للقضم ، وقد قضمتها جيداً بحيث اني ارى النهار من وسطها . كان جدّي قد تمنّى ان ينفّرني بصورة خفية من الكتّاب ، هؤلاء الوسطاء . فحصل على النتيجة المعاكسة : لقد خلطت بين الموهبة والمهارة . وكان أولئك الرجال الشجعان يشبهونني : فحين كنت عاقلاً ، وحين كنت أتحمّل أوجاعي بشجاعة ، كان لي الحقّ بأشجار غار ، بمكافأة ؛ تلك كانت الطفولة . وكان كارل شوايتزر يُريني أطفالاً آخرين ، مراقبين مثلي ، مجرّبين ، مكافأين ، كانوا قد عرفوا ان يحتفظوا طوال حياتهم بعمري . ولقد اتخذت منهم اصدقائي الأولين ، أنا الذي لم يكن لي أخ ولا أخت ولا رفاق . كانوا قد أحبّوا ، وتألموا في صرامة ، كأبطال رواياتهم ، وانتهوا خصوصاً نهاية طيبة ؛ كنت أتذكّر آلامهم في حنوّ لا يخلو من مرح : لا بدّ ان يكونوا مسرورين ، أولئك الاخوان ، حين كانوا يشعرون بأنهم أشقياء؛ إنهم يقولون لأنفسهم : « أيّ حظ هذا ! إن بيتاً جميلاً من الشعرسيولد ! » .

إنهم لم يكونوا في نظري أمواتاً ، اقصد انهم لم يكونوا امواتاً تماماً : لقد تحوّلوا الى كتب . كان كورناي محمّراً طويلاً ، خشن الملمس ، ظهره من الجلد ، ورائحة صمغ تنبعث منه . وتلك الشخصية القاسية الثقيلة ، ذات الكلمات الصعبة ، كانت له زوايا تجرح فخذيّ حين كنت أحمله . ولكنه ما يكاد يُفتح ، حتى كان يبسط لي نقوشه ، اللذيذة المعتمة ، كأنها مسارّاة . أما فلوبير فكان شكلاً قماشياً صغيراً ، لا رائحة له ، منقّطاً بنقط صوتية . وكان فكتور هوغو المتعدّد يعشّش في جميع الرفوف ، في

واقت واحد . هذا بشأن الأجسام . وأما الأرواح ، فكانت تعمر الآثار : كانت الصفحات نوافذ ، ومن الخارج كان وجه ٌ ما يلتصق بالزجاج ، وكان أحدٌ ما يترصّدني : وكنت أتظاهر بأنني لا ألاحظ شيئاً ، وأمضي في قراءتي ، وعيناي مسلوبتان على الكلمات تحت نظر المرحوم شاتوبريان الثابت .

ولم تكن ألوان القلق هذه تدوم ؛ فقد كنت في الأوقات الباقية أعبد رفاق اللعب هؤلاء . لقد وضعتهم فوق كل شيء ، ورُوي لي ، من غير ان اندهش ، ان شارل–كانت كان قد التقط ريشة تيتيان : يا للقصة الجميلة ! إن الأمير انما هو مجعول لهذا . ومع ذلك ، فلم أكن أحترمهم : لماذا تراني أمدحهم أن يكونوا عظاماً ؟ انهم لم يكونوا يعملون الا واجبهم . وانما كنتُ أوبّخ الآخرين ان يكونوا صغاراً . وبالاختصار ، كنت قد فهمت كل شيء فهماً مائلاً ، وكنت أجعل من الاستثناء القاعدة : لقد أصبح النوع البشري لجنة محدودة كانت تحيط بها حيوانات محبّة . وكان جدّي خاصة يتصرّف بهم تصرّفاً مفرط السوء لأتمكن من أن آخذهم أخذاً جدياً مئة بالمئة . وكان قد انقطع عن القراءة منذ موت فكتور هوغو ؛ وحين لم يكن لديه ما يصنعه ، كان يعيد قراءة ما قرأ . ولكن مهنته كانت ان يترجم . والحق ان مؤلف Deutshes Lesebuch كان يعتبر الأدب العالمي مادّته البنائية . فكان يصنّف المؤلفين ، بأطراف شفتيه ، حسب المهارة ، ولكن هذا التسلسل الظاهري كان يشفّ عن تفضيلاته التي كانت نفعية : كان موباسان يقدّم للطلاب الألمان أفضل الترجمات ؛ أما غوته فقد كان الكاتب الذي لا يضاهى ، في جميع الموضوعات ، وكان يسبق غوتفريد كيلر بمسافة رأس واحد .

كان جدّي يهتمّ بالمذهب الانساني ، فكان احترامه للروايات ضعيفاً ؛ ولما كان استاذاً ، فقد كان يقدّرها كثيراً بسبب المفردات . ثم كفّ عن أن يحتمل الا القطع المختارة ، وقد رأيته ، بعد ذلك بسنوات ، يتلذّذ بمختارات من « مدام بوفاري » انتقاها « ميزونو » لـ « المطالعات » . حين كان فلوبير

ـ في مجموعه ـ ينتظر منذ عشرين عاماً تكرّمه عليه. وكنت أشعر انه كان يعيش على الأموات، مما لم يكن الا ليعقّد علاقاتي معهم: فبحجة انه يضعهم موضع العبادة، كان يشدّهم في سلاسله، ولا يحرم نفسه ان يقطّعهم أجزاء ليحملهم من لغة الى أخرى حملاً أيسر. وقد اكتشفت في الوقت نفسه عظمتهم وبؤسهم. ومن سوء حظ ماريميه انه كان يناسب الصفوف الوسطى؛ ونتيجة لذلك كان يسوق حياة مزدوجة: ففي الطابق الرابع من المكتبة، كانت «كولومبا»[1] حمامةً نضرة ذات مئة جناح مثلج، مبذولة ولكنها مجهولة جهلاً تاماً؛ ولن يفتضّ زهرها ايّ نظر.

ولكن هذه العذراء نفسها، كانت على الرفّ الأسفل، محبوسة في كتيب صغير قذر ومنتن؛ لم تكن القصة ولا اللغة قد تغيّرتا. ولكن كان ثمة ملاحظات بالألمانية ومعجم؛ وقد علمت، بالاضافة الى ذلك، انه كان قد طُبع في برلين، وتلك فضيحة لا تضاهيها فضيحة، منـذ انتهاك الألزاس واللورين. وقد كان جدّي يضع هذا الكتاب في محفظته مرتين في الاسبوع، وكان قد غطّاه باللطخات، وبالخطوط الحمراء وبالحروق، وكنت أحتقره: إنه كان ماريميه وقد أُذِلّ. كان حسبي ان أفتحه حتى أموت ضجراً: فقد كان كل مقطع ينفصل تحت نظري، كما كان يفعل، في المعهد، في فم جدّي. تلك العلامات المعروفة، والتي لم تكن تُعرف الا بجهد، والتي طُبعت في المانيا ليقرأها ألمان، ماذا تُراها كانت إن لم تكن تشويهاً للكلمات الفرنسية؟ انها قضيّة تجسس أخرى: فانه يكفي الحكّ لاكتشاف الكلمات الالمانية الكامنة خلف تنكّرها الغولوازي. وانتهيت الى أن أتساءل عمّا اذا لم يكن هناك «كولومبان»: الأولى وحشية وحقيقية، والأخرى مزيّفة وتعليمية، شأنهما في ذلك شأن ايزو[2].

---

(١) قصة لماريميه معروفة بقوة الحبكة ودقة الاسلوب. ـ المترجم

(٢) بطلة اسطورة من القرون الوسطى، في رواية طويلة بعنوان « تريستان وايزو» ـ المترجم

أقنعتني مصائب رفاقي اني كنت صنوهم . انني لم اكن أملك مواهبهم ولا مهارتهم ، ولم اكن أفكر بعدُ ان اكتب ، ولكني كنت ، وأنا حفيد كاهن ، متفوقاً عليهم بالولادة ؛ وليس ثمة أدنى ريب اني كنت مرصوداً ، لا لعذاباتهم التي تثير دائماً بعض الدهشة ، وانما لكهنوتٍ ما ؛ وسأكون حارساً للثقافة ، كشارل شوايتزر . ثم انني كنت حياً ، أنا ، وعظيم النشاط : صحيح انني لم اكن أعرف بعدُ تجزئة الموتى ، ولكني كنت أفرض عليهم أهوائي : كنت آخذهم بين ذراعي ، وكنت أحملهم ثم أضعهم على الأرض الخشبية ، وأفتحهم وأغلقهم ، وأخرجهم من العدم لأعود فأغرقهم فيه . لقد كانوا دُماي ، اولئك الرجال — الجذوع ، وكنت أشفق على حياتهم تلك الباقية المشلولة التي كانت تُدعى خلودهم . وكان جدّي يشجّع هذه الألوان من الألفة ورفع الكلفة : فإن جميع الأطفال مُلهمون ، ولا يمكنهم أن يحسدوا الشعراء الذين هم أطفال ، بكل بساطة . وكنت مغرماً بكورتالين . وكنت ألحق بالطبّاخة حتى المطبخ لأقول لها بصوت مرتفع : « إن تيودور يبحث عن أعواد الثقاب » . وكان ولعي هذا مدعاة للتسلية ، وقد نمّتْه ألوان من العناية ، فأحالته الى هوس مُعلن . وذات يوم ، قال لي جدّي باهمال : « لا بدّ ان كورتلين رجل طيّب . واذا كنت تحبّه الى هذا الحدّ ، فلماذا لا تكتب له ؟ » وكتبت ، وقد قاد شارل شوايتزر قلمي وعزم أن يترك عدة أخطاء املائية في الرسالة . وقد نشرت بعض الصحف ، منذ بضعة أعوام ، نصّ هذه الرسالة ، فانزعجت وأنا أقرأها ثانية . لقد أنهيت تلك الرسالة بهذه الكلمات « صديقك المقبل » التي كانت تبدو لي طبيعية جداً : كنت قد ألفت فولتير وكورناي ، فأنّى لكاتب « حي » أن يرفض صداقتي ؟ ولقد رفضها كورتلين ، وحسناً ما فعل : فلو أجاب الولد ، لوقع على الجدّ . وفي ذلك العهد ، حكمنا على صمته حكماً قاسياً ، وقال شارل : « انني أقرّ ان يكون لديه عملٌ كثير ، ولكنّ المرء يجيب على ولد ، حين يكون الشيطان داخلاً في الموضوع . »

ذلك العيب الصغير ، الألفة ورفع الكلفة ، ما يزال اليوم موجوداً فيّ . انني أعاملهم كرفاق صفّ ، أولئك المرحومين المشهورين ؛ فأنا أعبّر عن رأيي في بودلير وفلوبير بلا مواربة ، وحين أواخذ على ذلك ، تجيئني الرغبة دائماً في أن أجيب : « لا تتدخلوا في شؤوننا . لقد امتلكتهم ، عباقرتكم هؤلاء ، فأمسكتهم بين يدي ، وأحببتهم حتّى الهوس ، بكل عدم احترام . فهل ألبس الآن القفازات معهم ؟ » ولكن نزعة كارل الانسانية ، تلك النزعة الحبْرية ، انما تخلّصت منها يوم فهمت ان كل انسان هو الانسان . كم أنّ الشفاء محزن ! إن اللغة تفقد سحرها ؛ ولقد دخل أبطال القلم ، اندادي القدامى ، وقد جُرّدوا من امتيازاتهم ، دخلوا في الصف : فأنا أرتدي الحداد عليهم مرتين .

إن ما كتبته الآن زائف . بل حقيقي . لا هو حقيقي ولا زائف ، ككل ما يكتب عن المجانين ، وعن البشر . لقد سردت الوقائع بالقدر من الصحة الذي كانت تسمح له به ذاكرتي . ولكن الى أي جدّ كنت اؤمن بهذياني ؟ إنها القضية الأساسية ، وأنا مع ذلك لا أبتّ فيها . لقد رأيت فيما بعد ان بوسع الناس أن يعرفوا كل شيء عن عواطفنا الودّية ، ما عدا قوتها ، أعني صدقها . إن الأعمال نفسها لن تصلح لاعتبارها معياراً ، إلاّ أن نثبت بأنها ليست بادرات ، وهذا ليس ممكناً دائماً . فالأرجح أني ، وأنا وحيد وسط الراشدين ، كنت راشداً بشكل منمنم ، وكنت أقوم بمطالعات راشدة ؛ إنّ ذلك يبدو زائفاً لأني كنت أظل ، في اللحظة نفسها ، طفلاً . وأنا لا أدّعي اني كنت مذنباً : كان الأمر هكذا . هذا كل شيء ، وهذا لم يمنع أن أبحاثي ومطارداتي كانت جزءاً من المسرحية العائلية وانهم كانوا مسحورين بها ، واني كنت أعرف ذلك : نعم ، كنت أعرف ذلك ، فقد كان طفل عجائبي يوقظ كل يوم كتب السَّحَرة التي كان جدّه قد كفّ عن قراءتها . كنت أعيش فوق مستوى عمري ، كما يعيش المرء فوق مستوى وسائله : بحماسة ، وتعب ، ونفقات مرتفعة ، من أجل المظهر . وكنت ما أكاد أدفع باب المكتبة حتّى أجدني مرة ثانية في بطن عجوز جامد :

المكتب الكبير ، والقرطاس ، ولطخات الحبر ، الحمراء والسوداء ، على النشّافة الورديّة ، والمسطرة وإناء الصمغ ، ورائحة التبغ القذرة ، وفي الشتاء اشعاعات السمندر المحمّرة ، واصطفاقات الميكا ، إنه كارل بشخصه : ولم أكن بحاجة الى اكثر من هذا لأكون في وضع النعمة ، فكنت أهرع الى الكتب . باخلاص ؟ ماذا يعني هذا ؟ كيف تراني أستطيع ان أحدّد — ولا سيما بعد انقضاء هذه السنوات الطويلة — الحدّ المتحرك الذي لا يُدرك والذي يفصل الامتلاك عن التمثيل ؟ لقد كنت أتمدّد على بطني ، تجاه النوافذ ، وأمامي كتاب مفتوح ، وقدح ماء محمّر الى يميني ، والى يساري قطعة خبز مع المربى ، في صحفة . وحتّى في الوحدة ، كنت في التمثيل : كانت آنماري وكارلومامي قد قلّبا هذه الصفحات قبل ان أولد ، وكانت معرفتهما هي التي تنبسط تحت عينيّ ؛ سوف أُسأل عند المساء : « ماذا قرأت ؟ وماذا فهمت ؟ »

كنت أعرف ذلك ، كنت في الحمل ، وسأضع كلمة طفل ؛ وقد كانت أفضل وسيلة للاتصال بالأشخاص الكبار هي الفرار منهم ؛ إن نظرهم المقبل ، في حال غيابهم ، كان يدخل فيّ من القذال ، ثم يخرج من البؤبؤين ويزرع على سطح الأرض تلك العبارات المقروءة مئة مرة ، والتي كنت اقرأها للمرة الأولى . واذ رؤيت ، كنت أرى نفسي : كنت ارى نفسي اقرأ ، كما يسمع المرء نفسه يتحدث . أتراني قد تغيّرت الى حد كبير منذ كنت أتظاهر بحلّ ألغاز : « الصيني في الصين » قبل أن أعرف الأبجدية ؟ لا : لقد كانت اللعبة مستمرة . كان الباب يُفتح خلفي ، وكانوا يأتون ليروا « ما كنت أفبرك » : كنت أزوّر ، وكنت أنهض بقفزة واحدة ، فأعيد « موسيه » الى مكانه ، ثم أذهب ، منتصباً على رؤوس أصابعي ، وذراعاي مرفوعتان ، لأتناول « كورناي » الثقيل ؛ وكانوا يقيسون حماستي بجهودي ، وكنت أسمع خلفي صوتاً مبهوراً يتمتم : « ذلك انه يحب كورناي ! » ولم أكن أحبّه : كنت أنفر من الشعر ذي الوزن الاسكندري . ومن حسن الحظ

ان الناشر لم يكن قد أصدر، بالنص الكامل، الأشهر المآسي ؛ وأما المآسي الأخرى، فكان يورد عنوانها والحجة التحليلية ؛ وهذا ما كان يهمني : «يضغط اونولف على رودولنيد . زوجة برتاريت ، ملك اللومبارد الذي هزمه غريموالد ، لكي تساعد الأمير الأجنبي ... » وقد عرفتُ رودوغون ، وتيودور ، وأجيسيلاس قبل «السيد» وقبل «سينا» ؛ وكنت أملأ فمي بالأسماء الرنانة ، وأملأ قلبي بالمشاعر الرفيعة ، وكنت أحرص على ألاّ أتيه في صلات القرابة . وكان يقال أيضاً : «إن هذا الصغير عَطِشٌ للتعلّم ؛ فهو يلتهم اللاروس ! » وكنت أدعهم يقولون . ولكنني لم أكن أتعلّم قطّ ؛ كنت قد اكتشفت أن القاموس يحتوي ملخصات مسرحيات وروايات ؛ وكنت أتلذّذ بها :

كنت أحب أن اروق ، وكنت اريد أن آخذ حمّامات ثقافة : فكنت أعود الى تعبئة نفسي بالمقدّسات كل يوم . وأحياناً بشرود : كان يكفيني ان أركع وان أقلّب الصفحات ؛ وقد استخدمت مؤلفات أصدقائي الصغار غالباً كطواحين للصلوات . وفي الوقت نفسه أخذتني مخاوف ومسرّات « بشكل جدّي » ؛ كان يتفق لي أن أنسى دوري وأركض بلا وعي ، يحملني حوت مجنون لم يكن شيئاً آخر غير العالم . هيّا اختم ! على أي حال ، كان نظري يشتغل الكلمات : كان ينبغي ان تُجرَّب ، وأن يُبتّ بمعناها : وهكذا كانت « مسرحية » الثقافة ، تثقفني ، على مدى الزمن .

غير انني كنت أقوم بمطالعات « حقيقية » : خارج المعبد ، في غرفتنا او تحت طاولة غرفة الطعام ؛ ولم اكن احدّث أحداً بشأن هذه المطالعات ، ولم يكن أحد يحدثني عنها ، باستثناء أمي. كانت آنماري قد حملت على محمل الجدّ حماساتي المزوّرة ، فأطلعت مامي على قلقها ؛ وكانت جدّتي حليفة أكيدة ، فقالت : «إن شارل لا يسلك سلوكاً عاقلاً . فهو الذي يدفع الصغير ، وقد رأيته يفعل . سنحقّق تقدماً كبيراً حين يصبح هذا الصغير متجفّفاً ! . » وتحدثت المرأتان ايضاً عن الإرهاق وداء السحايا . على انه كان خطراً ولامجدياً ان تهاجما جدّي مواجهة : فواربتا . وفي

احدى نزهاتنا ، توقّفت آنماري ، كما لو أن ذلك بالاتفاق ، أمام كشك ما يزال قائماً عند زاوية جادة سان ميشال وشارع سوفلو : فرأيت صوراً مدهشة ، وسحرتني ألوانها الفاقعة ، فطلبتها وحصلت عليها ؛ كان الدور قد مُثّل : فأردت ان أحصل كل أسبوع على «كري كري » و « ليباتان » [1] و « ليفاكانس » [2] و « ليترّوا بوي سكوت » [3] لجان دولاهير ، و « لوتور دي موند آن ايروبلان » [4] لأرنولد غالوبين ، وكانت كلها تصدر في نشرات متسلسلة يوم الخميس . ومن خميس لآخر كنت أفكر في « ليغل ديزانج » وفي « مارسيل دونو » الملاكم ذي القبضتين الحديديتين ، وفي كريستيان الطيار ، اكثر كثيراً مما كنت أفكر بصديقيّ رابليه وفيني . وأخذت أمي تبحث عن مؤلفات تردّني الى طفولتي ؛ فكان هناك « الكتب الوردية الصغيرة » أولاً ، وهي مجموعات شهرية من قصص الجن ، ثم شيئاً فشيئاً « أولاد الكابتن غرانت » و « آخر آل موهيكان » و « نيقولا نيكلابي » و « دراهم لافاريد الخمسة » .

وكنت أفضّل على جول فيرن ، المفرط الاعتدال ، غرائب بول ديفوا . وكنت أعشق مؤلفات سلسلة هيتزل ، أياً كان المؤلف ، وهي مسارح صغيرة كان غلافها الأحمر ذو الحلقات الذهبية يمثل الستارة ، وكان غبار الشمس على الألواح يمثّل المسرح . وأنا مدينٌ لهذه العلب السحرية — لا لعبارات شاتوبريان المتأرجحة — بلقاءاتي الأولى مع « الجمال » . وكنت حين أفتحها أنسى كل شيء : أكانت تلك قراءة ؟ لا ، وإنما كانت نشوة مميتة : وكان سرعان ما يولد من انهياري سكان بدائيون مزوّدون بحراب ، وقربةُ اللبن المجفّف ، ورحّالة يرتدي قبعة بيضاء . كنت « رؤية » وكنت أُغرق بالنور وجنّتي « اوده » وسالفيْ فيليا فوغ . كانت الأعجوبة الصغيرة تتحرّر

---

(١) (٢) (٣) (٤) اسماء لمجلات وكتب : « المدهش » و « العطلة » و « الكشافون الثلاثة » و « دورة العالم في الطائرة » . — المترجم

من نفسها أخيراً ، فتتداعى لتصبح محض ذهول تعجّبي . وعلى بعد خمسين سنتمتراً من خشبة المسرح ، كانت تولد سعادة كاملة ، لا سيّد لها ولا عقد . وكان « العالم الجديد » يبدو باديء ذي بدء أدعى للإقلاق من « القديم » : فقد كان السلب والقتل شائعين فيه ؛ وكان الدم يجري أنهاراً . كان الهنود والهندوكيون والموهيكان والهوتنتو يختطفون الفتـــاة ، فيوثقون أباها الشيخ ويتواعدون على قتله بأبشع أنواع التعذيب .

كان ذلك هو الشر المحض . ولكنه لم يكن يظهر إلاّ لكي يخرّ راكعاً أمام « الخير » : سيعود كل شيء الى نصابه في الفصل الثاني . سيقيم بيضٌ شجعان مذبحةً للمتوحشين ، وسيقطعون حبال الأب الذي سيرتمي بين ذراعي ابنته . كان الأشرار وحدهم يموتون – وبعض الأخيار الثانويين جداً الذين كانت وفاتهم تندرج بين مصاريف التاريخ الفرَضية . ثم ان الموت نفسه كان معقّماً : كان من يُقتل يسقط مصلوب الذراعين ، وتحت ثديه الأيسر ثقب صغير مستدير ، او ان المذنبين كانوا ، اذا لم تكن البندقية قد اختُرعت بعد ، يموتون « بحدّ السيف » . وقد كنت أحبّ هذا التركيب الجميل : كنت أتصوّر هذا البرق المستقيم الأبيض : الشفرة ؛ كانت تغرز كما في الزبدة ، وكانت تخرج من ظهر المتمرد على القانون الذي كان يسقط من غير أن يفقد نقطة دم . بل إن الموت كان أحياناً يثير الضحك ؛ كموت ذلك الاسماعيلي الذي كان ، في « ابنة رولان بالمعمودية » كما أظنّ ، يقذف حصانه ضد حصان صليبي ، فيقتحم الفارس رأسه بضربة سيف تشقه من رأسه الى قدمه ؛ وكان ثمة صورة لغوستاف دوريه تمثّل هذه النهاية . كم كان ذلك مستحبّاً ! كان نصفا الجسم يبدآن ، وقد انفصلا ، يهبطان وكل منهما يرسم نصف دائرة حول الركاب ؛ وكان الحصان يصاب بدهشة ، فيشبّ .

وطوال سنوات ، لم أكن أرى الصورة الا وأضحك حتى تسيل دموعي . كنت أخيراً أقبض على ما يلزمني : « العدوّ » المكروه ، ولكن اللاموْذي ،

بعد كل حساب ، لأن مشاريعه لم تكن تبلغ غايتها ، بل انها كانت ، بالرغم من جهوده ومن مهارته الشيطانية ، تخدم قضية « الخير » ؛ والواقع اني كنت ألاحظ ان العودة الى النظام ، كان يرافقه دائماً تقدّم : كان الأبطال يكافأون ، وكانوا يتلقّون علامات تكريم ، ودلائل إعجاب ، وأموالاً ؛ فبفضل شجاعتهم ، كُسبت أرض ، واستُنقذ أثر فنّي من السكان البدائيين المتوحشين . فحُمل الى متاحفنا ؛ وكانت الفتاة تعشق الرحّالة الذي أنقذ حياتها ، وينتهي كل شيء بزواج . ومن هذه المجلات وتلك الكتب ، قبست نزعتي الصميمية للخارق والعجيب : التفاؤل .

لقد ظلّت هذه القراءات خفيّةً وقتاً طويلاً ؛ ولم تكن آنماري حتى بحاجة الى تحذيري : لقد كنت واعياً لشناعتها ، فلم أنبس بحرف عنها أمام جدّي . كنت أنحطّ ، وآخذ لنفسي مزيداً من الحرّيات ، وكنت أقضي عُطَلاً في الماخور ، ولكني لم اكن أنسى ان حقيقتي كانت قد ظلّت في المعبد . فما جدوى أن أثير دهشة الكاهن واستنكاره برواية فصول ضلالي؟ ولكن كارل انتهى الى ان يفاجئني ؛ فغضب من المرأتين ، فألقتا كل شيء على ظهري ، منتهزتين فرصةً استعاد فيها نَفَسَه : كنت قد رأيت المجلات وروايات المغامرات ، فطمعت بها ، وطلبتها ، أفكانتا تستطيعان أن ترفضا تلبية طلبي ؟ وقد أسقط في يد جدّي أمام هذه الكذبة البارعة : لقد كنت أنا ، أنا وحدي ، الذي كان يخون كولومبا مع هاتيك الفاسقات المفرطات الزينة . أنا ، الولد النبويّ ، « ايلياسين »[1] الآداب الجميلة ، كنت أُظهر ميلاً جنونياً الى الفاحشة والرذيلة . فعليه ان يختار : فاما اني لم اكن اتنبأ قط ، وإما انه يجب إحترام ميولي ، من غير سعي لفهمها . ولو كان أبي شارل شوايتزر موجوداً لأحرق كل شيء . وأما جدّي ، فقد اختار

(١) شخصية من شخصيات « آتالي » : مسرحية لراسين . وهو الاسم الذي ربي به «جواس» الطفل الملكي سراً في المعبد على يد الكاهن الاعظم « جواد » الـذي انقذه من غضب آتـالي . – المترجم

التسامح الآسف . ولم اكن اطلب اكثر من ذلك ، فتابعت بسلام حياتي المزدوجة . وهي لم تنقطع قط ؛ فحتى اليوم أفضّل قراءة « السلسلة السوداء » على قراءة ويتغانستين .

كنت الأوّل ، الذي لا يُضاهى ، في جزيرتي الهوائية ؛ وسقطت في الصف الأخير حين أخضعوني للقواعد المشتركة .

كان جدي قد عزم على تسجيلي في ليسيه مونتاني . وذات صباح ، قادني الى المدير ، وامتدح له مزاياي : لم تكن بي نقيصة الا أني متقدّم « اكثر مما ينبغي » عن سني . وساعدني المدير في كل شيء : فأُدخلتُ الصف الثامن واستطعت ان أعتقد انني سأعاشر الاولاد الذين هم في سني . ولكن لا : فبعد فرض الاملاء الاول ، استُدعي جدي على عجل الى الادارة ؛ وعاد غاضباً ، فسحب من محفظته ورقة خبيثة مغطّاة بالخربشات واللطخات ، وألقى بها على الطاولة : كانت هي المسابقة التي قدّمتها . لقد لفتوا انتباهه الى اخطاء املائية كثيرة[1] وحاولوا إفهامه ان مكاني هو في الصف العاشر الإعدادي . وأمام احد الاخطاء التي ارتكبتها ، ضحكت امي ضحكاً شديداً ، فأوقفها جدي بنظرة مريعة . وبدأ يتهمني بالنية السيئة ، ويوبخني للمرة الاولى في حياتي ، ثم أعلن انهم كانوا قد جهلوا حقيقتي ؛ وفي اليوم التالي ، سحبني من الليسيه وتخاصم مع المدير .

ولم اكن قد فهمت شيئاً من هذه القضية ، ولم يؤثّر عليّ إخفاقي : كل ما في الأمر اني كنت ولداً عجيباً لا يعرف الاملاء . ثم استعدت ، بلا ملل ، وحدتي : كنت أحبّ مرَضي . كنت قد أضعت ، حتى من غير ان اتنبّه لذلك ، فرصة ان أصبح حقيقياً : وكُلّف السيد « ليافان » وهو معلم باريسي ، ان يعطيني دروساً خاصة ؛ وكان يأتي كل يوم تقريباً .

(١) في النص الفرنسي عبارة تضم هذه الاخطاء لا يمكن ترجمتها بالطبع . — المترجم

وكان جدي قد اشترى لي مكتباً شخصياً صغيراً مصنوعاً من مقعد وطاولة من الخشب الأبيض. وكنت أجلس على المقعد، وكان السيد ليافان يتنزّه وهو يملي عليّ. وكان يشبه فانسان اوريول[1]، وكان جدي يزعم أنه كان «فرير ترواوبوان»، وكان يقول لنا بمثل النفور المذعور الذي يحسه رجل شريف تجاه عروض رجل لواطيّ: «حين أقول له مساء الخير، يرسم بابهامه المثلث الماسوني في راحة يدي» وكنت أحتقره لأنه كان ينسى ان يدللني: واحسب أنه كان يعتبرني — لا بغير حق — ولداً متأخراً. واختفى، لا أدري لماذا: فربما يكون قد صارح أحد الناس برأيه فيّ.

وقضينا ردحاً من الزمن في اركاشون، فدخلت المدرسة العامة: كانت مبادىء جدي الديموقراطية تقضي بذلك. ولكنه كان يريد ايضاً ان اكون بمنجى من الابتذال. وقد اوصى بي المعلم بهذه الكلمات: «يا زميلي العزيز، انني استودعك أعزّ ما عندي.» وكان السيد بارو ذا لحية صغيرة ونظارة: وقد اتى يشرب الخمر في مقصورتنا وصرح أنه مسرورٌ بالثقة التي كان يكنّها له عضو في هيئة التعليم الثانوي. وكان يُجلسني على طاولة خاصة، قريباً من منبره، وفي اثناء الاستراحات، يبقيني الى جانبه. وكانت هذه المعاملة الخاصة تبدو لي مشروعة؛ أما رأي «ابناء الشعب»، اندادي، فكنت أجهله: واحسب أنهم لم يكونوا يكترثون لذلك. وأما أنا، فقد كان طيشهم يتعبني، وكنت أجد من الترفّع المتميز أن أعاني الضجر بالقرب من السيد بارو، فيما كانوا يلعبون لعبة الركض.

وكان لديّ سببان يجعلانني أحترم معلمي: كان يريد بي الخير، وكان له نَفَسٌ قويّ. ولا بدّ ان الأشخاص الكبار كانوا قبيحين، متجعّدي الوجوه، مُزعجين؛ فحين كانوا يأخذونني في أذرعتهم، لم يكن يسيئني

---

(١) احد رؤساء الجمهورية الفرنسية السابقين. — المترجم

ان استشعر نفوراً ينبغي ان أتغلّب عليه : وكانت تلك هي الحجة في ان الفضيلة لم تكن سهلة . لقد كانت هناك مُتعٌ بسيطة ، مبتذلة : أن أعدو ، وأقفز ، وآكل الحلويات ، وأقبّل بشرة امي الناعمة المعطرة ؛ ولكني كنت أعلّق أهمية اكبر على المتع الجادة الممزوجة التي كنت أحسها في صحبة الرجال الناضجين : كان النفور الذي يوحون به لي جزءاً من نفوذهم ؛ كنت أمزج بين النفور وروح الرصانة . كنت سنوباً[1] . وحين كان السيد بارو ينحني فوقي ، كان نَفَسُه يكبّدني ألواناً لذيذة من الضيق ، فكنت أتنشق في حماسة رائحة فضائله العاقّة . واكتشفت ذات يوم عبارة حديثة العهد بالكتابة على جدار « المدرسة » ، فاقتربت وقرأت : « إن الأب بارو فرْج » فخفق قلبي حتى كاد يتحطم ، وسمّرني الذهول في مكاني ، وكنت خائفاً . إن « فرج » لا يمكن أن تكون الا كلمة من تلك « الكلمات القبيحة » التي كانت تنغل في الطبقة المنحطة من المفردات والتي لا يلتقيها الطفل المؤدب أبداً ؛ إنها كلمة قصيرة وقاسية ، وهي تملك البساطة الفظيعة للحيوانات البدائية . وكنت قد تجاوزت الحد في اني قرأتها : فامتنعت عن التلفّظ بها ، حتى ولو بصوت خافت . تلك الحشرة المعلقة على الجدار ، لم اكن أريد ان تقفز في فمي لتتحول في جوف حلقي الى زعيق أسود . فاذا تظاهرت بأنني لم ألاحظها ، فربما عادت فدخلت في ثقب بالجدار . أما اذا صرفت نظري ، فلكي أجد من جديد التسمية المهنية : « الأب بارو » التي كانت تزيدني خوفاً : فان كلمة « فرج » إنما كنت ، بعد كل حساب ، اتنبأ بمعناها تنبّؤاً ؛ ولكني كنت اعرف جيداً من كان يُدعى « الاب فلان » في أسرتي : عمّال الجنينات ، والسعاة ، ووالد الخادمة ، وبالاختصار العجزة المساكين . إن هناك من كان يرى السيد بارو ، المعلّم ، زميل جدي ، في مظهر عجوز مسكين . إن هذه الفكرة المريضة المجرمة

---

(١) رأينا ان نعرب هذه الكلمة التي أصبحت عالمية ، في جميع اللغات ، وهي انكليزية الأصل ، وتعني الاعجاب بكل ما هو شائع . — المترجم

كانت تطوف في رأس ٍ ما ، في مكان ما . ترى ، في ايّ رأس ؟ ربما في رأسي . أما كان يكفي ان اقرأ العبارة المجدفة لأكون شريكاً في تدنيس المقدسات ؟ كان يخيل إلي في وقت واحد ان مجنوناً وحشياً كان يهزأ بأدبي ، واحترامي ، وحماستي ، والسرور الذي كنت أحسه صباح كل يوم إذ أرفع قبعتي وأنا أقول : « صباح الخير ، يا سيدي المعلم » وانني كنت أنا نفسي هذا المجنون ، وان الكلمات الداعرة والافكار البذيئة كانت تتموّج في قلبي . فما الذي كان يمنعني مثلاً من ان أصيح ملء حنجرتي : « كانت رائحة هذا القذر منتنة كرائحة خنزير » وتمتمت : « إن الأب بارو منتن » فأخذ كل شيء يدور : وهربت وأنا أبكي .

وفي اليوم التالي استعدت احترامي للسيد بارو ، ولياقته المنشّاة وعقدته ، ولكنه حين كان ينحني فوق قرطاسي ، كنت أزيح رأسي وأنا أمسك نَفَسي .

وفي الخريف التالي ، عزمت امي على أن تدخلني في « معهد بوبون » وكان ينبغي ارتقاء سلم خشبي ، والدلوف الى قاعة في الطابق الاول ؛ وكان ثمة اولاد يتجمعون في نصف دائرة ، صامتين ؛ وكانت الأمهات جالسات في جوف القاعة ، مستقيمات وظهورهن الى الجدار ، يراقبن الاستاذ . وكان واجب الفتيات المسكينات اللواتي كنّ يعلمننا ، أن يوزّعن بالتساوي المدائح والعلامات الجيدة على هذا المجمع من « الأعاجيب النوادر » . فاذا بدت على احدى أوانس بوبون حركة تنبيء عن نفاد صبر أو عن رضى مبالغ فيه إزاء جواب بارع ، فانهن كنّ يخسرن طلاباً ، وكانت هي تخسر وظيفتها . وكنا زهاء ثلاثين مجمعياً لم يتح لهم الزمن قطّ لتبادل الكلام . وفي ساعة الخروج ، كانت كلّ امّ تختطف ولدها خطفاً وتقوده خبباً ، من غير ان تسلّم . وبعد ستة أشهر ، سحبتني أمي من المعهد ، بحجة أن الاولاد لم يكونوا يشتغلون فيه قط ، ثم انها قد انتهت بأن تعبت أن تحس انظار جاراتها تثقل عليها ، حين كان يأتي دوري بتلقي

التهاني . وقد قبلت الآنسة ماري لويز ان تعطيني دروساً خاصة في البيت ، بالخفية عن المديرات ، وكانت فتاةً شقراء تضع النظارة ، وتدرّس ثماني ساعات في النهار ، في مدرسة بوبون ، لقاء راتب يوحي بالمجاعة . وكانت احياناً تقطع درس الاملاء لتعالج قلبها من تنهدات طويلة : كانت تقول لي إنها كانت متعبة حتّى الموت ، وانها كانت تعيش في عزلة مريعة ، وأنها مستعدة لاعطاء كل شيء ليكون لها زوج ، ايّ زوج .

وانتهى بها الأمر ، هي ايضاً ، الى الاختفاء : فقد كانوا يدّعون أنها لم تكن تعلمني شيئاً ، ولكني كنت أعتقد خاصةً ان جدي كان يعتقد أنها حاملة شؤم ومصائب . صحيح أن هذا الرجل المستقيم لم يكن يرفض أن يساعد البؤساء ، ولكنه كان ينفر من دعوتهم الى بيته . وقد آن الأوان : كانت الآنسة ماري لويز تفسد أخلاقي . وكنت أحس الرواتب متناسبة مع البراعة ، وكان يقال لي انها كانت بارعة : فلماذا إذن كان يُدفع لها ذلك الراتب الضئيل ؟ إن من كان يمارس مهنة ، يستشعر الكرامة والعزة ، وهو سعيد بأن يعمل : فما دامت تملك الحظ بأن تعمل ثماني ساعات في النهار ، فلماذا كانت تتحدث عن حياتها كما لو أنها تتحدث عن مرض لا سبيل الى الشفاء منه ؟ وحين كانت تتحدث عن أحزانها ، كان جدي يأخذ في الضحك : لقد كانت أبشع من أن يرغب فيها رجل . ولم اكن أضحك : ان من الممكن للمرء إذن أن يولد مُداناً ؟ فاذا كان الأمر كذلك ، فلا شك في أنهم قد كذبوا عليّ : إن نظام العالم كان يخفي الواناً من الفوضى مريعة . وتبدد استيائي فور إبعادها . ووجد لي شارل شوايتزر اساتذة اكثر حشمة . اساتذة من شدة الحشمة حتى اني نسيتهم جميعاً . والى العاشرة من عمري ، بقيت وحيداً بين عجوز وامرأتين .

كانت حقيقتي وشخصيتي واسمي في ايدي الراشدين ؛ وكنت قد

تعلمت ان أرى نفسي بأعينهم ؛ كنت طفلاً ، هذا المسخ الذي يصنعونه بحسراتهم . فاذا تغيبوا خلفوا وراءهم نظرهم ، ممزوجاً بالنور ؛ وكنت أعدو وأقفز عبر هذا النظر الذي كان يحفظ لي طبيعتي كحفيد نموذجي ، والذي كان يستمر في منحي لُعبي والعالم . وفي قمقمي الجميل ، في روحي ، كانت افكاري تدور ، وكان كل انسان يستطيع أن يتابع جريها : فليس ثمة زاوية ظلام . على أن يقيناً شفافاً كان يُفسد كل شيء ، يقيناً بلا كلام ولا شكل ولا كثافة ، مذوّباً في هذه الشفافية البريئة : هي أني كنت كذاباً . كيف يتمكن المرء من ان يمثل ، دون ان يعرف انه يمثل ؟ كانت تفضح نفسها بنفسها ، تلك المظاهر المشرقة المشمسة التي كانت تكوّن شخصي : بسبب خطأ تكويني لم اكن أستطيع ان أفهمه تماماً ولا أن أكفّ عن الشعور به .

كنت أتجه الى الأشخاص الكبار فأطلب اليهم ان يضمنوا مزاياي : وكان ذلك اغراقاً مني في الكذب . لقد حُكم عليّ بأن أروق ، فكنت امنح نفسي ألواناً من الجمال سرعان ما كانت تذبل ؛ وكنت أجرّ الى كل مكان طيبتي الزائفة ، وأهميتي العاطلة عن العمل ، في ترصّد حظّ جديد : وكنت أحسب اني ألتقطه ، فكنت أُلقي نفسي في وضع أجد فيه ثانية الميوعة التي كنت اريد أن أفرّ منها . وكان جدي مأخوذاً بسنة من النوم ، متسربلاً بمعطفه ؛ وكنت ألمح تحت شاربه الكثّ عُري شفتيه المورّد ، وكان ذلك لا يُطاق : ومن حسن الحظ ان نظارته كانت تزلق ، فأسارع لالتقاطها . وكان يستيقظ فيرفعني بين ذراعيه ، وننسج آنذاك مشهدنا الغرامي الكبير : ولم يكن ذلك بعدُ ما كنت قد أردته . ما الذي كنت قد اردته ؟ كنت أنسى كل شيء ، وكنت أتخذ عشّي في أدغال ذقنه . وكنت أدخل المطبخ ، فأعلن اني اريد أن أخضّ مزيج الخضار ؛ وكانت تنبعث الصيحات والضحكات المجنونة : « لا ، يا حبيبي ، ليس على هذا النحو ! شُدّ جيداً على يدك الصغيرة : هكذا ! ساعديه يا ماري !

إنه يفعل ذلك بشكل جيد. » كنت طفلاً مزيفاً، وكنت أمس سلة خضار زائفة، وكنت أشعر بأن أعمالي تتحول الى حركات.

وكان «التمثيل» يسرق مني العالم والبشر؛ فلم اكن ارى إلا أدواراً ولواحق؛ وكيف كان لي، أنا الذي كنت أخدم بالتهريج مشاريع الراشدين، أن أحمل همومهم على محمل الجدّ؟ كنت أستجيب لمخططاتهم بحماسة فاضلة كانت تمسكني دون أن أقاسمهم غاياتهم. كنت غريباً عن حاجات النوع البشري وآماله وملذّاته، فكنت أُبذّر نفسي ببرودة لكي أسحره؛ كان النوع جمهوري، وكان حاجز من نار يفصلني عنه، ويلقيني ثانية في منفى متغطرس سرعان ما كان ينقلب الى ضيق وقلق.

والأسوأ من ذلك اني كنت أتهم الراشدين بالتمثيل. كانت الكلمات التي يوجهونها لي حلويات؛ ولكنهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بلهجة اخرى. ثم انه كان يتفق لهم ان يحلّوا عقوداً مقدسة: كنت ارسم تكشيرتي الأروع، تلك التي كنت واثقاً منها أشد الثقة، فكانوا يقولون لي بصوت حقيقي: «إذهب أيها الصغير، فالعب بعيداً، اننا نتحدث»؛ وكان لديّ، في احيان اخرى، شعورٌ بأنهم يستخدمونني. كانت امي تأخذني الى حديقة اللكسمبورغ، فكان الخال اميل، الذي تخاصم مع الأسرة كلها، ينبع فجأة، فينظر الى اخته نظرة شرسة ويقول لها بجفاء: «لست هنا من أجلك، بل من أجل أن ارى الصغير.» وكان يشرح لها آنذاك بأنني كنت البريء الوحيد في الاسرة، الوحيد الذي لم يجرحه قط بإرادته، ولم يُدنْهُ اعتماداً على تقارير مزيفة. وكنت أبتسم، منزعجاً من مقدرتي ومن الحب الذي كنت قد أشعلته في قلب هذا الرجل المظلم. ولكن يكون الأخ والأخت قد أخذا في مناقشة شؤونهما، وتعداد مآخذهما المتبادلة؛ كان اميل يعلن غضبه من شارل، فتدافع عنه آن ماري، وهي تتراجع قليلاً؛ ثم ينتهيان الى التحدث عن لويز، فكنت أظلّ بين كرسييهما الحديديين، منسياً. كنت مُعداً لأن أقبل جميع حقائق اليمين التي كان

رجلٌ يساري عجوز يعلمني إياها بسلوكه ، لو انني كنت فقط في سنّ تتيح لي فهمها : من مثل ان الحقيقة والخرافة شيء واحد ، وانه لا بدّ من تمثيل الهوس العاطفي للإحساس به ، وان الانسان كائن احتفالي . كانوا قد أقنعوني بأننا كنا مخلوقين لنمنح أنفسنا التمثيل ؛ وقد كنت أقبل التمثيل ، ولكنني كنت أطلب ان اكون البطل الرئيسي فيه . وكنت ألاحظ ، في لحظات عاصفة كانت تخلّفني متلاشياً ، أني كنت آخذ فيه « دوراً جميلاً زائفاً » له نصّه ، ويوحي بكثير من الحضور ، ولكن ليس فيه مشهدٌ « لي أنا » ؛ انني كنت ، بكلمة واحدة ، اشارك في حوار كان الرجال الكبار هم الممثلين الرئيسيين فيه . لقد كان شارل يتملّقني ليلاطف موته ؛ وكانت لويز تجد في حيويّتي المتدفقة تبريراً لألوان حردها ؛ وكانت آن ماري تجد فيها ايضاً تبريراً لذلها . ومع ذلك ، فلولاي لاستقبل أمي أهلُها ، ولكان ضعف صحتها قد عهد بها الى جدتي ، من غير دفاع ؛ ولولاي ، لكشرت لويز ، ولاندهش شارل مسحوراً أمام جبل « سرفين » وأمام الشُهُب وأمام أطفال الآخرين . كنت السبب العارض لنزاعاتهم ومصالحاتهم ؛ أما الأسباب العميقة فكانت في مكان آخر : في ماكون ، في غونسباش ، في تيفييه ، في قلب شائخ كان يتفسّخ ، في ماضٍ سابق جداً لولادتي .

كنت أعكس لهم وحدة الأسرة ومتناقضاتها القديمة ؛ وكانوا يستعملون طفولتي الآلهية ليصبحوا ما كانوه . وعشت في الاشياء : فحين كانت احتفالاتهم تقنعني بأن لا شيء يوجد بلا سبب ، وان لكل امرىء ، من الأكبر الى الأصغر ، مكانه المسجّل في الكون ، وان سبب وجودي ، أنا ، كان يغيب ، كنت أكتشف فجأة انني كنت أُعتبر زُبدة ، فكنت استشعر الخجل من وجودي الوقح في هذا العالم المنظّم .

لو كان أبي موجوداً لثقّلني ببعض ضروب العناد الباقية ، ولكن فيّ جاعلاً من الوان مزاجي مبادئه ، ومن جهله معرفتي ، ومن أحقاده كبريائي ، ومن أهوائه قانوني ؛ ولكان هذا المستأجر أعطاني احتراماً

للذاتي . ولكنت أقمت على الاحترام حقي في الحياة . كان مُنجبي هو الذي يقرّر مستقبلي : وأنا البوليتكنيكي بالولادة ، كنت سأطمئن الى الأبد . ولئن عرف جان باتيست سارتر مصيري واتجاهي يوماً ، فقد أخذ معه سرّ ذلك ؛ كانت أمي تذكر فقط انه كان قد قال : « ان أبني لن يدخل في البحرية » ولنقصٍ في معلومات أدقّ ، لم يكن احدٌ ، ابتداءً مني ، يعرف ما الذي جئت أفعله على الأرض . ولو أنه كان قد ترك لي ثروة ، لتغيرت طفولتي ، ولما كتبت ، لأنني كنت سأكون شخصاً آخر . إن الحقول والبيت تعكس للوريث الفتى صورة ثابتة عن نفسه ؛ فهو يلمس نفسه على حصبائه « هو » ، وعلى زجاج شرفته « هو » ويجعل من جمودهما المادة الخالدة لروحه . منذ أيام سمعت ابن صاحب مطعم ، وهو صبي في السابعة ، يصرخ بأمينة الصندوق : « حين لا يكون ابي هنا ، فأنا السيّد » هوذا رجل ! وحين كنت في عمره ، لم أكن سيد أحد ، ولم يكن يخصني شيء . كانت أمي تهمس لي ، في لحظات شرودها النادرة : « كن حذراً ! فنحن لسنا في منزلنا ! » ولم نكن يوماً في منزلنا : لا في شارع لوغوف ، ولا فيما بعد ، حين تزوجت امي ثانية . ولم اتألم من ذلك ، لأنهم كانوا يعيرونني كل شيء ؛ ولكنني كنت اظلّ مجرّداً . إن خيرات هذا العالم تعكس لمالكها ما هو ؛ وكانت تعلمّني مالم أكنه : إنني لم أكن ذا كثافة ولم اكن دائماً ؛ لم اكن المتمم المنتظر جداً للعمل الأبوي ، لم أكن ضرورياً لانتاج الصلب : وبكلمة واحدة ، لم تكن لي روح .

وكان ذلك يكون ممتازاً لو أني انسجمت مع جسمي . ولكننا ، أنا وهو ، كنا نشكلّ زوجاً عجيباً . إن الطفل لا يتساءل ، وهو في البؤس : فإن وضعه غير القابل للتبرير ، إذ هو ممتَحنٌ جسدياً بالحاجات والأمراض ، وانما هو يبرر وجوده ، الجوع وخطر الموت الدائم هما ركيزتا حقه في أن يحيا : انه يعيش حتى لا يموت . ولكني لم أكن غنياً بما فيه الكفاية لأحسبني

مختاراً ، ولا فقيراً بما فيه الكفاية لأحسّ رغباتي كمتطلبات ، بل كنت اقوم بواجباتي الغذائية ، وكان الرب يرسل لي أحياناً – نادراً – تلك النعمة التي تسمح بأن آكل من غير اشمئزاز : القابلية . كنت أتنفس ، وأهضم ، وأتغيب في لامبالاة ، كنت أعيش لأني كنت قد بدأت بأن أعيش . وكنت أجهل في جسمي ، هذا الرفيق المكتظّ ، العنف والمطالب الوحشية : كان يُعرّف نفسه بسلسلة من الانحرافات الرقيقة يطلبها الرجال الكبار كثيراً . وفي ذلك العهد ، كان لابدّ لكل اسرة متميزّة من أن يكون فيها صبيّ واحد على الأقل ، دقيق الصحة . وكنت الموضوع الصالح ، لأني كنت قد فكرت بأن أموت عند ولادتي . كانوا يراقبونني ، ويجسون نبضي ، ويأخذون حرارتي ، ويجبرونني على ان أخرج لساني : « الا ترين انه مصفرّ بعض الشيء ؟ – إن ذلك بسبب النور – اؤكد لك أنه قد هُزل ! – ولكننا وزناه أمس ، يا أبي . » وتحت هذه النظرات المتفحصة ، كنت أحسّني أصبح شيئاً ، زهرة في إناء . وفي النهاية ، يحشرونني في السرير . وأختنق بالحرارة ، وأُطبَخ تحت اللحاف ، فأخلط بين جسمي وبين إنحرافه : ولا ادري بعدُ أيهما كان غير مرغوب فيه .

كان السيد سيمونو ، مساعد جدي ، يتناول الغداء معنا كل يوم خميس . وكنت أغبط هذا الخمسيني ذا الوجنتين الشبيهتين بوجنات الفتيات ، والذي كان يلمّع شاربه ويصبغ طرّته : حين كانت آن ماري تسأله ، رغبةً منها في إطالة الحديث ، هل كان يحب باخ ، أو هل كان يجد متعة في البحر والجبل ، وهل كان يحفظ ذكرى طيبة عن مسقط رأسه ، كان يأخذ وقتاً للتفكير ويوجّه نظره الداخلي عـلى جبل ميوله الغرانيتي . وحين كان يحصل على الاستعلام المطلوب ، كان ينقله الى أمي بصوت متجرّد ، وهو يسلم برأسه . يا للرجل السعيد ! وكنت أفكر انه لابدّ

يستيقظ كل صباح متهللاً ، فيعدّ جباله وقممه ووديانه ثم يتمطّى بشهوانية وهو يقول : «إنني حقاً أنا : انني السيد سيمونو كاملاً » طبعاً ، كنت قادراً تماماً حين أسأل ، أن اكشف عن الأمور التي كنت أفضّلها ، بل ان اؤكّدها كذلك ؛ ولكنها كانت تفوتني ، وأنا في الوحدة : فبدلاً من أن ألاحظها ، كان ينبغي التقاطها ودفعها وبثّ الحياة فيها ؛ ولم أكن حتى واثقاً بعدُ من اني أفضل قدّة البقر ام مشويّ العجل . وما كنت تراني لا أعطيه ليُقام فيّ منظرٌ متبرّم ،وألوان من العناد مستقيمةٌ كالحروف ؟ حين كانت السيدة بيكار تستعمل ببراعة المفردات الدارجة فتقول عن جدي : «إن شارل كائن لذيذ» او «إن المرء لا يعرف الكائنات»، كنت أحسّني مداناً بلا رحمة . لقد كان حصى اللكسمبورغ ، والسيد سيمونو ، وشجرات الكستناء ، وكارلومامي ، كانوا كائنات . أما أنا فلا : فانني لم أكن املك جمودها ولا عمقها ولا عدم قابليتها للاختراق . كنت لاشيء : شفافيةٌ غير قابلة للانمحاء ، ولم يعرف حسدي حدوداً بعدُ يوم أعلموني انالسيد سيمونو ، ذلك التمثال ، تلك الصخرة المنحوتة من عمود واحد ، كان فوق هذا كله لا غنى للكون عنه .

كان ذلك في احتفال . كان الجمع في «معهد اللغات الحية» يصفّق تحت اللهب المتحرّك لمصباح من طراز «اوير» ، وكانت أمي تعزف بعض ألحان شوبان ، وكان الجميع يتحدثون الفرنسية بأمرٍ من جدّي : فرنسية بطيئة ، حلقية ، مع عذوبات ذابلة ، وفخامة شبيهة بفخامة الخطبة . وكنت أطير من يد الى يد من غير ان أمسّ الأرض ؛ وكنت أختنق على صدر روائية ألمانية حين أصدر جدّي ، من أعلى مجده ، حكماً مسّني في الشغاف : «ينقصنا اليوم رجل : انه سيمونو .» فأفلتّ من ذراعي الروائية ، ولجأت الى ركن ، واختفى المدعوون ؛ ووسط حلقة صاخبة ، رأيت عموداً : السيد سيمونو نفسه ، غائباً لحماً وعظماً . وقد غيّرت هذه الغيبة العجيبة ملامحه . وكان ينقص «المعهد» عدد كبير : فبعض التلامذة كانوا مرضى ،

وبعضهم اعتذروا ؛ ولكن لم تكن القضية في هذا الا قضية أحداث عرضية غير ذات شأن . كان السيد سيمونو هو وحده الناقص . وكان قد كفى النطق باسمه : فاذا بالفراغ ينغرز كالسكين في تلك القاعة الغاصّة . وسحرني أن يكون لرجل ما مكانٌ خاصّ . مكانه : عدمٌ يحفره الانتظار العام ، بطن غير مرئيّ يمكن لانسان أن يولد منه ثانية ، كما يبدو . ومع ذلك ، فلو انه قد خرج من الأرض ، وسط الهتاف والترحيب ، بل لو ارتمت النساء على يده ليقبّلنها ، لذهب انشداهي : فالحضور الجسدي هو دائماً فائض . ولكنه كان ، وهو بكرٌ مردود الى نقاوة جوهر سلبيّ ، يحتفظ بشفافية الجوهر غير القابلة للضغط . فما دام نصيبي أنا ان اكون في كل لحظة متموضعاً بين أشخاص معيّنين ، في مكان معيّن من الأرض ، وان أعرفني فيه فائضاً ، فقد أردت ان يُحتاج إليّ كالماء ، وكالخبز ، وكالهواء لجميع البشر ، في جميع الأمكنة .

وعادت هذه الأمنية على شفتيّ كلّ يوم . وكان شارل شوايتزر يضع ضرورةً في كل مكان ليغطّي ضيقاً لم يبدُ قط ما دام حيّاً ، ولكنني بدأت آنذاك أحسّ به . كان جميع زملائنا يحملون السماء . وكان في عداد أولئك « الأطالس »[1] وعلماء الصرف وعلماء النحو واللغويين ، السيد ليون–كان ، مدير « المجلة التربوية » . وكان يتحدث عنهم بحكم وأمثال ليطلعنا على مدى أهميتهم : « إن الأب ليون–كان يعرف شغله . وكان مكانه في المعهد . » أو « إن الأب شورر يشيخ ؛ فلنأمل ألاّ تأخذنا حماقةُ أعطائه تقاعده : إن المعهد لا يعرف ما الذي سيفقد . » كنت محاطاً بشيوخ غير قابلين للاستبدال ، وإن غيابهم المقبل سيغرق أوروبا بالحداد ، وربما بالبربرية ؛ فما الذي كنت لا أعطيه لكي أسمع صوتاً اسطورياً يحمل حكمةً في قلبي : « إن سارتر الصغير هذا يعرف شغله ؛ فاذا اختفى ، فان فرنسا لا تعرف ما الذي ستفقد ! »

(١) أطلس إله إغريقي انحاز الى « العمالقة » ضد الآلهة ، فحكم عليه « زوس » بان يحمل على كتفيه قبة السماء . — المترجم

إن الطفولة البورجوازية تعيش في خلود اللحظة ، أي في اللاعمل : لقد كنت أريد أن أكون « أطلساً » على الفور ، الى الأبد ومنذ الأبد ، ولم اكن أفكر حتى بأن المرء يستطيع أن يعمل ليصبحه ؛ كنت بحاجة الى محكمة عليا ، الى مرسوم يعيدني الى حقوقي . ولكن تُرى اين كان القضاة ؟ كان قضاتي الطبيعيون قد فقدوا اعتبارهم بتمثيلهم ؛ كنت أرفضهم ، ولكنني لم أكن ارى سواهم .

كنت هامة مخدّرة ، بلا ايمان ، ولا قانون ، ولا سبب ، ولا غاية ، وكنت أهرب الى المهزلة العائلية ، دائراً راكضاً ، طائراً من كذبة الى كذبة . كنت أفرّ من جسمي غير القابل للتبرير ومن أسراره الرخوة ؛ كان يكفي أن يصطدم الخذروف بعقبة فيتوقف ، حتى يسقط الممثل الصغير الشارد مرة أخرى في الذهول الحيواني . وقد قالت صديقاتٌ طيّبات لأمي اني كنت حزيناً ، واني فوجئت وأنا أحلم . وشدّتني امي اليها ضاحكة : « أنت المرح جداً ، الذي تغني دائماً : ممّ تشكو ؟ إن عندك كل ما تريد . » وكانت على حق : إن الطفل المدلّل لا يكون حزيناً ؛ إنه يسأم كما يسأم الملك . كما يسأم الكلب .

انني كلب ، أتثاءب ، والدموع تسيل ، وأنا أحسّها تسيل . انني شجرة ، تتشبّث الريح في أغصاني وتحرّكها بغموض . انني ذبابة ، أتسلّق على الزجاج ثم أتدحرج ، وأعود الى التسلّق . وأحياناً أحسّ يد الزمن الذي يمرّ ، وأحياناً أخرى ، اكثر من الأولى ، أحسّه لا يمرّ . إن دقائق مرتعشة تسترخي فتبتلعني ولا تنتهي من احتضارها ؛ انها منتنة ولكنها ما تزال حيّة ؛ وتُكنَس لتحلّ محلّها دقائق أخرى ، اكثر نضارة ، ولكنها مثلها لا مجدية ؛ وألوان الاشمئزاز هذه هي السعادة ؛ إن أمي تردّد لي انني أسعد الصبية الصغار ؛ فكيف تراني لا أصدّقها ما دام ذلك صحيحاً ؟ انني لا أفكر قط في عزلتي ؛ فليس هناك أولاً كلمة لتسميتها ؛ ثم انني لا أراها : فإن الناس لا يكفّون عن الاحاطة بي . تلك هي حبكة حياتي ، قماش رغباتي ، لحم أفكاري ،

اني أحيا الموت . ففي السنة الخامسة ، كان الموت يترصّدني ؛ كان يذرع الشرفة في المساء ، ويُلصق فمه بالزجاج ، كنت أراه ولكني لم اكن اجرؤ على ان أقول شيئاً . لقد التقينا مرة ، عند محطة فولتير ؛ كان سيدة عجوزاً ، طويلة ومجنونة ، ترتدي السواد ، وقد تمتمت عند مروري : « هذا الصبي ، سأضعه في جيبي » واتخذ ، في مرة أخرى ، شكل حفرة : وكان ذلك في أركاشون ؛ كان كارلومامي وأمي يقومون بزيارة للسيدة دوبون ولابنها غابرييل ، الملحّن . وكنت ألعب في حديقة المقصورة ، وكنت خائفاً لأنه كان قد قيل لي إن غابرييل مريض ، وكان على وشك أن يموت . وقد لعبت لعبة الحصان ، من غير حماسة ، ووثبت حول البيت . وفجأة ، لمحت ثقباً من الظلمات : القبو الذي كانوا قد فتحوه ؛ ولا أدري أية بداهة من الوحدة والفظاعة قد أعمتني ، فاستدرت على عقبيّ ، ولذت بالفرار ، وأنا أغنّي بأعلى صوتي .

في تلك الحقبة ، كنت على موعد مع الموت كل ليلة في سريري . وكان ذلك طقساً : كان ينبغي ان أضطجع على جنبي الأيسر ، وأنفي نحو الزقاق ؛ وكنت أنتظر وأنا مرتعش ، فكان يتّجلى لي هيكلاً انقيادياً جداً ، وبيده منجل كبير ؛ وآنذاك ، كان لي الإذن بأن أنقلب على الجنب الأيمن ، فكان يذهب ، وكنت أستطيع أن أنام بأمان . وفي النهار ، كنت أتعرّفه في ضروب مختلفة من التنكّرات : فاذا اتفق لأمي ان غنّت بالفرنسية « ملك الاولن » ، سددتُ أذنيّ ، ولأني قرأت « السكّير وزوجته » ظللت ستة أشهر من غير أن أفتح أساطير لافونتين . وكان لا يبالي بذلك ، اللصّ : فكان يختبيء في حكاية لماريميه تُدعى « فينوس ايل » وينتظرني حتى أقرأ ليقفز على حنجرتي. لم تكن عمليات الدفن تقلقني ، ولا القبور ؛ وفي تلك الأثناء مرضت جدّتي لأبي وماتت ؛ وقد وصلنا أنا وامي الى تيفيه ، على أثر برقية ، حين كانت لا تزال على قيد الحياة . وفضّلوا أن يبعدوني عن الأمكنة التي كانت تلك الحياة الطويلة الشقيّة تحتضر فيها ؛ وتكفّل بي بعض الأصدقاء ، فأنزلوني

عندهم ، وأعطوني للتسلية ألعاباً مناسبة ، ذات فائدة علمية ، يحيط بها الضجر . ولعبت وقرأت وبذلت جهدي لكي أبدو في خشوع مثالي ، ولكنني لم أشعر بشيء . وكذلك لم أشعر بشيء حين تبعنا النعش حتى المقبرة . كان « الموت » يلتمع بغيابه : فالوفاة ليست هي الموت ؛ ولم يكن يسوءني تحوّل تلك العجوز الى بلاطة مأتمية ؛ لقد كان في ذلك تحويلٌ للخبز والخمر الى دم وجسد ، وصولٌ الى الكينونة ، وكان كل شيء يجري ، إجمالاً ، كما لو اني تحوّلت ، بشكل فخم ، الى السيد سيمونو . من أجل هذا السبب ، أحببت دائماً ولا أزال أحبّ المقابر الايطالية : إن الحجر فيها معذّب ، إنه إنسان شاذّ ، تنحفر فيه مدالية توطّر صورةً تذكّر بالمرحوم في حالته الأولى ؛

حين كنت في السابعة من عمري ، كنت ألتقي « الموت » الحقيقي ، « الصديق » في كل مكان ، الا هناك . ماذا كان ؟ كان شخصاً وتهديداً . كان الشخص مجنوناً ؛ أما التهديد ، فهوذا : كان يمكن لأفواه الظلام أن تنفتح في كل مكان ، في وضح النهار ، تحت أروع شمس مشرقة ، فتبتلعني . كان هناك قفا فظيع للأشياء ، وكان المرء يراه حين يفقد العقل ، وإنما كان الموت دفع الجنون الى الذروة ، والاستغراق فيه . وقد عشت في الارهاب ، وكان مرضاً عصبياً حقيقياً . واذا تحرّيت السبب ، تبيّن ما يلي : كانت لاجدواي العميقة ، أنا الطفل المدلّل ، ألهبة الالهية ، كانت من شدة الظهور والوضوح بحيث ان كتاب الطقوس العائلي بدا لي دائماً ذا ضرورة مختلقة . كنت أحسّني زائداً على اللزوم ، وإذن ، فكان ينبغي الاختفاء . كنت تفتّحاً تافهاً في حالة تلاشٍ دائم . وبعبارة أخرى ، كان محكوماً عليّ ، وكان بالامكان تنفيذ الحكم بين لحظة وأخرى . ومع ذلك ، فقد كنت أرفضه بكل قواي ، لا لأن وجودي كان عزيزاً عليّ ، بل على العكس لأنني لم اكن حريصاً عليه : فبمقدار ما تزداد الحياة لامعقولية ، يخفّ احتمال الموت .

كان بوسع الربّ أن يوفّر عليّ الهمّ فيجعلني أثراً رائعاً موقّعاً ؛ وكان

بوسعي ، وأنا مطمئن الى اني أسدّ مكاني في الحفلة الكونية ، ان أنتظر بصبر أن يكشف لي مخطّطه وضرورتي . كنت أستشعر الدين ، وكنت أرجوه ، وكان ذلك هو العلاج . ولو رفضوه لي ، لاخترعته بنفسي . ولكنهم لم يرفضوه لي : فقد تعلّمت ، بعد أن ربّيت في الايمان الكاثوليكي ، ان الله القدير قد خلقني لمجده : وكان ذلك يفوق ما كنت أجروْ على الحلم به ؛ ولكني فيما بعـد ، لم أتعرّف في الربّ الانيق الذي علّموني اياه ، الربّ الذي كانت روحي تنتظره : كنت بحاجة الى « خالق » ، فكانوا يعطونني « معلّماً كبيراً » ؛ ولم يكن الاثنان الا واحداً ، ولكني كنت أجهل ذلك . كنت أخدم بلا حرارة المعبود الفريسي ، وكانت النظرية الرسمية تنفّرني من التماس إيماني الخاصّ . أي حظ ! كانت الثقة والأسى يجعلان من روحي أرضاً مختارة لبذر السماء فيها : ولولا هذا الخطأ ، لكنت راهباً . ولكن اسرتي كانت قد تأثرت بحركة الارتداد عن المسيحية ، تلك الحركة البطيئة التي ولدت في طبقة البورجوازية الفولتيرية العليا وأخذت قرناً من جميع طبقات المجتمع : ولولا هذا الضعف العام في الايمان ، لاضطرت لويز غويمان ، آنسة الريف الكاثوليكية ، الى القيام بمزيد من الحركات لكي تتزوج بلوثري . بالطبع ، كان الجميع مؤمنين عندنا : بدافع الحيطة . وكان الجحود الصريح ، بعد سبعة أعوام او ثمانية من وزارة كومب [1] ، يحتفظ بالعنف وبالحرية العاطفية ؛ فقد كان الملحد شخصاً أصيلاً ، شخصاً غاضباً لم يكن يدعى الى العشاء خشية أن يقوم « بتظاهرة عند الخروج » ، متعصّباً مرتبكاً بالمحرمات يرفض حق الركوع في الكنائس ، وحق تزويج بناته فيها ، وحق البكاء فيها بتلذّذ ، ويفرض نفسه ليدلّل على حقيقة نظريته بنقاوة أخلاقه ، ويضرى ضد نفسه وضد سعادته الى حدّ ان ينتزع من نفسه

---

(١) اميل كومب (١٨٣٥–١٩٢١) رئيس الوزارة الفرنسية من عام ١٩٠٢ الى ١٩٠٥ ، وكان بطل سياسة مناهضة الكهنوت ، مقترحاً قانون فصل الكنيسة عن الدولة – المترجم

وسيلة أن يموت معزّى ، مأخوذاً بالربّ، يرى خصوصاً « غيبته » ولا يستطيع أن يفتح فمه من غير أن ينطق باسمه ؛ إنه بالاختصار شخص كانت له معتقدات دينية . أما المؤمن ، فلم يكن يملك أي معتقد ديني : فمنذ ألفي عام ، أتيح لألوان اليقين المسيحي أن تقدّم برهانها ، كانت تخص الجميع ، وكان يُطلب اليها أن تلتمع في نظر كاهن ، في نور كنيسة ، وأن تضيء الأرواح ، ولكن لم تكن لأحد حاجة أن يأخذها لحسابه ؛ لقد كانت المُلك المشترك . كان المجتمع الطيّب يؤمن بالله حتى لا يتحدث عنه . وكم كان الدين يبدو متسامحاً ! كم كان سهلاً : كان بوسع المسيحي أن يتخلى عن القدّاس وأن يزوج أولاده دينياً ، وأن يبتسم لأقوال القديس سولبيس الدينية وأن يذرف الدمع وهو يستمع الى « النشيد الزفافي » للوهنغران ؛ إنه لم يكن ملزماً بأن يحيا حياة مثالية ولا أن يموت في اليأس ، حتى ولا أن يطلب تحويله الى رماد . إن الايمان ، في وسطنا وفي أسرتنا ، لم يكن الا اسم أبّهة للحرية ، الفرنسية اللذيذة ؛ وكنت قد عُمّدت ، ككثيرين غيري، لأحافظ على استقلالي : فلو رُفض العماد لي ، لكان ثمة خوف على اغتصاب روحي ؛ فلما كنت كاثوليكياً مسجلاً ، فقد كنت حراً ، وكنت طبيعياً ؛ كان يقال : « فيما بعد ، سيفعل ما يشاء . » وكانوا يحكمون آنذاك بأنّ اكتساب الايمان أصعب جداً من فقده .

كان شارل شوايتزر اكثر تمثيلاً من ألاّ يحتاج الى مشاهد كبير ، ولكنه لم يكن يفكر قط بالله ، الا في فترات الشرب القصوى ؛ كان متأكداً انه سيجده في ساعة الموت ، فكان يزيحه من حياته . وفي مجالسه ، الخاصة ، بدافع من الاخلاص لمقاطعاتنا المفقودة ، كان ينتهز الفرص للاستهزاء بالكاثوليكية وسط مرح كبير كان يستولي على أخوته المعادين للبابوية : وكانت أحاديثه على المائدة تشبه أحاديث لوثر . ولم يكن كلامه ينضب عن « لورد »[1] :

(١) مقاطعة في البيرينيه العليا ، مركز حج شهير مخصص للعذراء . — المترجم

لقد رأت برناديت [1] « امرأة تغيّر قميصها » ؛ وقد غطّسوا مشلولاً في الحوض ، وحين أخرجوه منه « كان يرى بكلتا عينيه » . وكان يروي حياة القديس « لابر » الذي كان مغطّى بالقمل ، وحياة القديسة ماري الأكوك التي كانت تلتقط غيط المرضى بلسانها . ولقد خدمتني هذه الأكاذيب : فقد كنت أميل الى الارتفاع فوق خيرات هذا العالم بمقدار ما كنت محروماً منها ، وقد كنت سأجد بلا مشقة رسالتي في فقري المريح ؛ إن الصوفية تلائم اللاجئين السياسيين ، والأولاد الفائضين : وكان حسبي لأسقط فيها ان أتصوّر القضية من طرفها الآخر ؛ كنت أوشك ان أكون طريدةً للقدسية . وقد نفّرني جدّي منها الى الأبد : لقد رأيتها بعينيه ، وقد أثار ذلك الجنون الوحشي اشمئزازي بتفاهة نشواته ، وأرهبني باحتقاره السادي للجسد ؛ ولم يكن لغرائب القديسين معنى يختلف عن غرائب الانكليزي الذي غطس في البحر وهو في السموكنغ .

وكانت جدتي ، وهي تسمع تلك الحكايات ، تتظاهر بالحنق ، وكانت تسمّي زوجها « كافراً » ، وكانت تضرب أصابعه بيدها ، ولكن سماحة بسمتها ما لبثت ان أزالت أوهامي ؛ إنها لم تكن تؤمن بشيء ؛ وارتيابيتها وحدها كانت تمنعها من أن تكون ملحدة . وكانت أمي تمتنع عن التدخل ؛ كان لها « ربّها الخاص » ، ولم تكن تطلب منه الا ان يعزّيها بالخفاء . وكان النقاش يستمر في رأسي المتعب : إن نفساً أخرى لي ، اخي الأسود ، كان يجادل في جميع موضوعات الايمان جدالاً فاتراً ؛ كنت كاثوليكياً وبروتستانتياً ، وكنت أقرن روح النقد بروح الخضوع . والحق ان ذلك كلّه كان يزعجني جداً : لقد أفضيت الى الكفر لا بسبب نزاع العقائد ، بل بسبب لامبالاة أجدادي . ومع ذلك ، فقد كنت اومن : كنت أقوم كل يوم بصلاتي ،

---

(١) قديسة ولدت في لورد (١٨٥٤ – ١٨٧٩) وكانت رؤاها هي السبب في جعل لورد محجة . – المترجم

وأنا راكع عند سريري مضموم اليدين ، ولكني كنت أفكر بالرب الرحيم أقلّ فأقلّ . وكانت أمي تصحبني يوم الخميس الى معهد الأب ديبيلدوس : فقد كنت أتابع فيه درس تعليم ديني وسط أولاد مجهولين . وكان جدّي قد تصرّف تصرّفات جعلتني أعتبر رجال الدين حيوانات تثير الفضول ؛ وبالرغم من أنهم كانوا وكلاء « اعترافي » ، فقد كانوا غرباء عنّي اكثر من الرعاة ، بسبب زيّهم الديني وعزوبيتهم . وكان شارل شوايتزر يحترم الأب ديبلدوس — « رجل شريف ! » — الذي كان يعرفه شخصياً ، ولكن نزعته المناهضة للكهنوت كانت صريحة جداً ، حتى اني كنت أجتاز الباب الخارجي ولديّ شعور أني أدخل ارضاً عدوّة .

ولم أكن شخصياً أحتقر الكهنة : فقد كانوا ، حين يحدثونني ، يظهرون بوجه رقيق ، مروّض بالروحانية ، وبهيئة حفاوة معجبة ، وبنظر لامتناه كنت أقدره خاصة لدى السيدة بيكار وصديقات موسيقيات قديمات لأمي ؛ وإنما كان جدي فيّ هو الذي يحتقرهم . وكان هو الذي جاءته الفكرة ان يعهد فيّ الى صديقه الأب ، ولكنه كان يتطلع في قلق الى وجه الكاثوليكي الصغير الذي كانوا يعيدونه إليه مساء الخميس ، وكان يبحث في عيني عن تقدم النزعة البابوية ولا يحرم نفسه من أن يمازحني . ولم يدم هذا الوضع الزائف اكثر من ستة أشهر . وقد حدث ان أعطيت المعلم فرضاً فرنسياً عن « آلام السيد المسيح » ؛ وكان قد أثار إعجاب الأسرة ، وكانت امي قد نسخته بيدها . ولم يفز الفرض إلا بالمدالية الفضية . وقد اغرقتني تلك الخيبة في اللاتقوى ؛ ومنعني مرض وعطلة صيفية من العودة الى معهد ديبيلدوس : وفي مطلع العام الدراسي الجديد ، طلبت ألاّ أعود اليه ابداً . وظللت خلال بضعة أعوام اخرى أعقد صلات عامة مع الرب القدير ؛ أما في السرّ ، فكففت عن معاشرته . ومرة واحدة ، داخلني الشعور بأنه موجود . كنت قد لعبت بأعواد ثقاب وأحرقت سجادة صغيرة ؛

وكنت مستغرقاً في اخفاء جريمتي حين رآني الرب فجأة ، وأحسست بنظره في داخل رأسي وعلى يديّ ؛ وجعلت أطوف في الحمام ، مرئياً بصورة فظيعة ، مرميّ حياً . وأنقذني الحنق : لقد غضبت على فعل أحمق الى هذا الحدّ ، فأخذت أجدّف ، واتمّم كجدي : « يلعن دين يلعن دين يلعن دين . » ولم ينظر إليّ بعد ذلك ابداً .

لقد رويت قصة نزعة أجهضت : لقد كنت بحاجة الى الله ، فأعطوني إياه ، وتلقيته من غير أن أفهم اني كنت أبحث عنه . ولأنه لم يأخذ جذراً له في قلبي ، فقد نبت فيّ بغموض فترة من الزمن ثم مات . وحين يحدثونني عنه اليوم ، أقول بلهجة تسلية غير آسفة شبيهة بتلك التي يستعملها كهل جميل يلتقي جميلة قديمة : « منذ خمسين عاماً ، لولا سوء التفاهم ذاك ، ولولا تلك الغلطة ، ولولا الحادث الذي فصل بيننا ، لكان بالامكان أن يكون بيننا شيء ما » .

لم يكن هناك شيء . ومع ذلك ، فقد كانت اموري تزداد سوءاً . كان جدي يتضايق من شعري الطويل ، وكان يقول لأمي : « انه صبيّ ، وستجعلين منه بنتاً ؛ وأنا لا أريد ان يصبح حفيدي فرخة مبللة ! » وكانت آن ماري تصمد جيداً ؛ وأعتقد أنها كانت تؤثر لو أني كنت بنتاً حقاً ؛ ولو حدث ذلك لكانت ملأت طفولتها الحزينة المنبعثة بنعم كثيرة ! ولما لم تستجب السماء لها ، فقد تدبرت أمرها : سيكون لي جنس الملائكة ، غير محدّد ، ولكنه انثوي في الأطراف . كانت رقيقة ، فعلمتني الرقّة : وأتمت وحدتي الباقي ، وأبعدتني عن اللعب العنيفة . وذات يوم — وكنت في السابعة — لم يستطع جدّي ان يظلّ صامداً : فأخذني من يدي ، معلناً انه يصطحبني في نزهة . ولكن ما كدنا نتجاوز منعطف الطريق ، حتى دفعني الى الحلاّق وهو يقول لي : « سنقدّم مفاجأة لأمك » وكنت أعشق المفاجئات . وكانت تحدث دائماً عندنا . خفايا مسلية او فاضلة ، هدايا غير منتظرة ، انباء مسرحية متبوعة بعناق وقبلات : تلك كانت

لهجة حياتنا . وحين أجروا لي عملية الزائدة الدودية ، لم تقل أمي كلمة واحدة عنها لكارل لتوفّر عليه ألواناً من القلق ما كان ليستشعرها ، على أي حال . وكان خالي اوغست قد قدّم المال : كنا قد عدنا خفيةً من اركاشون ، فاختبأنا في عيادة بكوربوفوا . وفي اليوم التالي للعملية ، جاء اوغست يرى جدي ، فقال له : « سأطلعك على خبر طيّب » وخُدع كارل بفخامة ذلك الصوت الخفيّ : « هل تتزوج ثانية ؟ » فأجاب خالي مبتسماً : — لا ، ولكن كل شيء جرى على ما يرام . — ماذا ؟ كل شيء ؟ الخ ، الخ .. وبالاختصار ، كانت الحركات المسرحية هي الأمر المألوف عندي ، وكنت انظر في عطف الى خصلاتي تتدحرج على المنشفة البيضاء التي كانت تشدّ عنقي وتسقط على الأرض الخشبية ، وقد أصبحت حائلة بشكل لا يفسر ؛ وعدت مجيداً ، مقصوص الشعر .

وارتفعت صيحات ، ولكن لم يحدث عناق ، وأغلقت امي الباب على نفسها لتبكي ، لقد استبدلت بنتها الصغيرة بصبي صغير . وكان هناك ما هو أسوأ : فما دامت خصلاتي الجميلة متطايرة حول أذني ، فانها كانت تسمح لها بأن ترفض بدهيّة بشاعتي . ومع ذلك ، فان عيني اليمنى كانت قد بدأت تدخل الغسق . ووجب عليها ان تعترف بالحقيقة . وكان يبدو على جدي نفسه الانشداه : لقد استودعوه اعجوبته الصغيرة ، فردّ لهم ضفدعاً : وكان ذلك بمثابة هدم جذري لألوان اندهاشاته المقبلة . وكانت مامي تنظر اليه ، في مرح . وقالت بكل بساطة : « إن كارل ليس معتزاً ؛ فهو يقوّس ظهره . »

واوتيت آن ماري طيبة ان تخفي عني سبب حزنها . ولم أعرفه الا حين بلغت الثانية عشرة ، وبصورة وحشية . ولكني كنت أحسني غير مستقرّ في إهابي . كان اصدقاء اسرتي يرمونني بنظرات قلقة غالباً ما كنت أفاجئها . وكان جمهوري يصبح اكثر صعوبة يوماً بعد يوم ؛ ووجب عليّ أن ابذل نفسي ، فضاعفت محاولاتي التأثيرية وخرجت من ذلك

بتمثيل مزيّف . وعرفت أهوال ممثلة تشيخ ؛ وعلمت انه يمكن لآخرين أن يروقوا العين . واحتفظت بذكريين ، حدثتا فيما بعد ، ولكنهما بارزتـــان .

كنت في التاسعة من عمري ، وكان المطر يهطل ؛ وكنا في فندق نواريتبال عشرة اولاد ، عشر قطط في كيس واحد ؛ ووافق جدي ، لكي يشغلنا ، على كتابة مسرحية وطنية ذات عشرة أشخاص ، وعلى إخراجها . وأسند لبرنار ، كبير العصبة ، دور الأب ستروتهوف ، وهو رجل محسن ذو مزاج حزين . وكنت أنا في دور الزاسي فتيّ : كان أبي قد صوّت لفرنسا ، وكنت أجتاز الحدود ، سرّاً ، لألتحق به ؛ وكانت قد وُضعت لي أجوبة تدل على الشجاعة : فكنت أمدّ ذراعي اليمنى ، وأحني رأسي ، وأتمتم وأنا أخفي خدي الحبْري في ثنية كتفي : « وداعاً ، وداعاً يا ألزاسنا الحبيبة » وكان يُقال في التمرينات انني كنت لذيذاً جداً ؛ ولم يكن ذلك يدهشني . وأقيم التمثيل في الحديقة ؛ وكان دغلان من شجر البَجَل وجدار الفندق تحدُّ ساحة المسرح ؛ وكانوا قد أجلسوا ذوي الطلاب على كراسي من أسل . وكان الاولاد يمرحون كالمجانين ، ما عداي . وكنت مقتنعاً بأن مصير المسرحية بين يديّ ، فكنت أجتهد في أن أروق ، إخلاصاً مني للقضية المشتركة ؛ وكنت احسب جميع العيون مثبتة عليّ . وبالغت في التمثيل ؛ فكان ان تفوّق عليّ برنار الذي كان أقلّ تكلفاً . أتراني قد أدركت ذلك ؟ لقد ذهب بعد المسرحية يتقبّل التهاني ، فانسللت خلفه ورحت أشدّ على لحيته التي بقيت في يدي . وكانت هذه نكتة قصدت منها ان تُضحك ؛ وكنت أحسّني لذيذاً جداً ، وكنت اقفز بقدم على الأخرى وأنا أشهر غنيمتي . ولم يضحك الناس . وأخذتني أمي من يدي ، وأبعدتني بحيوية ، وسألتني في أسف : « ماذا دهاك ؟ كانت اللحية جميلة جداً . وقد أطلق الجميع صرخة « آه » بلبلدة . » وكانت جدتي تلحق بنا ، ومعها آخر الانباء : كانت ام برنار قد تحدثت عن الحسد . « أنت

ترى ما الذي يكسبه المرء حين يقتحم الصف الاول ! » وهربت ، وركضت الى غرفتنا ، فانزرعت أمام مرآة الخزانة ورحت اكشر وقتاً طويلاً .

وكانت السيدة بيكار تعتقد أن بامكان الطفل ان يقرأ كل شيء : « إن الكتاب لا يُحدث اي ضرر حين يكون مكتوباً بصورة جيدة . » وكنت قد استأذنت مرةً بحضورها ان اقرأ « مدام بوفاري » فقالت امي بصوتها ذي الموسيقية المفرطة : « ولكن اذا قرأ صغيري الحبيب هذا النوع من الكتب في هذه السن ، فما الذي سيفعله حين يصبح كبيراً ؟ »

— سأعيشها .

وكان هذا الجواب قد عرف أصرح نجاح وأطوله . وكانت السيدة بيكار تشير اليه بطرف خفي كلما زارتنا ، فكانت أمي تصيح ، معاتبةً مسرورة : « بلانش ! هل تريدين ان تصمّي ؟ انك ستفسدينه لي ! » وكنت احبّ واحتقر هذه المرأة العجوز ، السمينة الممتقعة ، التي هي أفضل جمهوري ؛ فحين كانوا يبلغونني عن مجيئها ، كنت أحس بعبقريتي : وقد حلمت بأنها تفقد تنورتها وبأني كنت ارى مؤخرتها ، وكانت هذه طريقة لتحية روحها اللطيفة . وقد أهدت إلي في نوفمبر ١٩١٥ كتيباً من الجلد الأحمر ، مذهباً في بعض جوانبه . وكنا جالسين في غرفة عمل جدي الذي كان متغيباً ؛ وكانت النساء يتحدثن في حيوية ، بلهجة أخفت من لهجة ١٩١٤ لأن الزمن كان زمن حرب ؛ وكان ضباب قذر أصفر يلتصق بالنوافذ ، وكانت تنبعث رائحة تبغ بارد . وفتحت الكتيب ، فخـــاب أملي اول الأمر : كنت أتوقع رواية او قصصاً ؛ وقرأت على وريقات متعددة الألوان الاسئلة نفسها مئة مرة . وقالت : « املأه وأجعل اصدقاءك الصغار يملأونه : إنك بذلك ستهيىء لنفسك ذكريـــات جميلة . » وفهمت ان ما أمنحه هو حظّ لأكون رائعاً : فحرصت عـــلى أن أجيب فوراً . وجلست الى مكتب جدي ، فوضعت الكتيّب على نشافة قرطاسه ، وأخذت ريشته ذات المسكة المصنوعة من الجُبنين ، فغمستها في زجاجة

الحبر الأحمر وأخذت اكتب ، بينما كان الأشخاص الكبار يتبادلون نظرات مرحة . لقد تعلّقت — في قفزة واحدة — بما هو أعلى من روحي لكي اصطاد « الأجوبة التي هي فوق عمري » . ومن سوء الحظ ان الاسئلة لم تكن تُساعد ؛ فقد كنت أسأل عما كنت أحب وما كنت أكره : ما هو اللون المفضّل عندي ، العطر الأثير ؟ وكنت أخترع ، بلا حماسة ، اشياء مفضّلة ، حين مثلت أمامي متاسبة الالتماع : « ما هي اعزّ امنية لديك ؟ » فأجبت من غير أن أتردّد : « ان أكون جندياً وأثأر للموتى . » ثم منعني فرط الأهتياج من أن أتم ، فقفزت الى الأرض وحملت كتبي الى الأشخاص الكبار . واستعدْت الأنظار بعضُها بعضاً . وسوّت السيدة بيكار نظارتها ، ومالت أمي على كتفي ؛ وكانت كل منهما تمطّ شفتيها في خبث ، وارتفع الرأسان معاً : كانت أمي قد تورّدت ، وأعادت لي السيدة بيكار الكتيب : « يا صديقي الصغير ، ليس هذا هاماً إلاّ إذا كان المرء صادقاً . » فحسبت اني أموت . إن غلطتي بارزة للعيان : كانوا يطالبون بالطفل الأعجوبة ، فإذا بي اقدّم لهم الطفل السامي الجليل .

ومن سوء حظّي ان هاتين السيدتين لم يكن لهما أحد في الجبهة : فكان السموّ العسكري يظلّ بلا تأثير على روحيهما المعتدلتين . واختفيت ، وذهبت أكشّر أمام مرآة . وحين اذكر اليوم تلك التكشيرات ، أدرك أنها كانت تؤمّن حمايتي : كنت أدافع عن نفسي ، ضد إفرازات الخجل السريعة ، بحصار عضلي . ثم إن هذه التكشيرات كانت تحرّرني من سوء طالعي الذي كنت أدفعه الى ذروته : كنت أرتمي في المذلّة لأتفادى الإذلال ، وكنت أنتزع مني وسائل الإعجاب لأنسى أني كنت أملكها وأني اسأت استعمالها ؛ وكانت المرآة تسعفني كثيراً : كنت أكل إليها أن تعلمني اني كنت مسخاً ؛ فإذا نجحتْ في ذلك ، كانت ألوان ندمي المرير تتحول الى شفقة . ولكني خصوصاً كنت أجعل نفسي قبيحاً لأجعل

عبوديتي التي يكشفها لي الفشل مستحيلة ، ولكي أنكر الناس وينكروني . كانت « مسرحية الشر » تُمثّل ضد « مسرحية الخير » ؛ وكان اليكاسين يأخذ دور كازيمودو[1] ؛ كنت أحلّل وجهي بالالتواءات والتثنيات الممزوجة ؛ وكنت استحيل الى زجـــاج لأمحو بسماتي القديمة .

وكان العلاج أسوأ من المرض : كنت قد حاولت اللجوء الى حقيقتي المتوحّدة احتماءً من المجد وفقدان الشرف ؛ ولكن لم تكن لي حقيقة : انني لم أكن أجد فيّ إلاّ تفاهةً مندهشة . فتحتَ عيني ، كانت ميدوزا تصدم زجاج الحوض ، وتقطّب حاجبهـــا ، وتتحلل في الكلمات . وهبط الليل ، وذابت غيوم من الحبر في المرآة ، مكفّنة تجسّدي الأخير . لقد حُرمت من كل تبرئة ، فتداعيت على نفسي . وكنت استشعر في الظلام حيرةً لا يُعبر عنها ، حفيفاً ، خفقاً ، حيواناً حيّاً — هو الحيوان الأشدّ إرهـــاباً والوحيد الذي لا أخافه . وهربت ، ورحت أستردّ من الأنوار دوري ، دور الطفل الفتّان الذي فقد نضارته . وكان ذلك عبثاً . كانت المرآة قد علمتني ما كنت أعرفه دائماً : كنت طبيعياً بشكل فظيع ، ولم أشف من ذلك قط .

●

كان الجميع مشغوفين بي ، وكان كل انسان يردّني ، فكنت منبوذاً ، ولم يكن لي من ملجأ ، وأنا في السابعة من عمري ، الا في نفسي التي لم تكن قد وُجدت بعد ، والتي كانت قصراً من زجـــاج كان العصر الوليد يمرّي فيه سأمه . لقد وُلدت لأسدّ الحاجة الكبرى الى ذاتي ؛ ولم أكن قد عرفت حتّى ذلك الحين إلا أباطيل كلب من كلاب الصالونات ؛ كنت محشوراً في الكبرياء ، فأصبحت « المتكبر » . ولمـــا لم يكن أحدٌ يطالب

---

(1) احد أبطال « نوتردام دوباري » رواية فكتور هوغو ، وكـــان المؤلف يخفي تحت مظهره المشوه الوحشي انبل العواطف الرقيقة . — المترجم

بي في جدّ ، فقد رفعت الادّعاء بأنّ « الكون » لا غنى له عني . فأيّ شيء أروع من هذا ؟ وأيّ شيء اشد منه حماقة ؟ الحق اني لم يكن لي الخيـــار . كنت مسافراً سرّياً ، فنمت على مقعد القطار ، وكان المراقب يهزّني : « تذكرتك ! » وكان عنيّ ان أعترف بأني لا أملك تذكرة ، ولا مالاً لأدفع فوراً اجرة السفر . وكنت قد بدأت أرافع على اني مذنب : كنت قد نسيت هويّتي في البيت ، بل لم اكن اذكر بعد كيف خدعت رقابة قاطع التذاكر ، ولكني كنت أقرّ اني دخلت القاطرة بصورة مغشوشة . ولم اكن اناقش سلطة المراقب ، وإنمـــا كنت احتجّ علناً على احترامي لوظيفته ، وكنت أخضع سلفاً لقراره .

ولم أكن أستطيع أن انقذ نفسي ، عند هذه النقطة القصوى من المذلة ، إلا بقلب الوضع : فكنت أعلن ان أسباباً هـــامة وسرّية كانت تدعوني الى ديجون ، وهي تهمّ فرنسا ، وربمـــا الانسانية . فاذا أخذت الأمور تحت هذا الضوء الجديد ، فلن يوجد في القاطرة كلها شخص واحـــد يملك من الحق في احتلال مكان فيها ما كنت أملكه . صحيح ان القضية كانت قضية قانون أعلى يخالف القاعدة ، ولكن المراقب حين يقرر قطع سفري ، سيثير تعقيدات خطيرة ستسقط نتائجها عـــلى رأسه ؛ وكنت أتوسّل اليه أن يفكر : أكان عـــاقلاً تعريض الجنس كله للفوضى والاضطراب بحجة صيانة النظام في قطار ؟ تلك هي الكبرياء : دفـــاع المساكين البؤساء . إن من لهم وحدهم الحق بأن يكونوا متواضعين هم المسافرون المزوّدون بتذاكر . ولم اكن أعرف قط إن كنت رابحاً القضية : كان المراقب يلزم الصمت ؛ وكنت أعيد شروحي ؛ وما دمت أتكلم ، كنت واثقاً من انه لن يجبرني على ان أهبط . كنا وجهاً لوجه ، أحدنا صامت ، والآخر لا ينضب في القطـــار الذي كان يتجه بنا الى ديجون . كنت أنا القطار والمراقب والآثم . وكنت ايضاً شخصاً رابعاً ؛ ولم تكن لهذا الأخير ، وهو المنظّم ، إلا رغبة واحدة : هي أن يخدع نفسه ، ولو لدقيقة ،

وأن ينسى أنه كان قد رتب كلّ شيء. وقد خدمتني المسرحية العائلية: كانوا يصفونني بأنني هبة من السماء، وكان ذلك على سبيل المزاح، ولم اكن أجهل هذا؛ لقد أُغرقتُ بألوان العطف والحنان، فكانت دموعي سهلة وقلبي قاسياً: وأردت أن أصبح هدية مفيدة في البحث عن المرصودة لهم؛ ووهبت شخصي لفرنسا، وللعالم.

أما الناس، فلم أكن اكترث لهم، ولكن ما دام ينبغي المرور بهم، فان دموعهم ستجعلني أعرف أن الكون كان يتلقاني في عرفان؛ وسيفكرون بأني كنت أملك كثيراً من الثقة المفرطة بنفسي؛ لا: بل كنت يتيم الأب. لم اكن إبناً لأحد، فكنت قضيتي بالذات، ممتلئاً كبرياء، وممتلئاً بؤساً؛ كنت قد وُضعت في العالم بالدفقة التي كانت تدفعني نحو الخير. والتسلسل يبدو واضحاً: لقد تأنّثت بالحنان الأمومي، وانمسخت بغيبة «موسى» الشرس الذي كان قد أنجبني، وامتلأت غبطة بنفسي من جراء شغف جدي، فأصبحت محض موضوع، مرصوداً أبلغ الرصد للماسوشية، لو انني كنت قد استطعت فقط ان اقتنع بالمسرحية العائلية. ولكن لا. إنها لم تكن تحركني الا سطحياً؛ أما القاع فكان يبقى بارداً، غير مبرّر؛ لقد أرعبني النظام، فحقدت على النشوات السعيدة، والاستسلام، وعلى هذا الجسم المدلل اكثر مما ينبغي، الممسوح اكثر مما ينبغي، فارتميت في الغطرسة والسادية، وبعبارة اخرى، في الكرم. وهذا الأخير، شأنه في ذلك شأن البخل أو العنصرية، ليس إلا عطراً مفرزاً لشفاء جراحاتنا الداخلية، وهو يفضي، في آخر المطاف، الى تسميمنا: ولكي أفلت من اعتزال المخلوق، كنت أُعدّ لنفسي وحدة بورجوازية غير قابلة للعلاج: هي وحدة الخالق. ولن تُخلط ضربة العصا هذه مع التمرّد الحقيقي: إن المرء انما يتمرّد على الجلاد، ولم يكن أمامي الا محسنون. وقد ظللت وقتاً طويلاً شريكهم في الذنب. ثم إنهم هم الذين كانوا قد عمّدوني هبةً من «العناية الالهية»: فلم أفعل

إلا أن استخدم ، لغايـــات اخرى ، الآلات التي كانت تحت تصرّفي .

ولقد مرّ كل شيء في رأسي ؛ كنت طفلاً خيالياً ، فحميت نفسي بالخيـــال . وحين أستعيد رؤية حياتي ، بين السادسة والتاسعة ، تستوقفني ظاهرةُ استمراريةِ تجـــاربي الروحية . إنها كثيراً ما تغيرّت محتوىً ، ولكن البرنـــامج لم يتغير قط ؛ كنت قد دخلت دخولاً مزيفاً ، وكنت أنسحب خلف ستار وابدأ من جديد ولادتي عند نقطة معينة ، في الدقيقة نفسها التي كان العالم يطلبني فيها بصمت .

ولم تكن حكاياتي الاولى الا ترديد « العصفور الأزرق » و « القطة ذات الحذاء » من حكايات موريس بوشور . وكانت تتحدث فيما بينها وحدهـــا ، خلف جبيني ، بين قنطرتي حاجبيّ . وجرؤت فيما بعد على أن أعدِّل فيها ، وأن أعطي نفسي دوراً فيها . وتغيرّت طبيعتها ؛ ولم اكن احبّ الجنّيات ، فقد كان حولي منها عددٌ كبير ؛ وحلتّ ضروب البراعة محل تصوّرات الجنّ . وأصبحت بطلاً ؛ وجرّدت ألوان سحري ؛ ولم تكن القضية بعدُ هي أن أروق وأعجب ، بل أن أفرض نفسي . وتركت اسرتي ؛ وأبعد كارلومامي وآن ماري عن هواياتي . كنت مشبعاً بالحركات والمواقف ، فقمت بأفعال حقيقية في الحلم . واخترعت عالماً صعباً ومميتاً — هو عالم « كري كري » و « الايباتان » لبول ايفوا ؛ وأحللت الخطر محلّ الحاجة والعمل اللذين كنت أجهلهما . ولم أكن يوماً بعيداً ، كما كنت آنذاك ، عن إنكار النظام القائم ؛ لقد كنت مطمئناً الى أني أسكن أفضل العوالم ، فمنحت نفسي رسالةَ أن أطهرّه من شياطينه ومسوخه ؛ كنت شرطياً وحاكماً اعتباطياً ، فكنت اقدّم كل مساء عصبة من اللصوص على مذبح التضحية . ولم أقم قط بحرب وقائية ولم أرسل بعثةً للمعاقبة ؛ وإنمـــا كنت اقتل بلا لذة ولا غضب لأنتزع فتياتٍ من الموت . كان لا غنى لي عن تلك المخلوقـــات الرقيقات ؛ وكنّ يطلبنني . ولا حاجة الى القول انهنّ لم يكنّ يستطعن الاعتماد على مساعدتي ، لأنهنّ لم يكن

يعرفني . ولكني كنت ألقيهن ّ في مخاطر كبيرة لم يكن بوسع أحد ، سواي ، ان يخرجهن ّ منها . وحين كان جنود الانكشارية يشهرون خناجرهم المعقوفة ، كان هدير ٌ شديد ٌ يجتاز الصحراء ، وكانت الصخور تقول للرمـــال : « إن هنا شخصاً ناقصاً : سارتر . » وكنت في تلك اللحظة أزيح الستار وأجعل الرؤوس تتطاير بضربات السيف ، وكنت اولد في بحر من دم ... يا للسعادة الفولاذية ! لقد كنت في مكاني .

كنت اولد لأموت ؛ وكانت الطفلة تُستنقذ فترتمي في ذراعي أبيها « المارغراف »[1] ؛ وابتعدت ، كان ينبغي ان أصبح من جديد فائضاً ، أو أن التمس قَتَلَة ً جداً . وكنت أجدهم . كنت بطل النظام القائم ، وكنت قد وضعت سبب وجودي في فوضى مستمرة ؛ كنت أخنق « الشر ّ » بين ذراعي ّ ، وكنت أموت بموته ، وأُبعث بانبعاثه ؛ كنت فوضوياً يمينياً . ولم يرشح شيء من الوان العنف الطيبة هذه ؛ وظللت ذليلا ً متحمساً ؛ إن المرء لا يأخذ بتلك السهولة عادة الفضيلة ؛ ولكني كنت انتظر كل مساء ، بفارغ الصبر ، نهاية التهريج اليومي ، فأسرع الى سريري ، وأقوم بصلاتي ، ثم اندس ّ في فراشي ؛ وكنت اتأخر في استعادة جسارتي المجنونة . كنت أشيخ في الظلام ، وكنت أصبح راشداً متوحداً ، بلا أب ولا أم ، بلا نار ولا مكان ، بلا اسم تقريباً . كنت أسير على سطح من لهب ، وأنا أحمل بين ذراعي امرأة مغمى عليها ؛ وكان الجمهور يصرخ تحتي : كان واضحاً ان البناء يوشك ان ينهار . وفي تلك اللحظة ، كنت انطق بالكلمات القَدرية : « التتمة في العدد القادم . » فكانت تسألني أمي : « ماذا تقول ؟ » فأجيب بحذر : « إنني أروى لنفسي حكايـــات حتى أنام . » والواقع أني كنت أغفو ، وسط الأخطار ، في لا أمان ٍ لذيذ . وفي مساء اليوم التالي ، كنت أجد ثانية ، وأنا أمين على الموعد ، السطح

(١) لقب رؤساء مقاطعات الحدود في الامبراطورية الالمانية القديمة . – المترجم

واللهب وموتاً مؤكداً. وكنت ألمح فجأة مزراباً لم اكن قد رأيته مساء الأمس. لقد أنقذنا، يا الهي! ولكن كيف اتدلّى منه، دون أن أترك حملي الثمين؟ من حسن الحظ أن المرأة الشابة كانت تستردّ حواسها، وكنت أحملها على ظهري، وكانت تعقد ذراعيها حول عنقي. لا، لقد أعدتها، بعد التفكير، الى لاوعيها: فانها اذا شاركت، ولو قليلاً، في إنقاذي، نقصت قدرتي وبراعتي. وكان من حظي أن هناك ذلك الحبل عند قدميّ: وكنت أوثق الضحية باحكام إلى منقذها، أما الباقي فليس إلا لعباً. وكان عدد من السادة — المختار ورئيس الشرطة وقائد الاطفائية — يتلقونني في أذرعتهم، ويمنحونني القبلات، ومدالية الانقاذ؛ وكنت أفقد اطمئناني، ولم أكن اعرف بعد ما أصنع بنفسي: كانت معانقات هؤلاء الأشخاص الكبار تشبه اكثر مما ينبغي معانقات جدي. وكنت أمحو كل شيء، وأبدأ من جديد: انه الليل، وكانت هناك فتاة تستنجد، وألقي بنفسي في المعمعة... البقية في العدد القادم. كنت اعرّض حياتي من أجل اللحظة العليا التي ستغير حيواناً اتفاقياً الى مارّ تبعثه العناية الآلهية، ولكني كنت أحسّ انني لن أعيش بعد احراز النصر، وكنت أسعد من ان اؤجله الى اليوم التالي.

ربما دهش المرء أن يلتقي مثل هذه الأحلام في المخاطرات لدى شخص صغير هزيل موعود للكهنوت؛ إن ضروب القلق عند الأطفال ميتافيزيقية؛ ولا حاجة قط لإراقة الدماء من أجل تهدئتها. أتراني لم أتمنَّ قطّ ان أكون طبيباً بطولياً وان أنقذ مواطنيّ من الطاعون الدبيلي او الكوليرا؟ أعترف ان لا. ومع ذلك، فلم أكن متوحشاً ولا حربياً، وليس الذنب ذنبي اذا جعلني هذا القرن البازغ ملحمياً. لقد كانت فرنسا، بعد هزيمتها، تنغل بالأبطال الخياليين الذين كانت امجادهم تضمّد جرح كرامتها. وقبل ثمانية أعوام من مولدي، كانت «سيرانو دي برجراك[1]» قد «انفجرت

(١) مسرحية هزلية لادمون روستان. — المترجم

كلحن بوق » وبعد ذلك بقليل ، لم يكن على « النسر الصغير »[1] المتكبر المشخن الا ّ ان يظهر ليمحو فاشودا[2] . وفي عام ١٩١٢ كنت أجهل كل شيء عن هؤلاء الأشخاص السامين ، ولكني كنت في اتصال مستمر مع المتحدّرين منهم : كنت أعشق سيرانو البيغر ، ارسين لوبين ، من غير أن أعرف انه كان مديناً بقوته الهرقلية ، وشجاعته الماكرة وذكائه الفرنسي لصاحبتنا المنزوعة البنطال عام ١٨٧٠ . كانت روح الهجوم الوطنية وروح الثأر تجعلان من جميع الأطفال منتقمين . وقد أصبحت منتقماً كالجميع : كنت مسحوراً بالمزاح والمجون ، هاتين النقيصتين اللامحتملتين من نقائص المهزومين ، فكنت أسخر من السوقة واللصوص قبل أن أحطم أجنابهم .

ولكن الحروب كانت تُضجرني ، وكنت أحبّ الألمان الأرقّاء الذين كانوا يتّرددون على جدي ، ولم أكن أهتم إلاّ بضروب الظلم الخاصة ؛ وقد تحوّلت في قلبي الذي لا حقد فيه القوى الجماعية : فكنت أستعملها لتغذية بطولتي الفردية . ماذا يهم : إنني مدفوع ؛ فلئن ارتكبت ، في قرن حديدي ، خطأً فاحشاً في أن أعتبر الحياة ملحمة ، فذلك لأني حفيد الهزيمة . كنت مادياً مقتنعاً ، فكانت مثاليتي الملحمية ستعوّض — حتى تاريخ موتي — إهانة لم أُصَبْ بها ، وعاراً لم أعان منه ، خسارة منطقتين عادتا لنا منذ وقت طويل .

لم ينس بورجوازيو القرن الماضي قط أمسيتهم الاولى في المسرح ، وقد تكلّف كتّابهم تسجيل ظروف تلك الأمسية . فحين ارتفع الستار ،

(١) دراما بستة فصول لادمون روستان ايضاً ؛ وبطلها الدوق دورايشتادت ، مراهق طموح الى المجد ، ولكنه عاجز عن التخلص من سلطان مترنيك . — المترجم

(٢) مدينة سودانية (تدعى اليوم كودوك) احتلتها حملة مارستان الفرنسية عام ١٨٩٨ ، ثم سلمت الى كتشنر الذي انتصر على المهديين . — المترجم

ظن الأطفال أنفسهم في الملعب . كان الذهب والارجوان والأسهم النارية والزينات والمظاهر الاصطناعية تضفي هالة التقديس حتى على الجريمة ؛ وقد رأوا على المسرح انبعاث النبالة التي كان أجدادهم قد اغتالوها . وفي اثناء الاستراحات كان تنضيد الأروقة يعطيهم صورة المجتمع ؛ وقد أروهم في الشرفات الأكتاف العارية والاحياء النبلاء . فعادوا الى منازلهم مشدوهين ، متميّعين ، مهيأين لمصائر احتفالية ، ولكي يصبحوا أمثال جول فافر وجول فيري وجول غريفي[1] . واتحدى معاصريّ ان يذكروا تاريخ لقائهم الاول مع السينما . لقد كنا ندخل كالعميان قرناً لا تقاليد له لا بدّ ان يبرز على القرون الاخرى بطرقه السيئة ، وكان الفن الجديد ، الفنّ العامي ، يتنبأ ببربريتنا . لقد وُلد هذا الفن في مغارة اللصوص ، وصنّفته الادارة في عدد التسليات العامة ، وكانت له طرق شعبية تثير استنكار الأشخاص الرصينين؛ لقد كان تسلية النساء والأطفال ؛ وكنّا نعشقه ، أنا وأمي ، ولكننا لم نكن نفكر فيه قط ، ولم نكن نتحدث عنه : وهل يتحدث أحد عن الخبز إن كان متوفراً ؟ وحين شعرنا بوجوده ، كان قد أصبح منذ وقت طويل حاجتنا الرئيسية .

كانت آن ماري في الأيام الماطرة تسألني عما كنت أتمنى ان أفعله ، وكنا نتردد طويلاً بين « السيرك » و « الشاتليه » و « دار الكهرباء » و « متحف غريفان » ؛ وفي اللحظة الأخيرة ، كنا نقرر في إهمال محسوب ، ان ندخل صالة للعرض . وكان جدي يظهر على باب مكتبه ، حين كنا نفتح باب المنزل ، فكان يسأل : « الى أين انتما ذاهبان ، أيها الولدان ؟ » فكانت أمي تقول : « الى السينما » فيقطّب حاجبيه ، وتضيف أمي بسرعة : « الى سينما البانتيون ، وهي قريبة جداً ، فليس هناك الا أن نقطع شارع سوفلو . » فكان يتركنا نذهب وهو يرفع كتفيه ؛ إنه سيقول

(١) ساسة فرنسيون مشهورون من القرن الماضي . — المترجم

للسيد سيمونو يوم الخميس القادم : « اسمع يا سيمونو : هل تفهم هذا ، أنت الرجل الرصين ؟ إن ابنتي تصحب حفيدي الى السينما ! » وسيقول سيمونو بصوت مصالح : « إنني لم أقصد السينما قط ، ولكن زوجتي تقصدها حياناً . »

كان الفيلم قد بدأ . وكنا نتبع الموظّفة ونحن نتعثّر ، وكنت أحسّني خفياً ؛ وفوق رأسينا ، كانت حزمة من النور الأبيض تعبر القاعة ، وكنا نرى الغبار والدخان يرقصان فيها ؛ وكانت آلة بيانو تصهل ، واجاصات بنفسجية تلتمع على الجدار ، وكنت أكاد أختنق برائحة مطهّر مبرنق . وكانت رائحة تلك الليلة المسكونة وثمارها تمتزج فيّ : كنت آكل مصابيح إنقاذ ، وامتلىء بطعمها المزّ ، وكنت أحكّ ظهري بالرُكب ، وأقتعد كرسياً يصرّ ، وكانت أمي تدسّ غطاءً مطوياً تحت فخذيّ لترفعني ؛ وكنت أخيراً أنظر الشاشة ، فأكتشف طبشوراً متلوّن النور ، ومناظر نائسة مخطّطة بوابل من المطر ؛ كان المطر يهطل دائماً ، حتّى في إبان الشمس ، وحتّى في المنازل ؛ وكان نجم ملتهب يعبر أحياناً صالة بارونة ، من غير أن يبدو عليه العجب . وكنت أحب ذلك المطر ، وذلك القلق الذي لا يهدأ والذي كان يتعاطى مع الجدار . وكان عازف البيانو يوقّع افتتاحية « مغائر فنغال »[1] ، وكان الجميع يفهمون أن المجرم على وشك أن يظهر : فقد كانت البارونة مجنونة من الخوف . ولكن وجهها الجميل المفحم كان يخلي المكان للافتة بنفسجية : نهاية القسم الأول . ثم كان النور ، الذي أذهب تأثير السمّ . أين كنت ؟ أفي مدرسة ؟ في ادارة حكومية ؟ لم يكن ثمة أدنى زينة : وانما صفّ من الكراسي الصغيرة التي كانت تكشف ، من تحت ، عن رفّاصاتها ، وعن جدران ملطخة بالمغرة ، وأرض خشبية مزروعة بالأعقاب والبصقات . وكان ضجيج

(١) قطعة موسيقية شهيرة لمندلسون استوحاها من المغارة البحرية القائمة في جزيرة ستافا باسكتلندا . — المترجم

كثيف يملأ القاعة فكانت اللغة يُعاد خلقُها ، وكانت الموظفة تبيع سكاكر انكليزية بصوت مرتفع ، وكانت أمي تشتري لي منها ، فكنت أضعها في فمي ، وأمتصّ مصابيح الانقاذ. وكان الناس يفركون عيونهم ، وكان كل منهم يكشف جيرانه . جنود ، خادمات الحيّ ، وكان شيخ عجوز يمضغ التبغ ، بينما كانت عاملات بلا قبعات يضحكن بقوة : إن هؤلاء البشر جميعاً لم يكونوا من عالمنا ؛ ومن حسن الحظّ أن ما كان يطمئن ، وجود قبعات كبيرة مهتزّة ، موضوعة على ذلك السطح من الرؤوس .

كان التسلسل الاجتماعي قد أعطى المرحوم أبي وجدّي ، المعتادين على الشرفات الثانية ، ميلاً الى المظاهر الاحتفالية : حين يكون كثير من الناس مجتمعين ، فيجب فصلهم بالطقوس وإلاّ تذابحوا . أما السينما ، فكانت تثبت العكس : كان ذلك الجمهور المختلط الى ذلك الحدّ يبدو مجتمعاً بدافع من كارثة ، لا بدافع من احتفال ؛ كان الطابع الميت يُعرّي أخيراً صلـة البشر الحقيقية : الملازمة . وقد نفرت من الاحتفالات ، وعشقت الجموع ؛ وقد رأيت أنواعاً كثيرة منها ، ولكني لم ألتق ذلك العري ، وحضور كل انسان للجميع ، وذلك الحلم المستيقظ ، وذلك الشعور الغامض بخطر ان يكون المرء إنساناً الا في عام ١٩٤٠ ، في معسكر ١٢ د .

وقد تشجّعت أمي حتى انها صحبتني الى قاعات « البولفار » : الى الكيناراما ، والى « الفولي دراماتيك » ، والى « الغورفيل » والى « غومون بالاس » التي كانت تسمى آنذاك « ميدان سباق الخيل » . وشاهدت « زيغومار وفانتوماس » و « انتصارات ماسيست » و « عجائب نيويورك » : وكانت الزينات الذهبية تُفسد عليّ المتعة . ولم يكن « الفودفيل » ، المسرح المطهّر ، يريد أن يتنازل عن عظمته القديمة : فحتى اللحظة الأخيرة كان ستار آخر ذو حلقات ذهبية يقنّع الشاشة ؛ وكانت تطرق ثلاث ضربات ايذاناً ببدء التمثيل ، وكانت الجوقة تعزف افتتاحية ، وكان الستار يُرفع ، وكانت المصابيح تطفأ . وكنت منزعجاً بهذا المظهر الاحتفالي المخالف للمألوف ،

وتلك الأبّهات المغبّرة التي لم تكن لها من نتيجة غير إبعاد الممثلين ؛ كان آباؤنا في الشرفة مبهورين بالثريا ، وبرسوم السقف ، فلم يكونوا يستطيعون ولم يكونوا يريدون أن يصدّقوا ان المسرح كان يخصّهم : ذلك انهم كانوا يُستقبلون فيه . اما أنا ، فكنت أريد أن أشاهد الفيلم عن كثب . كنت قد تعلّمت في قاعات الحيّ اللاامريحة أنّ هذا الفنّ الجديد كان لي ، كما للجميع . لقد كنّا في سنّ ذهنية واحدة : كنت في السابعة وكنت أعرف القراءة ، وكان هو في الثانية عشرة ولم يكن يعرف الكلام [1] . كان يقال إنه كان مبتدئاً ، وأنّ أمامه تقدّماً يحرزه ؛ وكنت أفكر اننا سنكبر معاً . ولم أنس طفولتنا المشتركة : فحين تُقدّم لي حلوى انكليزية ، وحين تلمّع امرأة أظافرها بالقرب مني ، وحين أستنشق في مراحيض فندق ريفي رائحة مطهّر ما ، وحين أنظر النوّاسة البنفسجية في قطار ليلي ، أجد في عينيّ ، وفي منخريّ ، وعلى لساني ، أنوار تلك القاعات المختفية وعطورها ؛ ومنذ أربعة أعوام ، كنت أسمع وأنا في عرض «مغارة فنغال» صوت بيانو تتقاذفه الريح .

كنت ممتنعاً على ما هو مقدّس ، فكنت أعبد السحر : وكانت السينما مظهراً مشبوهاً كنت أحبّه حبّاً ماجناً لما كان ينقصُه بعد . ذلك الجريان ، كان كل شيء ، ولم يكن شيئاً ، كان كلّ شيء محوّلاً الى لا شيء : لقد كنت أشاهد هذيان جدار ؛ كانت الجوامد قد حُرّرت من كثافة كانت تزحمني حتى في جسدي ، وكانت مثاليّتي الفتيّة تغتبط لهذا التقلّص اللامتناهي ؛ وفيما بعد ذكّرني دوران المثلّثات وانتقالها تسرّب الأشكال الى الشاشة ، وقد أحببت السينما حتى في الهندسة المسطحة . وكنت أجعل من الأسود والأبيض لونين عظيمين كانا يختصران فيهما جميع الألوان الأخرى ولا يكشفانها إلاّ لذوي العلم ؛ وكنت أهنّىء نفسي برؤية ما لا يُرى . على اني كنت احبّ فوق كل شيء صمت أبطالي ، ذلك الصمت الذي لم يكن

---

(١) يقصد الكاتب عهد السينما الصامتة . — المترجم

قابلاً للشفاء . بل الأصح أنهم لم يكونوا بُكماً ما داموا يحسنون حمل الناس على فهمهم . كنّا نتواصل بالموسيقى . وكان ذلك ضجيج حياتهم الداخلية . كانت البراءة المعذّبة تفعل ما هو أفضل من الكلام او من إظهار ألمها ، كانت تملأني بذلك الغناء الذي يخرج منها ؛ كنت اقرأ الأحاديث ولكني كنت أسمع الأمل والمرارة ، وكنت أفاجيء بالأذُن الألم المتكبر الذي لا يُعلن عن نفسه . كنت مشوّهاً ؛ فلم اكن أنا ، تلك الأرملة الشابة التي كانت تبكي على الشاشة ، ومع ذلك ، فلم يكن لنا ، هي وأنا ، الا روح واحدة : « اللحن المأتمي » لشوبان ؛ ولم اكن احتاج الى اكثر من دموعها لتندّى عيناي . كنت أحسني نبياً ، من غير أن أستطيع التنبوء بشيء ؛ فقبل ان يخون الخائن ، كان جرمه يدخل فيّ ؛ وحين كان كل شيء يبدو هادئاً في القصر ، كانت انغام مشؤومة تفضح حضور القاتل . لكم كانوا سعداء ، اولئك الكاوبوي ، واولئك الفرسان ، واولئك الشرطة : كان مستقبلهم هنا ، في تلك الموسيقى المبشّرة ، وكان يقود الحاضر .

كان غناء متّصل يمتزج بحيواتهم ، وكان يقودهم نحو النصر او نحو الموت فيما هو يتقدّم من نهايته ذاتها . لقد كانوا هم منتَظرين : تنتظرهم الفتاة وهي في الخطر ، وينتظرهم الجنرال ، وينتظرهم الخائن الكامن في الغابة ، وينتظرهم الرفيق الموثق قرب برميل من البارود وهو ينظر بحزن الى اللهيب يلتهم الفتيل تدريجياً . إن ركض ذلك اللهيب ، ومقاومة العذراء اليائسة لمغتصبيها ، وعدْو البطل في السهول ، وتشابك جميع هذه الصور ، وجميع هذه السرعات ، ومن تحتها الحركة الجهنمية « للإسراع نحو الهاوية » وهي مقطع موسيقي مأخوذ من « تعذيب فوست » ومقتبس للبيانو — إن ذلك كله لم يكن الا شيئاً واحداً : هو « القَدَر » . كان البطل يضع قدمه على الأرض ، ويطفيء الفتيل ، وكان الخائن يرتمي عليه ، فيبدأ صراعٌ بالمُدى : ولكنّ مصادفات هذا الصراع كانت تُسهم هي ذاتها في صرامة النموّ الموسيقي : وكانت مصادفات مزيفة لا تخفي النظام

العالمي . وأية فرحة ، حين كانت آخر ضربة مُدية تتفق وآخر لحن ! كنت إذ ذاك أطفح سروراً ، لأني كنت أجد العالم الذي كنت أريد أن أعيش فيه ، وكنت أبلغ المطلق . وايّ انزعاج ايضاً ، حين كانت المصابيح تُضاء من جديد ! كنت قد تمزّقت حباً لهؤلاء الأشخاص ، وهاهم يختفون ، حاملين معهم عالمهم ؛ كنت قد أحسست بانتصارهم في عظامي ، ومع ذلك فقد كان انتصارهم هم ، لا انتصاري أنا : وفي الشارع ، كنت أجدني مرة أخرى ، انساناً فائضاً .

وقرّرت أن أفقد الكلام وأعيش بالموسيقى . وقد كانت تتاح لي فرصة ذلك كل مساء ، حوالي الساعة الخامسة . كان جدّي يعطي دروسه في « معهد اللغات الحية » ؛ وكانت جدّتي تقرأ في كتب « غيب » ، وهي مختلية في غرفتها ؛ وكانت أمي قد أطعمتني وراحت تهيىء العشاء ، وتعطي الخادمة نصائحها الأخيرة ؛ وكانت تجلس الى البيانو وتعزف « بالاد » شوبان ، واحدى « سوناتات » شومان ، و « التغيرّات السمفونية » لفرانك ، واحياناً ، بناء على طلبي « افتتاحية مغائر فنغال » . وكنت أتسلل الى المكتب الذي يكون قد غرق في العتمة ، وشمعتان تحترقان فوق البيانو . وكان الظلّ يخدمني ، فكنت ألتقط مسطرة جدي على أنها سيفي ، وقاطعة ورقه على أنهـا خنجري ؛ وسرعان ما كنت أصبح صورة مسطحة لفارس . وكان الوحي يتأخر أحياناً : وكسباً للوقت كنت أقرّر ، أنا المبارز الشهير ، أنّ قضية هامة كانت تضطرني الى ان أظل متنكراً ، فلا يعرفني أحد . وكان المفروض أن أتلقى الضربات من غير أن أردها وأجعل شجاعتي تتظاهر بالجبن . وكنت أدور في القاعة ، والعين مهدّدة ، والرأس منخفض ، وأنا أجرجر قدميّ ؛ وكنت أسجّل بقفزات اقوم بها بين الفينة والفينة أني قُذفت بصفعة أو رُكلت مؤخرتي بنعل ، ولكني لم أكن أظهر ايّ ردّ فعل : كنت اجتزيء بتسجيل اسم الذي وجه إليّ الإهانة . واخيراً كانت الموسيقى تصخب وتتكاثف ، فتقوم

بهمتها . كان البيانو يفرض عليّ إيقاعه ، كأنه طبل افريقي . وكانت « الفانتازيا المرتجلة » تحل محلّ روحي ، فتسكنني ، وتمنحني ماضياً مجهولاً ، ومستقبلاً بارقاً ومميتاً ؛ كنت مأخوذاً ، وكان الشيطان قد أمسك بي يهزّني كشجرة خوخ . على الحصان ! كنت فرساً وفارساً ، راكباً ومركوباً ؛ وكنت أجتاز بسرعة خاطفة سهولاً معشبة وأراضي مفلوحة ، والمكتب ، من الباب حتى النافذة . وكانت امي تقول ، من غير ان تكفّ عن العزف : « انك تحدث ضجة مفرطة ، وسوف يشتكي الجيران . » ولم أكن اردّ عليها ، باعتبار اني كنت أبكم . وأصوّب على الدوق ، وأضع قدمي في الأرض ، وأجعله يفهم بحركات شفتيّ الصامتة اني أعتبره ابن زنى . ويجرّد جنوده ، فأتخـذ من دواليبي سوراً فولاذياً ؛ وأخترق بين الحين والحين صدراً من الصدور . وما البث أن أرتد ، فأصبح « المبارز » المشقوق الى اثنين ، وأسقط فأموت على السجادة . ثم انسحب عـلى مهل من الجثة ، وأعود الى النهوض ، واستعيد دوري كفارس تائه . وكنت أنعش جميع الأشخاص : كنت فارساً يصفع الدوق ، ويدور على نفسه ؛ وكنت دوقاً يتلقى الصفعة . ولكني لم أكن اتقمص الأشرار وقتاً طويلاً ، لأني كنت نافد الصبر للعودة الى دوري الكبير الاول ، الى نفسي . كنت أنتصر على الجميع ولا أقهر ابداً . ولكني كنت اوجّل انتصـاري ، كما في حكايـاتي الليلية ، الى أجلٍ لن يأتي ، لأني كنت أخاف الجمود الذي سيتبعه .

إنني أحمي كونتيسة شابة من شقيق الملك . اية مجزرة ! ولكن أمي قد قلبت الصفحة ، فحلّ محلّ « الاليغرو »[1] « أداجيو »[2] رقيق ؛ وأنهي المجزرة في سرعة ، وأبتسم للتي أنا حاميها . انها تحبني ؛ والموسيقى هي

---

(١) قطعة موسيقية مرحة وحية .
(٢) قطعة موسيقية بطيئة . — المترجم

التي تعبّر عن ذلك. وأنا ايضاً، ربما كنت أحبها : إن قلباً مغرماً بطيئاً يقيم في صدري. ما الذي يفعله المرء حين يحب؟ كنت آخذ ذراعها، وكنت أصطحبها في نزهة الى الحقول : ولكن ذلك لا يمكن أن يكون كافياً : ويُستدعى السوقة والمرتزقة على جناح السرعة، فيخلصونني من الورطة : أنهم يرتمون علينا، مئة ضد واحد؛ وأقتل منهم تسعين، بينما يخطف العشرة الباقون الكونتيسة.

إنها لحظة الدخول في سنواتي المظلمة : فالمرأة التي أحبّها أسيرة، وأنا خارج على القانون، مطارد، تلحق بي جميع شرطة المملكة، بائس، لا يبقى لي إلا ضميري وسيفي. وأذرع المكتب بهيئة تعب ويأس، وأملأ نفسي بحزن شوبان المهووس. وقد كنت أحياناً اقلب صفحات حياتي، فأقفز سنتين او ثلاثاً لأتأكدّ من أن كل شيء سينتهي بخير، وان أوسمتي ستُردُ لي، وأراضي، وخطيبة لم تمس تقريباً، وسيطلب الملك الغفران مني. ولكني سرعان ما كنت أقفز الى الوراء، فكنت أعود لأقيم، قبل ذلك بعامين او ثلاثة، في الشقاء. وكانت تلك الفترة تسحرني، وكان الخيال يمتزج بالحقيقة؛ كنت أشبه المتشرّد الحزين، الذي يلاحق العدالة، الطفل العاطل عن العمل، المرتبك بنفسه، الباحث عن سبب للحياة، الذي كان يذرع تحت انغام الموسيقى مكتب جده. ومن غير ان أترك الدور، كنت أفيد من وجه الشبه لأحقق مزيج مصيرينا؛ وكنت اطمئن الى النصر النهائي، فأرى في مصائبي آمن درب لبلوغه؛ وعبْر انحطاطي، كنت ألمح المجد المقبل الذي كان سببه الحقيقي. وكانت «سوناتة» شومان تعمل على اقناعي نهائياً : بأني كنت المخلوق الذي ييأس، والربّ الذي أنقذه منذ بدء العالم. أية فرحة ان يستطيع المرء أن يحزن حزناً «أبيض»؛ كنت أملك حقّ العبوس في وجه الكون.

وفي تعبي من الانتصارات المفرطة السهولة، كنت أتذوّق لذائذ الكآبة، ومتعة الحقد المرّة. لقد كنت موضع أرق ألوان العناية، وكنت مكتظاً،

بلا رغبات ، فكنت أرتمي في تعرية خيالية . ولم تفض ثمانية أعوام من الهناءة إلاّ الى منحي مذاق الاستشهاد . وكنت أستبدل بقضاتي العاديين الذين يتدخّلون جميعاً لصالحي ، محكمة عابسة ، على أهبـــة ان تدينني من غير ان تستمع إليّ : انني ، ان فعلت ، سأنتزع منها التبرئة ، والتهاني ، وجائزة نموذجية . وكان قـــد سبق لي ان قرأت عشرين مرة ، وأنا في العذاب ، قصة غريزاليديس[1] ؛ ومع ذلك ، فلم أكن أحبّ أن أتألم ، وقد كانت رغباتي الأولى قاسية : إنّ حامي هذا العدد الكبير من الأميرات لم يكن يتحرّج من أن يضرب — ذهنياً — مؤخرة جارته الصغيرة ، الساكنة في الطابق المقابل . وكان ما يلذّني في تلك الحكاية ، التي قلما كان يُوصى بقراءتها ، سادية الضحية ، وتلك الفضيلة الصلبة التي انتهت بالزوج الجلاّد الى أن يركع على ركبتيه . إن هذا هو ما كنت أريده لنفسي : أن أركّع القضاة بالقوة ، وأجبرهم على أن يحترموني لأعاقبهم على ادعاءاتهم . ولكني كنت أوجّل كل يوم التبرئة الى اليوم التالي ؛ كنت بطلاً للمستقبل أبداً ، فكنت أذوب رغبةً في تكريس كنت أدافعه بلا انقطاع .

وأحسب أن تلك الكآبة المزدوجة ، المحسّ بها والممثّلة ، كانت تعبر عن خيبتي : إن براعتي ، اذا وُصلت فيما بينها ، لم تكن الا مسبحةً من المصادفات ؛ كنت حين تفرغ امي من توقيع آخر أنغام « الفانتازيا المرتجلة » ، أسقط ثانية في زمن اليتامى المحرومين من أبيهم ، وفي زمن الفرسان — التائهين المحرومين من اليتامى ؛ فسواء كنت بطلاً أم تلميذاً ، أقوم بكتابة فروض الاملاء نفسها وأعيد كتابتها ، وأحقق البراعات نفسها ، فقد كنت أظلّ محبوساً في هذه الزنزانة : الترديد . ومع ذلك ، فقد كان موجوداً ، ذلك المستقبل ؛ كانت السينما قد كشفته لي ؛ وكنت أحلم بأن يكون لي قدَر .

---

(١) مركيزة « سالوس » ، بطلة أسطورة مؤثرة تصورها على انها نموذج للفضائل الزوجية. وقد ألهمت بترارك وبوكاتشي وبيرو . — المترجم

وانتهت ضروب العبوس والحرد لدى غريزاليديس الى أن تتعبني : فمهما كنت قد دفعت الى ما لا حدّ دقيقة تمجيدي التاريخية ، فانني لم أكن أصنع من ذلك مستقبلاً حقيقياً : إنه لم يكن إلاّ حاضراً موّجلاً .

حوالي هذا التاريخ ١٩١٢ او ١٩١٣ — قرأت « ميشال ستروغوف » . وبكيت فرحاً : اية حياة نموذجية ! إن ذلك الضابط لم يكن بحاجة ، لكي يُظهر قيمته ، أن ينتظر رغبة اللصوص : ذلك أن أمراً من علُ كان قد انتزعه من الظلّ ، فكان يعيش ليطيعه ، ويموت انتصاراً له ؛ والحق ان ذلك المجد كان موتاً ؛ كان ميشال ، في آخر صفحة من الكتاب ، يحبس نفسه حياً في تابوته الصغير المذهّب . ليس ثمة قلق : فقد كان مبرّراً منذ تجلّيه الأول . ولم يكن ثمة أية مصادفة : صحيح انه كان يتنقل بلا انقطاع ، ولكن مصالح كبيرة ، وشجاعته ، ويقظة العدو ، وطبيعة الأرض ، ووسائل النقل ، وعشرين عاملاً آخر ، أُعطيت كلّها مسبّقاً ، كانت تتيح لكل لحظة أن تسجّل مركزها على الخارطة . ولم يكن ثمة من ترديد : كان كل شيء يتغيّر ، فكان ينبغي أن يتغيّر بلا انقطاع ؛ وكان مستقبله ينيره ، فكان يسير وفق نجمه . وبعد ذلك بثلاثة أشهر ، قرأت تلك الرواية بالحماسة نفسها ؛ والحق اني لم أكن احب ميشال ، فقد كنت أجده عاقلاً أكثر مما ينبغي : وكان ذلك قدره الذي كنت أحسده عليه . كنت أعبد فيه المسيحيّ المقنّع الذي كنت قد مُنعتُ من أن اكونه . كان قيصر جميع « الروسيات [١] » هو الرب الأب ؛ كان ميشال منبعثاً من العدم بمرسوم فريد ، وكان مكلفاً ، كجميع المخلوقات ، برسالة واحدة وعظمى ، فكان يجتاز وادي الدموع عندنا وهو يزيح الإغراءات ويعبر العقبات ، ويتذوق عذاب الشهادة ، ويفيد من مسابقة فوقطبيعية [٢] ، ويمجّد خالقه ، ثم يدخل ، عند نهاية مهمته ، في الخلود .

---

(١) جمع روسيا ، البلاد — المترجم .
(٢) انقذتها معجزة دمعة — هامش المؤلف .

لقد كان هذا الكتاب بالنسبة لي سماً ؛ وإذن ، فقد كان هنا مختارون ؟ وكانت أرفع الضرورات ترسم لهم الطريق ؟ لقد كانت القداسة تنفّرني ، وهي قد سحرتني في ميشال ستروغوف ، لأنها كانت قد تلبّست مظاهر البطولة الخارجية

ومع ذلك ، فاني لم أغيّر شيئاً في رواياتي الايمائية ، وظلّت رسالتي في الهواء ، شبحاً لا كثافة له ولم يكن ينجح في التجسّد ، ولم أكن أستطيع التخلّص منه . وبالطبع ، كان أفراد الكومبارس الذين استخدمهم ، ملوك فرنسا ، تحت أوامري ، ولم يكونوا ينتظرون الا إشارة ليطوني أوامرهم . ولم أكن أطلب منهم شيئاً من هذه الأوامر .ما عسى أن يصبح كرمُ النفس اذا جازف المرء بحياته بدافع من الطاعة ؟ كان مارسيل دونو ، الملاكم ذو القبضة الحديدية ، يُدهشني كل أسبوع حين يقوم ، في كل براعة ، بأكثر من واجبه ؛ أما ميشال ستروغوف الأعمى ، المثخن بالجروح المجيدة ، فلا يكاد يستطيع أن يقول إنه قام بواجبه . كنت معجباً ببسالته ، فأنكرت مذلّته ؛ ولم يكن فوق رأس هذا الشجاع الا السماء ؛ فلماذا كان يحنيه أمام القيصر ، حين كان على القيصر أن يقبّل قدميه ؟ ولكن أنّى للمرء أن يستطيع الحصول عــلى وكالة الحياة ، اذا لم ينحنِ ؟ لقد أوقعني هذا التناقض في ارتباك كبير .

وحاولت أحياناً ان أحيد عن الصعوبة : لقد كنت أسمع ، أنا الطفل المجهول ، من يتحدث عن مهمة خطرة ؛ فكنت أذهب فأرتمي على قدمي الملك ، وأبتهل اليه أن يعهد فيها لي . وكان يرفض : كنت أصغر مما ينبغي ، وكانت القضية أخطر مما ينبغي . وكنت أنهض فأدعو للمبارزة جميع قادته ، وأهزمهم بسرعة. وكان العاهل يقتنع بالبداهة فيقول : « إذهب إذن،ما دمت تريد ذلك ! » ولكني لم أكن مخدوعاً بحيلتي ، وكنت أدرك جيداً اني انما فرضت نفسي فرضاً . ثم إن جميع هذه القرود كانت تثير اشمئزازي : كنت واحداً من أهل ثورة ١٧٩٣ ، وكنت قاتل ملك ، وكان جدّي قد

حذّرني من الطغاة ، سواء أكان اسم أحدهم لويس السادس عشر ام بادانغيه . وكنت خاصة اقرأ كل يوم في جريدة « الماتان » قصة ميشال زيفاكو المتسلسلة : كان هذا المؤلف العبقري ، بتأثير مـــن هوغو ، قد اخترع رواية الوشاح والسيف الجمهورية . كان أبطاله يمثّلون الشعب ؛ كانوا يقيمون الامبراطوريات ويهدمونها ، ويتنبأون منذ القرن الرابع عشر « بالثورة » الفرنسية ، ويحمون بدافع من طيبة القلب ملوكاً أطفالاً أو ملوكاً مجانين ضد وزارئهم ، ويصنعون الملوك الأشرار . وكان أكبرهم ، بارداليان ، معلّمي : فقد صفعت مئة مرة هنري الثالث ولويس الثالث عشر ، تقليداً له ، وأنا معسكر على ساقيّ الديكيتين . أتراني سأخضع لأوامرهم بعد ذلك؟ انني بكلمة واحدة ، لم أكن أستطيع أن أنتزع من نفسي الوكالة الآمرة التي تبرّر حضوري على هذه الأرض ، ولا أن اعترف لأحد بحق منحي إياها . واستعدت رحلاتي على ظهر الفرس ، في غير ما اكتراث ، واسترخيت في المعمعة ؛ وأنا القاتل الشرود ، والشهيد البليد ، ظللت غريزاليديس ، لعدم وجود قيصر ، أو ربّ ، أو أب بكل بساطة .

كنت أعيش حياتين كلتاهما كاذبتان . كنت أمام العموم كذّاباً : الحفيد العظيم لشارل شوايتزر الشهير ؛ ووحيداً ، أدوّم في عبوس وحَرَد خياليين . كنت أصحح مجدي الزائف بتنكّر زائف . ولم اكن أجد أية مشقة في الانتقال من دورٍ الى دور آخر : ففي اللحظة التي كنت أهمّ فيها بدفع حذائي الخفيّ ، كان المفتاح يدور في القفل ، وكانت يدا أمي المشلولتان فجأة تتجمّدان على أصابع البيانو ، وكنت أضع المسطرة على المكتبة وأذهب فأرتمي بين ذراعي جدّي ، وكنت أقرّب أريكته ، وأحمل له حذاءه المنسوج المحشوّ ، وأسأله عن نهاره ، وانا أنادي تلاميذه بأسمائهم . ومهما بلغ حلمي من العمق ، فاني لم أتعرّض قط الى خطر الضياع فيه ؛ غير اني كنت مع ذلك مهدّداً : كانت حقيقتي توشك أن تظلّ حتى النهاية تعاقُبَ أكاذيبي .

وكانت ثمة حقيقة أخرى . كان ثمة ، على ارصفة حديقة اللكسمبورغ ،

أطفال يلعبون ، وكنت أقترب منهم ، وكانوا يلامسونني من غير أن يروني ، وكنت أنظر اليهم بعيني فقير : كم كانوا أقوياء ومسرعين ! وكم كانوا جميلين ! وكنت أمام هؤلاء الأبطال من لحم ودم أفقد ذكائي العجيب ، وعلمي العالمي ، وجسمي العتليّ ، وبراعتي في المبارزة ؛ كنت أستند الى شجرة ، وأنتظر . وكنت على استعداد ، لو سمعت كلمة من قائد العصابة ، يلقيها بخشونة : « تقدّم ، يا باردايان ، فأنت الذي ستكون الأسير » ان أتخلّى عن امتيازاتي . فحتّى دورٌ صامت كان يملأني رضى ؛ وكنت سأقبل في الحماسة المندفعة ان أكون جريحاً فوق محمل ، ان اكون ميتاً . ولم تتح لي فرصة ذلك : كنت قد التقيت قضاتي الحقيقيين ، معاصريّ ، أندادي ، وكانت لامبالاتهم تدينني . ولم اكن أصدّق أن يكتشفوني : انني لست عجيبة ، ولا « ميذوراً » وانما أنا رجل قصير هزيل لم يكن يهمّ أحداً . ولم تكن امي تُحسن اخفاء غيظها : إنّ تلك المرأة الطويلة الجميلة كانت تتدبّر أمرها جيداً مع قامتي القصيرة ، ولم تكن ترى فيها الا ما هو طبيعي : ان آل شوايتزر طوال الأجسام ، وآل سارتر قصارها ، وقد كنت أمتّ الى أبي ، هذا كل ما في الأمر ، وكانت تحبّ ان أبقى ، وأنا في الثامنة ، قابلا للحمل ، سهل التحريك : ذلك أنها كانت تعتبر شكلي المختصر عمراً أول مطوّلاً . ولكنها ، اذ كانت ترى ان احداً لا يدعوني الى اللعب ، كانت تدفع الحبّ الى درجة ان تخمّن اني كنت على وشك ان أعتبر نفسي قزماً — وهذا ما لم أكنه تماماً — وأن أعاني من ذلك . ولكي تُنقذني من اليأس ، كانت تتظاهر بنفاد الصبر : « ما الذي تنتظره ، أيها الساذج الكبير ! إسألهم هل يريدون أن يلعبوا معك ؟ » فكنت أهزّ رأسي نفياً : لقد كنت مستعدّاً أن أقبل أحطّ أنواع الأعمال ، ولكني كنت أحافظ على كبريائي بالاّ أطلبها . كانت تشير الى سيدات يشتغلن الصوف على مقاعد حديدية : « هل تريد أن أكلّم أمهاتهم ؟ » فكنت أبتهل اليها ألاّ تفعل شيئاً من هذا ؛ وكانت تأخذ يدي ، فنعود أدراجنا ، وكنا نذهب من شجرة الى شجرة ، ومن فريق

الى فريق ، ونحن مستجديان ابداً ، مُبعَدان أبداً .

وعند المغيب ، كنت أجد ثانية غضبي الذي أتعلّق به ، الأمكنة العليا التي كان الفكر يصفر فيها ، أحلامي : وكنت أثأر من خيباتي وفشلي بست كلمات صبيانية وبقتل مئة جندي مرتزق . ما يهمّ : إن عجلة الأمور لم تكن تدور كما يرام .

وأنقذني جدّي : فقذفني ، من غير ارادتي ، في خديعة جديدة غيّرت كل حياتي .

٢ – الكتابة

لم يكن شارل شوايتزر قد اعتبر نفسه قط كاتباً ، ولكن اللغة الفرنسية كانت ما تزال تسحره ، وهو في السبعين ، لأنه كان قد تعلّمها بمشقّة ، ولم يكن يملكها تماماً : كان يلعب معها ، ويلتذّ بالكلمات ، ويحب أن ينطق بها ، وكان القاوّه الذي لا هوادة فيه لا يُعفي أيّ مقطع من كلمة ؛ وحين كان يجد متسعاً من الوقت ، كانت ريشته تجمع منها باقات متجانسة . وكان يروق له أن يصوّر أحداث أسرتنا والجامعة بآثار مناسبة : تمنّيات في العام الجديد وأعياد الميلاد ، تهاني في ولائم الأعراس ، خطب شعرية بمناسبة عيد القديس شارلمان ، مسرحيات هزلية قصيرة ، احجيات ، قواف ، ترّهات لطيفة ؛ وكان في الاجتماعات يرتجل رباعيات ، بالفرنسية او الألمانية .

وكنا في مطلع الصيف نقصد أركاشون ، أنا والمرأتان ، قبل أن يكون جدّي قد أنهى دروسه . وكان يكتب لنا ثلاث مرات في الاسبوع : صفحتين للويز ، وحاشية لآنماري ، ورسالة من الشعر لي . ولكي تجعلني أمّي أتذوّق سعادتي تذوّقاً أفضل ، فقد تعلّمتْ قواعد العروض وعلّمتني إياها . وقد فاجأني بعضهم وأنا أخربش جواباً موزوناً مقفّى ، فاستُعجلت في إنجازه ، وسوعدت في ذلك . وحين أرسلت المرأتان الرسالة ، ضحكتا حتّى سالت دموعهما وهما تفكّران بذهول المرسلة اليه . وبعودة البريد ،

تلقّيت قصيدة نُظمت لمجدي ، فأجبت عليها بقصيدة .

وألفنا ذلك ، فتوحّد الجد وحفيده برباط جديد ؛ كانا يتبادلان الحديث ، كالهنود ، وكسوقة مونتمارتر ، بلغة ممنوعة على النساء . وقُدِّم لي معجم للقوافي ، فجعلت من نفسي نظّاماً : وكنت أكتب قصائد غزلية لـ « فيفي » ، وهي فتاة صغيرة شقراء لم تكن تغادر كرسيّها الطويل ، وقد ماتت بعد ذلك بأعوام . وكانت الفتاة لا تبالي بها : كانت ملاكاً ؛ ولكن إعجاب جمهورٍ كبير كان يعزّيني من هذه اللامبالاة .

وقد عثرت على بعض تلك القصائد . وقد قال جان كوكتو عام ١٩٥٥ إن لجميع الأطفال عبقرية ، ما عدا مينو درويه . وفي عام ١٩١٢ ، كانوا جميعاً عباقرة ، ما عداي : فقد كنت أكتب بدافع السعدنة ، ودافع الاحتفالية ، لأظهر بمظهر الكبار ؛ وكنت أكتب خصوصاً لأني كنت حفيد شارل شوايتزر . وقد أعطوني خرافات لافونتين ، فلم ترق لي : ذلك أن المؤلف كان يكتبها حسب هواه ؛ وعزمت ان أعيد كتابتها بقواعد الشعر الاسكندري . وكان المشروع يتجاوز قواي ، وحسبت اني الاحظ انه كان يثير الابتسام : وكان ذلك آخر تجربة شعرية لي .

ولكني كنت قد انطلقت : فانتقلت من الشعر الى النثر ، ولم ألق اية مشقة في ان أخترع من جديد ، كتابةً ، المغامرات المدهشة التي كنت أقرأها في « كري – كري » . كان الأوان قد آن : إني سأكتشف عبث أحلامي . كانت الحقيقة هي التي كنت أريد بلوغها ، أثناء رحلاتي الفروسية العجيبة . وحين كانت أمي تسألني ، من غير أن ترفع عينيها عن معزوفتها : « بولو ، ماذا تفعل » ؟ كان يتفق لي أحياناً ان أقطع نذري بالصمت وأن أجيبها : « انني أشتغل بالسينما . » وكنت في الواقع أحاول ان أنتزع الصور من رأسي وان « أحقّقها » خارج نفسي ، بين أثاث حقيقي وجدران حقيقية ، باهرةً ومرئية مثل الصور التي كانت تسيل على الشاشات . ولكن عبثاً حاولت ، فاني لم أكن أستطيع بعدُ ان أتجاهل خديعتي المزدوجة : كنت أتظاهر بأن

أكون ممثلاً يتظاهر بأن يكون بطلاً .

ما كدت ابدأ الكتابة ، حتّى وضعت قلمي لأتمتع بفرحة عظيمة . كانت الخديعة هي نفسها ، ولكنّي قلت اني كنت اعتبر الكلمات جوهر الأشياء . ولم يكن شيء يثير اضطرابي بعدُ الا ان أرى يديّ الذبابيتين تستبدلان شيئاً فشيئاً التماع لهبهما الخاطف بكثافة المادة الشاحبة : لقد كان ذلك تحقيق الخيالي . كان أسدٌ ، أو قبطان من « الامبراطورية الثانية » او بدويّ يدخلون قاعة الطعام ، لمجرّد أن يؤخذوا في شَرَك التسمية ؛ وسوف يبقون فيها ابداً أسرى ، متّحدين بالعلامات ؛ وأحسب اني أرسيت أحلامي في العالم بخدشات منقار فولاذي . لقد منحت نفسي دفتراً وزجاجة حبر بنفسجي ، وكتبت على الغلاف : « دفتر الروايات » ، وعنونت الرواية الأولى التي أنجزتها « من أجل فراشة » ، وهي حكاية عالم وابنته ورحالة عتليّ شاب كانوا يمخرون مجرى الأمازون بحثاً عن فراشة ثمينة . وكنت قد اقتبست الحجّة والأشخاص وتفصيل المغامرات ، وحتّى العنوان نفسه ، من حكاية مصورة ظهرت في الثلاثة الأشهر السابقة . وكانت هذه السرقة المقصودة تحرّرني من ألوان قلقي الأخيرة : كان كل شيء حقيقياً بالضرورة ، ما دمت لا أخترع شيئاً . ولم أكن أطمع في نشر كتابي ، ولكنّي كنت قد تدبّرت نفسي ليُطبع كتابي مقدّماً ، ولم أكن أخطّ كلمة لم يكن نموذجي يضمنها . أتراني كنت أعتبر نفسي ناسخاً ؟ لا ، بل مؤلفاً أصيلاً : كنت أعدّل ، وكنت أعيد الشباب لما أكتب ؛ فأنا مثلاً كنت قد اهتممت بتغيير أسماء الأشخاص . وكانت تلك التغييرات الطفيفة تتيح لي مزج الذاكرة بالخيال . كانت جُملٌ جديدة ومكتوبة كلّها تتشكّل من جديد في رأسي بتوكيد كبير أنها مصدر ايحاء . كنت أنسخها فكانت تكتسب تحت ناظريّ كثافة الأشياء . لئن كان المؤلف الملهم ، كما يُعتقد عامة ، شخصاً آخر في صميم

نفسه ، فقد عرفت الإلهام بين السابعة والثامنة .

ولم أكن قط مخدوعاً تماماً بهذه « الكتابة الآلية » . ولكن اللعبة كانت تروق لي بذاتها : كنت ، وانا الابن الوحيد ، أستطيع أن ألعبها وحدي . وكنت أحياناً أوقف يدي ، وأتظاهر بالتردد لأحسّني « كاتباً » ، وأنا مقطّب الجبين ، مأخوذ النظر . والحق اني كنت مغرماً بالسرقة ، بدافع من السنوبية ، وكنت أدفعها طوعاً حتّى النهاية ، كما سيُرى فيما بعد .

لم يكن بوسنار ولا جول فيرن يضيعان فرصة للتعليم والتثقيف : فهما في أحرج اللحظات يقطعان خيط الحكاية ليرتميا في وصف نبات سامّ ، أو مسكنٍ بدائي . وكنت ، أنا القاريء ، أتجاوز تلك المقاطع التعليمية ؛ أما مؤلفاً ، فاني أحشو بها رواياتي ؛ اني أودّ ان أعلّم معاصريّ كلّ ما كنت أجهله : أخــلاق « الفيوجيانيين » ، والنباتات الافريقية ، ومناخ الصحراء . كان القدر يفصل بين مجمّع الفراشات وابنته ، ثم يحملهما ، بغير معرفة منهما ، على السفينة نفسها ، فيصبحان ضحيتي حادث الغرق نفسه ، وكانا يتشبّثان بالعوّامة نفسها ، فيرفعان رأسيهما ، ويطلق كل منهما صيحة : « ديزي ! » « بابا ! » ولكن واحسرتاه ! إن كلب بحر يذرع البحر آنذاك ، بحثاً عن لحم طريّ ، يقترب ، وبطنه يلتمع بين الأمواج . فهل يفلت المساكين من الموت ؟ وكنت أذهب لآتي بالجزء Pr - z من « لاروس » الكبير . وكنت أحمله بمشقة حتى طاولتي ، فأفتحه على الصفحة المطلوبة وأنقل كلمة كلمة مبتدئاً السطر : « إن كلاب البحر معروفة في الأطلنتيك الاستوائي . ويبلغ هذا السمك البحري المفترس طولاً يقارب ثلاثة عشر متراً ، ووزناً يقارب ثمانية أطنان ... » وكنت أتباطأ لأنقل المقال : كنت أحسّني مضجراً بشكل عذب ، متميّزاً كـ « بوسنار » غير واجدٍ بعد وسيلة انقاذ أبطالي ، وكنت أغلي في ارتعاشات لذيذة .

وكان كل شيء يرصد هذا النشاط الجديد لكي لا يكون إلا سعادة أخرى . وكانت أمي تبذل لي ألوان التشجيع ، وكانت تُدخل الزوار قاعة

الطعام لكي يفاجئوا الخلاّق الفتي على طاولته المدرسية ؛ وكنت أتظاهر بأني أشدّ انهماكاً من أن أحسّ حضور المعجبين بي ؛ وكانوا ينسحبون على أطراف أصابعهم وهم يتمتمون اني كنت لذيذاً اكثر مما ينبغي ، جذاباً أكثر مما ينبغي . وأهدى إلي خالي أميل آلة كاتبة صغيرة لم أستعملها ، واشترت لي السيدة بيكار خارطة للكرة الأرضية لأتمكن من أن أرسم ، بلا تعرّض للخطأ ، خطّ سير رحّالتي . وأعادت آنماري نقل روايتي الثانية « بائع الموز » على ورق لمّاع ، فتداولتها الأيدي . وكانت مامي نفسها تشجعني وتقول : « إنه على الأقل عاقل ، فهو لا يحدث ضجة » ومن حسن الحظّ ان التكريس تأجّل بسبب استياء جدّي .

لم يكن كارل يقرّ قطّ ما كان يدعوه بـ « مطالعاتي الرديئة » . وحين أخبرته امي اني كنت قد بدأت أكتب ، اغتبط أول الأمر ، مؤمّلاً كما أفترض ، ان اكتب تاريخاً لأسرتنا مع ملاحظات نافذة وألوان رائعة من السذاجات . وتناول دفتري فقلّب أوراقه ، ثم عبس وغادر قاعة الطعام ، حانقاً أن يجد مرة أخرى تحت قلمي « حماقات » جرائدي المفضّلة . وفيما بعد ، أهمل كتاباتي . وحاولت امي اكثر من مرة ، وهي حزينة محطمة ، أن تحمله على قراءة « بائع الموز » . وكانت تنتظر أن ينتعل حذاءه المنسوج وأن يقتعد أريكته ؛ وفيما كان يرتاح صامتاً ، محدّد العين قاسي النظرة ، ويداه على ركبتيه ، كانت تتناول مخطوطتي ، وتقلّبها بشرود ، ثم تأخذ تضحك وحدها ، وهي مأسورة . وتنتهي الى اندفاع لا يُقاوم تبسط فيه المخطوطة الى جدّي :

ــ اقرأ هذا ، يا بابا ! إنه عجيب اكثر مما ينبغي !

ولكنه كان يزيح الدفتر بيده ، او أنه يلقي عليه نظرة ، لا لشيء الا لكي يسجّل عليّ أخطاء الاملاء . وعلى المدى ، انتقلت الخشية الى امي : فلم تكن تجروْ بعد على أن تهنئني ، وكانت تخاف ان تشقّ عليّ ، فكفّت عن قراءة كتاباتي حتى لا تضطر الى أن تحدثني عنها .

وسقطت ألوان نشاطي الأدبي التي لم تكد تُشجّع ، في نصف سريّة ؛ على اني كنت أتابعها بدأب وانتظام ، في ساعات الاستراحة ، ويوم الخميس ويوم الأحد ، وأيام العطلة ، وحين كنت اوتى حظّ ان أكون مريضاً ، في سريري ؛ واني لأتذكّر فترات نقاهة سعيدة ، ودفتراً أسود ذا ظهر أحمر كنت آخذه وأتركه كالسجادة . وكان ما « عملته » في السينما أقلّ : كانت رواياتي تستأثر بكل اهتمامي . وبالاختصار ، لقد كتبت لارضاء نفسي .

وتعقّدت رواياتي ، وقد أدخلت فيها أحداثاً متنوعة ، وصببتُ جميع مطالعاتي ، الجيدة منها والرديئة ، في هذه الأكياس ، مختلطة ممزوجة . وقد تأثّرت الحبكة منها تأثّراً سيئاً ؛ ومع ذلك ، فقد كان في الأمر ربح ؛ كان ينبغي خلق أوصال جديدة ، وأصبحت من جرّاء ذلك أقلّ سرقة من ذي قبل . ثم انني ازدوجت . ففي العام السابق ، حين كنت « أعمل في السينما » ، كنت أمثّل دوري بالذات ، وكنت أرتمي في الخيالي ، وحسبت اكثر من مرة أني أغيب فيه كليّاً . واذ أصبحت مؤلفاً ، ظللت أنا نفسي البطل ، وكنت أعكس فيه أحلامي الملحمية ؛ بيد اننا كنّا اثنين : إنه لم يكن يحمل اسمي ، ولم اكن أتحدث عنا الا بصيغة الغائب . وبدلاً من أن أعيره حركاتي ، كنت أشكّل له بالكلمات جسماً ادّعيت اني أراه . وكان من حق هذا « الإبعاد » ان يفزعني : ولكنه سحرني ؛ لقد اغتبطت ان اكون « إياه » من غير أن يكون هو إيّاي تماماً . لقد كان دُميتي ، وكنت أطويها لأهوائي ، وكنت أستطيع ان أخضعه للامتحان ، وان أثقب جنبه بضربة رمح ، ثم أعنى به كما كانت تعنى بي أمي ، وأشفيه كما كانت تشفيني . وكان المؤلفون المفضّلون عندي يقفون في منتصف طريق الرفعة ، بدافع من حشمة : فحتى عند زيفاكو ، لم يسبق لبطل شجاع أن قتل اكثر من عشرين لصاً دفعة واحدة . لقد أردت أن أوصّل رواية المغامرات ، فقذفت احتمال الوقوع في البحر ، وضاعفت عدد الأعداء ، والأخطار ، ولكي ينقذ الرحالة

الفنيّ عمّه المقبل وخطيبته ، في « من أجل فراشة » ، صارع كلاب البحر ثلاثة أيام بلياليها ؛ وفي النهاية ، كان البحر أحمر ؛ وحين جُرح هو نفسه ، فرّ من مزرعة كان يحاصرها اللصوص ، واجتاز الصحراء وهو يحمل أمعاءه بيديه ، فرفض أن يُخاط قبل أن يتحدث الى الجنرال . وهو نفسه ، تحت اسم غوتزفون برليشنجن ، هزم بعد ذلك جيشاً برمّته . واحد ضد الجميع : كانت هذه قاعدتي ؛ فليُبحث عن مصدر هذا الحلم الكئيب العظيم في الفردية البورجوازية الطهرية التي كانت شائعة في وسطي .

بطلاً ، كنت أصارع ألوان الطغيان ؛ وخالقاً ، جعلت نفسي طاغية أنا بالذات ، وعرفت جميع اغراءات السلطة . كنت وديعاً ، فأصبحت شريراً . ما الذي كان يمنعني من أن أفقأ عيني ديزي ؟ كنت أجيب نفسي ، وانا أكاد أموت فزعاً : لا شيء . وكنت أفقأهما لها ، كما لو اني كنت انتزع جناحي ذبابة . وكنت أكتب ، خافق القلب : « وأمرّت ديزي يدها على عينيها : كانت قد أصبحت عمياء . » وكنت أظلّ مأخوذاً ، وقلمي في الهواء : كنت قد أحدثت في المطلق حدثاً صغيراً كان يُفسد سمعتي بصورة لذيذة . انني لم أكن سادياً حقاً : فقد كانت فرحتي الداعرة تتحول فوراً الى ضيق ، فكنت ألغي جميع مراسيمي ، وكنت أملأها بالشطب حتى أجعلها غير قابلة للقراءة : كانت الفتاة تستعيد نظرها ، أو انها على الأصح لم تكن قد فقدته قط . ولكن ذكرى أهوائي كانت تعذّبني وقتاً طويلاً : كنت أحمّل نفسي ألواناً جدّية من القلق .

كان العالم المكتوب يقلقني ، هو أيضاً : كنت أتعب أحياناً من مجازر الأطفال الرقيقة ، فكنت أترك نفسي تسيل ، وكنت أكتشف ،في الضيق امكانيات مريعة . دنيا شيطانية لم تكن الا قفا قدرتي الهائلة ؛ وكنت أقول لنفسي : كل شيء ممكن الحدوث ! وكان هذا يعني : انني أستطيع ان أتصوّر كل شيء . وكنت أروي فظائع تفوق قدرة البشر ، وأنا ارتجف وأوشك

ان أمزّق ورقي . وكانت امي ، اذا اتفق لها أن قرأت من فوق كتفي ، ترسل صيحة مجد وتحذير : « أيّ خيال ! » وكانت تعضّ شفتيها ، وتريد أن تتكلم ، فلا تجد شيئاً تقوله ، وكانت تهرب فجأة : وكانت هزيمتها تدفع ضيقي الى ذروته . ولكن الخيال لم يكن موضع جدال : انني لم أكن اختلق هذه الفظائع ، بل كنت أجدها ، كسائر الأشياء ، في ذاكرتي .

في ذلك العهد ، كان « الغرب » يموت اختناقاً : وهذا ما سمّي بـ « عذوبة الحياة » . كانت البورجوازية ، لعدم وجود اعداء مرئيين ، تلتذّ بأن تخيف نفسها من شبحها ؛ وكانت تستبدل بسأمها قلقاً موجّهاً . كان الحديث يجري عن استحضار الأرواح والتنويم المغنطيسي ؛ وفي شارع لوغوف ، في الرقم ٢ ، تجاه بنايتنا ، كان هناك من يُدير الطاولات . وكان ذلك يحدث في الطابق الرابع ، « عند المجوسي » كما كانت تقول جدتي . وكانت تنادينا أحياناً فنصل في الوقت المناسب لنرى ازواجاً من الأيدي فوق طاولة مستديرة ، ولكن ما يلبث أحدهم أن يقترب من النافذة ويسدل الستار . وكانت لويز تزعم أن هـذا المجوسي كان يستقبل كل يـوم أطفالاً في مثل سنّي تقودهم أمهاتهم . وكانت تقول : « وانني أراه : إنه يضع يديه عـلى رؤوسهم . »

وكان جدّي يهزّ رأسه ؛ وبالرغم من أنه شجب هذه الحركات ، فانه لم يكن يجروْ على الاستهزاء بها ؛ وكانت أمي تخاف منها ، وبدا على جدتي مرة انها مأخوذة اكثر منها مرتابة . وقد اتفقوا أخيراً : « يجب على الأخص عدم الاهتمام بهذا ، فانه يجعل المرء مجنوناً ! »

وكانت الموضة الشائعة هي موضة الحكايات الخيالية الغريبة ؛ كانت الصحف المحافظة تقدّم اثنين او ثلاثاً منها كل اسبوع لهذا الجمهور الذي فقد مسيحيته والذي كان آسفاً على أناقات الايمان . وكان الراوي يصوّر بكل تجرّد واقعة مثيرة ، تاركاً حظّاً للوضعية : فمهما بلغ الحدث من الغرابة ،

فقد كان لا بد من أن يحتمل تفسيراً عقلانياً. وهذا التفسير، كان المؤلف يبحث عنه، ويعثر عليه، ويقدّمه لنا بأمانة، ولكنه كان سرعان ما يبذل فنّه ليدلّل على خفّته وعدم كفايته. ليس اكثر من ذلك: كانت الحكاية تنتهي باستفهام. ولكن ذلك كان يكفي: كان «العالم الآخر» موجوداً، ومخيفاً الى حدّ انه لم يكن يُسمّى.

حين كنت أفتح «لوماتان»، كان الذعر يثلجني. وقد استوقفتني حكاية اكثر من سواها. وأنا ما زلت اذكر عنوانها: «رياح في الأشجار» إنها حكاية مريضة تعيش وحيدة في منزلها الريفي، بالطابق الاول، وتتقلب في سريرها، ذات مساء صيفي. وكانت شجرة كستناء ترسل أغصانها في الغرفة. وفي الطابق الأرضي، كان بضعة أشخاص مجتمعين، يتحدثون وينظرون الى الليل يهبط في الحديقة. وفجأة، أشار احدهم الى شجرة الكستناء: «عجباً! عجباً! هناك إذن رياح؟» وتأخذهم الدهشة، فيخرجون الى الشرفة: ليس ثمة من نسمة؛ ومع ذلك، فان الاغصان تهتزّ. وفي تلك اللحظة تنبعث صرخة! ويرتمي زوج المريضة على الدرَج فيجد زوجته الشابة منتصبة على السرير وهي تشير باصبعها الى الشجرة ثم تسقط ميتة؛ واستعادت شجرة الكستناء خدَرها المألوف. ما الذي رأته المريضة؟ لقد فرّ مجنون من المأوى: ولا بد أنه كان هو الذي اختبأ في الشجرة، وأظهر وجهه المكشر. إنه هو، «يجب» أن يكون هو، بحجة ان ايّ تفسير آخر لا يمكن ان يكون مرضياً. ومع ذلك .. فكيف لم يشاهده أحدٌ وهو يصعد؟ او وهو يهبط؟ وكيف لم تنبح الكلاب؟ وكيف تمكنوا من القبض عليه، بعد ست ساعات، على بعد مئة كيلومتر من المنزل؟ اسئلة بلا جواب.

وينتقل الراوي الى اول السطر، ويختم حكايته باهمال: «اذا أردنا ان نصدّق أهل البلدة، فانه «الموت» الذي كان يهزّ اغصان شجرة الكستناء.»

ورميت الجريدة ، وضربت الأرض بقدمي ، وقلت بصوت مرتفع : «لا ! لا ! » وكان قلبي يخفق حتّى لينفجر . وظننتني يُغمى عليّ ذات يوم ، في قطار ليموج ، وأنا اقلّب تقويم هاشيت : فقد وقع نظري على صورة يقفّ لها شعر الرأس : رصيف تحت ضوء القمر ، وكمّاشة كبيرة خشنة تخرج من الماء ، فتعلّق سكيراً بأسنانها ، وتقوده الى جوف الحوض . وكانت الصورة تمثل نصّاً قرأته بنهم ، وكان ينتهي بهذه الكلمات تقريباً : «أكانت هلسنة مدمنٍ على الخمر ؟ ام كان الجحيم هو الذي يفغر فاه ؟ » وخفت الماء والسراطين والأشجار . خفت الكتب خصوصاً : انني ألعن الجلادين الذين كانوا يعمرون حكاياتهم بتلك الوجوه المخيفة . ومع ذلك فقد قلّدتهم .

وكان لا بدّ ، طبعاً ، من مناسبة . كهبوط الليل مثلاً : كانت العتمة تغرق قاعة الطعام ، وكنت أدفع مكتبي الصغير بازاء النافذة ، وكان الضيق يولد من جديد ، وكانت وداعة أبطالي ، الرفيعين بلا انقطاع ، الذين غُمطوا حقّهم ثم استعادوه ، تكشف عن ميوعتهم ؛ وعندها كان « ذلك » يجيء : كان كائن مدوّخ يسحرني ، وهو غير مرئي ؛ ولكي يُرى ، كان ينبغي وصفُه . وأنهيت باندفاع المغامرة الجارية ، ونقلت أبطالي الى منطقة أخرى من الكرة ، هي في العادة منطقة تحت البحر أو تحت الأرض : فاذا هم غطّاسون أو علماء أرض مرتجلون ، كانوا يجدون أثر « الكينونة » ويتبعونها ويلتقون بها فجأة . وماكان يجيء آنذاك تحت قلمي ــ اخطبوط ذو عينين من نار ، حيوان مفصلي يزن عشرين طناً ، عنكبوت عملاق ويتكلم ــ كان انا نفسي ، مسخاً طفولياً ، وكان سأمي من الحياة ، وخوفي من الموت وتفاهتي ودعارتي . لم أكن أتعرّف نفسي : إن المخلوق القذر ، ما يكاد يولد ، حتى ينتصب ضدي ، ضدّ علمائي ــ علمهاء الكهوف ــ الشجعان ، وكنت أخاف على حياتهم ، وكان قلبي يستخفّه الغضب ، وكنت أنسى يدي وهي ترسم الكلمات ، وكنت أحسبني أقرأ . وغالباً ما كانت الأمور

تتوقّف عند هذا الحدّ : انني لم أكن أسلّم البشر « للوحش » ، ولكني لم أكن كذلك أخلّصهم من الورطة ؛ كان حسبي إجمالاً أني أقمت بينهم الصلة ؛ وكنت أنهض فأقصد المطبخ ، أو المكتبة ، وفي اليوم التالي كنت أترك صفحة أو صفحتين بيضاوين وأقذف أشخاصي في مغامرة جديدة . « روايات » ما أغربها ، غير ناجزة أبداً ، مستعادة أبداً أو متمّمة ، تحت عناوين أخرى ، دكان من الحكايات السود والمغامرات البيض والوقائع الخيالية العجيبة والمقالات القاموسية : ولقد فقدتها ، وأقول لنفسي أحياناً إن هذا موسف : فلو كنت قد تنبّهت الى وضعها تحت القفل والمفتاح ، لكشفت لي طفولتي .

وكنت أبدأ في اكتشاف نفسي . لم أكن تقريباً شيئاً ، وجلّ ما هناك اني كنت نشاطاً بلا محتوى ، ولكن لم تكن ثمة حاجة الى اكثر من هذا . كنت أُفلت من التمثيل : لم اكن قد اشتغلت بعدُ ، ولكني كنت قد كففت عن التمثيل ، وكان الكذّاب يجد حقيقته في إتقان أكاذيبه . لقد وُلدت من الكتابة : ولم يكن ثمة قبلها الا لعبة مرايا ؛ ومنذ روايتي الأولى ، عرفت أن طفلاً كان قد دخل قصر المرايا . كنت ، كاتباً ، موجوداً ، وكنت أفلت من الأشخاص الكبار ؛ ولكني لم اكن موجوداً الا لأكتب ، واذا كنت أقول : أنا ، فان ذلك كان يعني : انا الذي أكتب . وأيّاً ما كان فقد عرفت الفرحة ؛ كان الطفل العامّ يعطي نفسه مواعيد خاصة للقاء .

وكان ذلك أجمل من أن يدوم : لو اني بقيت في السرّيّة، لظللتُ صادقاً ، ولكنهم نزعوني منها . كنت أبلغ السنّ التي اتفق الناس على أن الأطفال البورجوازيين يعطون عندها أولى علائم نزعتهم ، وكانوا قد أعلمونا منذ وقت طويل ان أبناء عمي من آل شوايتزر وغاربنيي ، سيكونون مهندسين كآبائهم : فلم يكن ثمة دقيقة واحدة للأضاعة . وقد أرادت السيدة بيكار أن تكون أول من يكتشف العلامة التي كنت أحملها على جبيني ، فقالت باقتناع :

ــ إن هذا الصغير سيكتب !

وانزعجت لويز ، فبسمت بسمتها الصغيرة الجافّة ؛ وانفتلت بلانش بيكار اليها وردّدت بقسوة :

ــ سوف يكتب ! إنه مصنوعٌ ليكتب .

وكانت أمي تعرف ان شارل لم يكن يشجعني إطلاقاً : فخافت أن تتعقّد الأمور ، وتأملتني بعين حسيرة ، ثم قالت :

ــ أتظنّين ذلك ، يا بلانش ، أتظنّين ذلك ؟

ولكنها في المساء ، حين كنت أقفز الى سريري ، وأنا في قميص النوم ، شدّت كتفيّ بقوة وقالت لي وهي تبتسم :

ــ إنّ رجُلي الصغير سيكتب !

وأُبلغ جدّي في حكمة : كانوا يخافون انفجار غضبه . ولكنه اكتفى بهزّ رأسه ، وسمعته يُسرّ للسيد سيمونو ، يوم الخميس التالي ، ان ليس ثمة شخص ، في مساء حياته ، لا يشاهد يقظة موهبة من المواهب ، من غير انفعال . واستمر يتجاهل خربشاتي ، ولكن حين كان طلاّبه الألمان يقصدون بيتنا لتناول العشاء ، كان يضع يده على رأسي ويردّد وهو يقطّع الكلمات حتى لا يفقد فرصةً في تلقينهم العبارات الفرنسية على المنهج المباشر : « إنه يملك قابلية الأدب » .

ولم يكن يعتقد كلمة مما يقول ، ولكن ماذا ؟ لقد وقع الشرّ ؛ وإن من يصدم جبيني يوشك أن يفاقم ذلك الشر : فربما أصررت في عناد . وأعلن كارل نزعتي الأدبية ليحتفظ بخطّ واحد في أن يصرفني عنها . لقد كان نقيضاً للمتمرد الوقح ، ولكنه كان يشيخ : كانت اندفاعاته الحماسية تتعبه .

وقد كنت أقرأ ، ذات يوم ، وأنا مستلقٍ بين قدميه ، وسط تلك الألوان من الصمت المتحجّر الطويل الذي كان يفرضه على الاسرة ، فخطرت له فكرة جعلته ينسى حضوري ؛ ونظر الى أمي في عتاب ، ثم قال :

ــ ولنفرض أنه كان يُدخل في رأسه فكرةَ أن يعيش من قلمه ؟

وكان جدّي يقدّر فيرلين الذي كان يحتفظ بمختارات من قصائده، ولكنه كان يظن ّ انه سبق أن رآه ، عام ١٨٩٤ ، وهو يدخل « ثملاً كالخنزير » الى خمّارة في شارع سان جاك : وكان هذا اللقاء قد دفعه الى احتقار الكتّاب المتهنين ، صُنّاع المعجزات المضحكين الذين كانوا يطلبون درهم ذهب لكي يُروا الناس القمر، وينتهون الى ان يُروهم ، بمئة درهم ، مؤخراتهم .

واتخذت أمي هيئة الذعر ، ولكنها لم تجب : كانت تعرف ان شارل كان يتوسّم لي مصيراً آخر . ففي معظم الليسيات ، كانت كراسي اللغة الألمانية يشغلها ألزاسيون سبق ان انحازوا لفرنسا ، وشاء المسؤولون ان يكافئوهم على وطنيتهم : لقد أُخذوا بين أمتين ، وبين لغتين ، وكانوا قد قاموا بدراسات غير منتظمة، وكانت في ثقافتهم فجوات ، كانوا يعانون منها ؛ وكانوا يشكون كذلك أنّ عداوة زملائهم كانت تبعدهم عن مجتمع التعليم . فاذا امتهنتُ التعليم ، فسأثأر لهم ، سأثأر لجدّي : لقد كنت ، أنا حفيد الألزاسي ، فرنسياً من فرنسا ؛ وسيعمل كارل على أن يوفّر لي معرفة شاملة ، وسأسلك الدرب الملكي : إن الألزاس الشهيرة ستدخل ، بشخصي ، « مدرسة المعلمين العليا » ، وستقدّم بنجاح كبير مسابقة الاغريغاسيون ، وستصبح ذلك الأمير : أستاذاً للأدب .

وأعلن جدّي ذات مساء انه كان يريد أن يحدثني رجلاً لرجل ، فانسحبت النساء ، وأخذني على ركبتيه ، وحدّثني بلهجة جادّة . انني سأكتب ، فتلك قضية متفق عليها ؛ ولا بدّ اني كنت أعرفه بما فيه الكفاية حتى لا أخشى أن يعاكس رغباتي . ولكن كان ينبغي النظر الى الأمور مواجهة وفي تبصرّ : إن الأدب لم يكن يوفّر الغذاء . تُرى ، أكنت أعرف أنّ كتّاباً عظاماً كانوا قد ماتوا جوعاً ؟ وأن آخرين قد باعوا أنفسهم ، حتى يأكلوا ؟ لئن كنت أريد أن احافظ على استقلالي ، فقد كان ينبغي أن أختار مهنة أخرى . وقد كان التعليم يتيح اوقات فراغ ؛ ذلك ان انشغالات الجامعيين تلتقي بانشغالات الادباء : وسيتاح لي ان أنتقل باستمرار من كهنوت الى

كهنوت ؛ وسأعيش في اتصال وثيق مع المؤلفين الكبار ؛ وفي الوقت نفسه ، سأكشف عن مؤلفاتهم لطلاّبي ، وسأستمدّ منها الهامي . وسوف أتعزّى من وحدتي الريفية بنظم القصائد ، وبترجمة هوراس بالشعر الأبيض ، وسأعطي الصحف مقالات أدبية قصيرة ، كما سأعطي « المجلة التربوية » دراسة بارعة عن تعليم اليونانية ، وأخرى عن بسيكولوجية المراهقين ؛ وسيجدون ، عند موتي ، مقالات لم تنشر في أدراجي ، منها مقالة تأملية عن البحر ، ومسرحية هزلية بفصل واحد ، وبضع صفحات غزيرة العلم والحساسية عن آثار « دورياك » ، مما يمكّن من صنع كتيّب ينشره طلاّبي القدامى .

منذ حين من الزمن ، حين كان جدّي يتحمّس منتشياً بفضائلي ، كنت أظلّ من جليد ؛ والصوت الذي كان يرتعش حباً وهو يدعوني « هبة السماء » كنت ما أزال أتظاهر بالاصغاء إليه ، ولكني كنت قد انتهيت الى عدم سماعه . فلماذا تراني قد أعرته سمعي ذلك اليوم ، إذ كان يكذب عن طوع وارادة ؟ وبأيّ سوء تفاهم حملته على أن يقول عكس ما كان يريد ان أتعلّمه ؟ ذلك انه كان قد تغيّر : لقد جفّ وقسا ، فاعتبرته صوت الغائب الذي كان قد أعطاني الحياة . لقد كان لشارل وجهان : فحين كان يمثّل دور الجدّ ، كنت أعتبره مهرّجاً من نوعي ولم أكن أحترمه . ولكنه كان اذا تحدّث مع السيد سيموتو ومع أولاده ، واذا طلب من المرأتين أن تخدماه على المائدة ، وهو يدلّ باصبعه ، من غير كلمة ، على زجاجة الزيت أو على سلّة الخبز ، فاني كنت أعجب بسلطته . وكانت حركة سبابته خصوصاً تفرض عليّ بعض هذه السلطة : فقد كان يُعنى بألاّ يبسط سبابته ، بل كان يهزّها في الهواء ، مطويّة نصف طيّة ، لكي تظل الإشارة غير دقيقة ولكي يُتاح لخادمتيه أن تحزرا أوامره ؛ وكانت جدّتي تغتاظ أحياناً ، فتخطيء وتقدّم له إناء الفاكهة المربّبة حين يقصد الى أن يشرب : فكنت أوبّخ جدّتي ، وكنت أنحني أمام هذه الرغبات

الملكية الّتي كانت تريد ان تُدرَك اكثر مما كانت تريد ان تُرضى .

ولو أنّ شارل قد صرخ يوماً ، من بعيد ، فاتحاً ذراعيه : « هوذا هوغو الجديد ، هوذا شكسبير ينبت ! » إذن لأصبحت اليوم رسّاماً صناعياً أو أستاذ أدب . ولكنه امتنع عن ذلك : وللمرة الأولى ، كنت أمام البطرك ؛ وكان يبدو شرساً ، وقد بلغ من الجلالة والاحترام مبلغاً نسي معه أن يعبدني . كان هو موسى يملي القانون الجديد . قانوني . ولم يكن قد أومأ الى نزعتي إلاّ ليسجّل سيئاتها : واستنتجت من ذلك انه كان يعتبرها مكسوبة . ولو أنّه تنبأ بأنني سأبلّل ورقتي بدموعي أو سأتقلّب على السجّادة ، لكان اعتدالي البورجوازي قد جفل . ولقد أقنعني بنزعتي بأن أفهمني أنّ ألوان ذلك الاختلال الباذخة لم تكن مرصودة لي : فان من يريد معالجة موضوع آثار « أورياك » لم يكن بحاجة الى أية حمّى ، مع الأسف ، ولا الى أي ضجيج ؛ أما تنهّدات القرن العشرين الخالدة ، فسيتكلّف آخرون بأن يرسلوها . وأزمعت ألاّ أكون أبداً عاصفة ولا صاعقة ، وان ألمع في الأدب بالمزايا الأليفة ، بلطفي واجتهادي . وبدت لي مهنة الكتابة نشاط الأشخاص الكبار ، نشاطاً جدّياً ثقيلاً جداً ، باطلاً جداً ، وخالياً جداً من أي أهمية ، حتى اني لم أشكّ لحظة في أنه مرصود لي ؛ وقلت لنفسي في وقت واحد : « ليس الا هذا » و « انني موهوب » . وكجميع « الأحلام الجوفاء » خلطت بين زوال الوهم والحقيقة .

كان كارل قد قلبني ، كما يُقلب جلد الأرنب : كنت قد ظننت أني لا أكتب إلاّ لأثبت أحلامي حين لم أكن احلم إلاّ لكي أمرّن ريشتي ؛ ولم تكن ألوان قلقي وهوسي الخيالية إلاّ حِيَلَ موهبتي ، ولم يكن لها من رسالة الا ان تردّني كل يوم الى طاولتي المدرسية وأن تمنحني موضوعات الوصف الّتي كانت تناسب عمري ، بانتظار إملاءات التجربة والنضج الكبرى . وفقدت أوهامي الخرافية . وكان جدّي يقول :

– آه ! ليس كل شيء أن تكون للمرء عينان، بل ينبغي تعلم استعمالهما . هل تعلم ما كان يفعله فلوبير حين كان موباسان صغيراً ؟ كان يُجلسه قرب شجرة ويعطيه ساعتين ليصفها .

وإذن ، فقد تعلمت أن أرى . كنت الشاعر المرصود للتغني بآثار أورياك ، فكنت أنظر في كآبة تلك الآثار الأخرى : القرطاس ، والبيانو ، والساعة الجدارية التي ستكون هي أيضاً – ولمَ لا ؟ – مخلّدة بالأعمال الاضافية المقبلة التي ستفرض عليّ ، على سبيل العقاب . وتأملت . وكانت لعبةً حزينةً مخيبة : كان ينبغي أن أنزرع أمام الأريكة المخملية وأن أتفحصها . وماذا كان يمكن أن يقال عنها ؟ إنها كانت مغطاة بقماشة خضراء مبردية ، انه كان لها ذراعان ، وأربع أرجل ، ومسندٌ تعلوه تفاحتان صغيرتان من خشب الصنوبر . كان ذلك كل شيء الآن ، ولكنني سأعود اليها ، وسأصفها وصفاً أفضل في المرة القادمة ، وسأعرفها في نهاية الأمر على طرف اصبعي ؛ وفيما بعد سأصوّرها ، وسيقول القراء : «ما أحسن ما تأملها وما رآها ، وكم أنها هي ! ها هي ذي ملامح لا تُخترع اختراعاً ! » كنت أرسم أشياء حقيقية لكلمات حقيقية ، مخطوطة بريشة حقيقية ، فكم سيكون مزعجاً ألاّ أصبح أنا نفسي حقيـــقياً ! وبالاختصار ، كنت أعرف مرة والى الأبد ما كان ينبغي ان أجيب به المراقبين حـــين يطلبون مني تذكرتي .

إن الناس يدركون لماذا كنت أقدّر سعادتي ! ولكن المزعج اني لم أكن أتمتع بها . لقد كنت صاحب حق ولقب ، وقد كانوا طيبين فأعطوني مستقبلاً ، وكنت أطلبه فاتناً ساحراً ، ولكني كنت بالخفية أزدريه . أتراني أنا الذي كنت قد طلبتها ، مهمة كاتب المحكمة تلك ؟ كانت معاشرة الرجال الكبار قد أقنعتني ان المرء لن يستطيع أن يصبح كاتباً من غير أن يصبح شهيراً ؛ ولكن حين أقارن المجد الذي كان قد وقع لي ببعض التآليف الصغيرة التي سأتركها خلفي ، كنت أحسني مخدوعاً : أكان بامكاني أن أعتقد

حقاً أن أحفادي سوف يقرأونني بعد وانهم سيتحمسون لآثار هزيلة الى هذا الحد ، ولموضوعات كانت تضجرني مسبقاً ؟ كنت أقول لنفسي أحياناً إن الذي سينقذني من النسيان انما هو « اسلوبي » ذلك الموهبة العجيبة التي كان جدّي ينكرها على ستاندال ويعترف بها لرينان ، ولكن هذه الكلمة الخالية من المعنى لم تكن تنجح في إعادة الطمأنينة لي .

وكان ينبغي خصوصاً أن أكفر بذاتي . لقد كنت ، قبل ذلك بشهرين ، مبارزاً ، عتلياً : فانتهى ذلك ! كانوا يأمرونني بأن أختار بين كورناي وباردايان . وأزحتُ باردايان الذي كنت أحبه حباً عميقاً ، واخترت كورناي بدافع مذلة . كنت قد رأيت الأبطال يركضون ويصارعون في حديقة اللكسمبورغ ؛ وقد صعقني جمالهم ، فأدركت اني كنت أنتمي الى النوع الأدنى . ووجب أن أعلن ذلك ، فأعيد السيف الى غمده ، وألحق بالقطيع العادي ، وأعقد الصداقة مجدداً مع الكتّاب الكبار ، أولئك الذين لم يكونوا يخيفونني : لقد سبق لهم أن كانوا أطفالاً كُسحاء ، وكنت أشبههم في ذلك على الأقل ؛ وكانوا قد أصبحوا راشدين ضعيفي الصحة ، وشيوخاً معرّضين للنزلات الصدرية ؛ وسوف أشبههم في ذلك ؛ وكان أحد النبلاء قد أمر بضرب فولتير ضرباً مبرّحاً ، وربما سيضربني بالسوط كابتن ، متحذلق سابق من متحذلقي الحديقة العامة .

لقد حسبتني موهوباً بدافع الاستسلام : ففي مكتب شارل شوايتزر ، وسط كتب ممزّقة ، منزوعة الغلاف ، كانت الموهبة هي أشد ما يُحتقر . وهكذا كان كثير من الضباط الشبّان ، الذين كانوا في « المعهد القديم » مرصودين منذ الولادة للكهنوت ، يعرّضون أنفسهم لعذاب جهنّم من أجل أن يقودوا فرقة . وقد كان ثمة صورة أوجزت أمام عيني ، لمدة طويلة ، ألوان البذخ المشؤومة التي تسببها الشهرة : انها صورة طاولة طويلة مغطّاة بخوان أبيض وعليها زجاجات من عصير البرتقال ومن الخمر ، وكنت ماثلاً فيها وأنا أتناول قدحاً ، يحيط بي زهاء خمسة عشر رجلاً بثيابهم

الرسمية ، وهم يشربون نخب صحتي ؛ وكنت أتبيّن خلفنا قاعة مستأجرة واسعة وخالية . فمن الواضح أني لم اكن أنتظر من الحياة بعد إلاّ أن تبتعث منَ أجلي ، العيدَ السنوي « لمعهد اللغات الحية » .

هكذا صُنع قَدَرَي ، في الرقم ١ من شارع لوغوف ، في شقة من الطابق الخامس ، تحت غوته وشيلر ، وفوق راسين وموليير ولافونتين ، وقبالة هنري هاين وفكتور هوغو ، في أثناء محادثات تكرّرت مئة مرة : كنا أنا وكارل نصطاد النساء ، وكنا نتبادل عناقاً شديداً ، وكنا نتابع من الفم للأذن حوار الصُمّ ذلك الذي كانت كل كلمة فيه تدمغني . وكان شارل يقنعني ، بملاحظات تلقى في وقتها ، بأني لم أكن أملك عبقرية . وكنت أعرف اني لا أملكها فعلاً ، وكنت لا اكترث لذلك ؛ كانت البطولة ، الغائبة ، المستحيلة ، هي موضوع هوسي الوحيد : انها شعلة الأرواح المسكينة ؛ وكان بؤسي الداخلي واحساسي بمجانيتي يمنعانني من ان اكفر بها مئة بالمئة . ولم أكن أجروءُ بعدُ على أن أغتبط مسحوراً بحركتي المقبلة ، ولكني كنت شعر في أعماقي بأني مذعور مُرهَب : فلا بدّ انهم قد خُدعوا وأخطأوا في الحكم على الطفل أو على النزعة . ولكي أطيع كارل ، قبلتُ أنا المضيّع ، المهنة الجادّة لكاتب صغير . وبالاختصار ، فقد قذفني في الأدب من جرّاء العناية التي بذلها ليصرفني عنه : حتى اني يتفق لي ، اليوم أيضاً ، ان أتساءل اذ أكون في مزاج سيء ، عما اذا لم أنفق تلك الأيام والليالي الطويلة ، ولم أُغطّ بالحبر كلّ هذه الأوراق ، ولم أُلق في السوق جميع هذه الكتب التي لم يكن يتمنّاها أحد ، بدافع وحيد هو الأمل المجنون بأن أروق لجدّي . إن ذلك سيكون طريفاً مضحكاً: انني أجدني ، اذا صح ذلك ، أبحر وقد تجاوزت الخمسين لأحقّق رغبات شيخ مسنّ قد غاب وجهه ، في عمل لن يتردّد في استنكاره وانكـــاره .

والحق اني أشبه « سوان »[1] وقد شفي من حبّه فتنهّد قائلاً : « من كان يحسب اني سأفسد حياتي من أجل امرأة لم تكن من نوعي ! » انني أحياناً فظّ بالخفاء : فهذا علمٌ لحفظ الصحة بدائي . ذلك ان الفظّ هو دائماً على حق ، ولكن الى حدّ ما . صحيح اني لست موهوباً للكتابة ؛ لقد أعلموني ذلك ، وقد عاملوني على اني طالب مجتهد اكثر مما هو ذكي : وأنا كذلك ؛ إن كتبي تنبعث منها رائحة العرق والجهد ؛ وأنا أقرّ أنها تُنتن في أنف ارستقراطيّينا ؛ ولقد كتبتها غالباً على مضض مني ، وهذا يعني على مضض من الجميع[2] ، وذلك في اجتهاد فكري انتهى بأن أصبح توتّراً في أوعيتي الدموية . ولقد خاطوا لي تعاليمي في جلدي : فاذا بقيت يوماً من غير ان أكتب ، أحرقتني النَدْبة ؛ واذا كتبت بيُسرٍ مبالغٍ فيه ، أحرقتني كذلك . وذلك التطلّب الخشن يسترعي اليوم انتباهي بتصلّبه وخَرَقه : إنه يشبه تلك السراطين العائدة الى ما قبل التاريخ والتي يلفظها البحر على شواطيء « لونغ ايسلند » ؛ فهو يعيش ، مثلها ، بعد ازمان بائدة .

لقد حسدت طويلاً بوّابي شارع « لاسيبيد » حين يدفعهم المساء والصيف للخروج الى الرصيف ، حيث يركبون كراسيهم منفرجي الساقين : لقد كانت عيونهم البريئة تراني من غير أن تكون لها مهمةُ ان تنظرني .

غير أن هناك نقطة : فباستثناء بعض الشيوخ الذين يبلّون ريشتهم في ماء الكولونيا ، وبعض الانيقين الذين يكتبون كأنهم جزّارون ، فان الاقوياء في الترجمة معدومون . وهذا راجع الى طبيعة « الكلمة » : إن المرء يتكلم بلغته الخاصة ، ويكتب بلغة أجنبية . وأستنتج من ذلك اننا جميعاً متشابهون في مهنتنا : جميعنا محكومون بالأشغال الشاقة ، وكلنا موشومون . ثم إن

(١) بطل روايات بروست — المترجم

(٢) كونوا لطافاً مع نفوسكم يحبكم اللطاف الآخرون ؛ مزقوا جاركم يضحك الجيران الآخرون . اما اذا ضربتم روحكم ، فجميع الارواح ستصرخ . — حاشية للمؤلف

القاريء قد فهم اني أحتقر طفولتي وكلّ ما ظلّ منها على قيد الحياة : ولكن صوت جدي ، هذا الصوت المسجل الذي يوقظني منتفضاً ويلقيني على طاولتي ، ما كنت لأستمع اليه لو لم يكن صوتي ، لو لم آخذ لحسابي ، بين الثامنة والعاشرة من عمري ، في التجبرّ والغطرسة ، الوكالة المزعوم انها إلزامية التي كنت قد تلقيتها في المذلة .

« اعرف جيداً انني لست
إلا آلة لصنع الكتب . »

شاتو بريان

أوشكت أن أتراجع وأعلن انسحابي . فان الموهبة التي كان كارل يعترف لي بها من طرف شفتيه ، وهو يرى من الحَرَق انكارها تماماً ، لم أكن ارى فيها ، بحقيقة الأمر ، إلا اتفاقاً غير قادر على ان يجعل اتفاقاً آخر ، هو أنا ، أمراً مشروعاً . كانت امي تملك صوتاً جميلا ، فقد كانت إذن تغني . ولم تكن تسافر أقل من ذلك ، بلا تذكرة . أما أنا ، فكنت مغرماً بالأدب ، إذن ، فقد كنت أكتب ، وسوف أستغلّ هذا الحظّ السعيد طوال عمري . حسناً . ولكن « الفنّ » كان يخسر — في نظري على الأقل — سلطاته المقدسة ، وسأبقى متشرّداً ذا ضمانة اكبر بعض الشيء ، هذا كل ما في الأمر . لقد وجب ، لكي أحسني ضرورياً ؛ أن يطالبوا بي . وكانت اسرتي قد غذّتني حيناً من الزمن بهذا الوهم . كانوا قد ردّدوا لي اني كنت هبة من « السماء » ، منتظرة جداً ، لا غنى لجدي عنها ، ولا لأمي : ولم اكن اصدق ذلك بعدُ ، ولكني كنت قد احتفظت باحساسٍ مضمونه ان المرء يولد فائضاً ، إلاّ أن يُوضَع في العالم خاصةً من أجل الاستجابة لانتظار . وقد كانت كبريائي وأعتزالي ، في تلك الفترة ، من القوة بحيث كنت أتمنى ان اكون ميتاً او مطلوباً من الأرض كلها .

وانقطعت عن الكتابة : كانت تصريحات السيدة بيكار قد أعطت أحاديث ريشتي أهمية كبيرة جداً حتى انني لم اجروْ بعدُ على مواصلتها . وحين أردت ان استأنف روايتي ، وان أُنقذ على الأقل البطل والبطلة الشابين اللذين كنت قد تركتهما بلا موْونة ولا قبعة استعمارية وسط الصحراء ،

عرفت آلام العجز . فما كدت أجلس ، حتى كان رأسي يمتلىء بالضباب ، وكنت أقرض أظافري وأنا أكشر : كنت قد فقدت البراءة . وكنت أنهض ثانية ، فأذرع الشقة بروح من يرتكب حريقة . يا للحسرة ! إنني لم أشعل فيها النار قط : كنت وديعاً بالوضع ، وبالميل ، وبالعادة ، فلم ألجأ بعد ذلك الى العصيان إلا لأني كنت قد دفعت الخضوع الى ذروته . واشتروا لي « دفتر فروض » مغطى بالقماش الأسود مع خطوط حمراء : ولم يكن ثمة اية علامة خارجية تميزه من « دفتر الروايات » الذي كنت أملكه : وما كدت أنظر اليه ، حتى ذابت فروضي المدرسية وواجباتي الشخصية . ووحدت المؤلف والتلميذ ، والتلميذ والاستاذ المقبل : كان شيئاً واحداً الكتابة وتعليم القواعد ؛ وقد سقطت من يدي ريشتي ، التي أصبحت اجتماعية ، وبقيت بضعة أشهر من غير ان التقطها من جديد . وكان جدي يضحك في عبه حين كنت أجرجر عبوسي وتقطيبي في مكتبه : لاشك في أنه كان يقول إن سياسته كانت تحمل ثمارها الاولى .

ولكنها أخفقت لأن رأسي كان ملحمياً . وفي الليل ، غالباً ما حلمت ، وقد تحطم سيفي ، وقُذفتُ في دناءة النسب ، هذا الحلم القلق : كنت في اللكسمبورغ ، قريباً من الحوض ، قبالة « مجلس الشيوخ » ؛ وكان المطلوب أن أحمي من خطر مجهول فتاةً صغيرة شقراء كانت تشبه « فيفي » التي كانت قد ماتت لعام خلا . وكانت الصغيرة ، هادئة واثقة ، ترفع نحوي عينيها الرصينتين ؛ وكانت تحمل غالباً دولاباً . وأنا الذي كنت خائفاً : كنت أخشى ان أتركها لقوى غير مرئية . ومع ذلك ، فكم كنت أحبها ، وأيّ حبّ أسيف ! وما زلت أحبها ؛ ولقد بحثت عنها ، وأضعتها وعثرت عليها ثانية ، وأمسكتها بين ذراعي ، وأضعتها مرة اخرى : إنها « الملحمة » . حين بلغت الثامنة ، أخذتني انتفاضة عنيفة ، يوم استسلمت : ولكي أُنقذ تلك الصغيرة الميتة ، ارتميت في عملية سهلة بلهاء حرفتْ مجرى حياتي : لقد نقلت للكاتب سلطات البطل المقدّسة .

كان ثمة في البدء اكتشاف ، او بالاحرى تذكُّر — ذلك اني كنت

قد استشعرته لعامين سبقا : إن المؤلفين الكبار يمتّون بالنسب الى الفرسان التائهين في أن الفريقين يبتعثون علائم عرفان مهووسة . ولم تكن التجربة مطلوبة بعدُ ، بالنسبة لبارديان : ذلك أن دموع العرفان التي ذرفتها اليتيمات كانت قد شققت ظاهر يده . ولكن الكاتب لم يكن أقلّ من ذلك حظوة ، اذا شئنا ان نصدّق « لاروس » الكبير والملاحظات المختصة بتراجم الموتى التي كنت أقرأها في الصحف : فمهما عاش ، كان يتلقى دائماً رسالة من مجهول كان « يشكره » : وابتداء من تلك الدقيقة ، لم تكن آيات الشكر لتنقطع ، وكانت تتراكم على مكتبه ، وتملأ شقته ؛ وكان أجانبُ يعبرون البحار ليحيّوه ؛ وكان مواطنوه ، بعد موته ، يسهمون في جمع المال ليقيموا له تمثالاً ؛ وفي مسقط رأسه ، واحياناً في عاصمة بلاده ، كانت بعض الشوارع تحمل اسمه . ولم تكن هذه التهاني بذاتها تهمني ؛ ذلك أنها كانت تذكرني تذكيراً مفرطاً بالمسرحية العائلية . ومع ذلك ، فقد أثارتني صورة : صورة الروائي الشهير ديكنز وهو على وشك النزول في نيويورك ؛ فمن البعيد ترى الباخرة التي تحمله ؛ وقد تجمّع الجمهور على الرصيف لاستقباله ، وكانوا يغفرون أفواههم جميعاً ويشهرون الف قبعة ، وكانوا من الكثافة بحيث ان الأطفال يختنقون ؛ ولكن هذا الجمع كان مع ذلك متوحداً ، يتيماً ، وأرمل ، وخالياً بسبب غيبة الرجل الذي ينتظره . وتمتمت : « إن هنا من هو ناقص : ديكنز ! » وطفرت الدموع في عينيّ . غير أني أزحت هذه التأثيرات ، ومضيت تواً الى أسبابها : قلت لنفسي إن رجال الأدب ، لكي يُهتف لهم هذا الهتاف المجنون ، لابدّ أنهم يواجهون أسوأ الأخطار ويقدمون للبشرية أعظم الخدمات . وكنت قد شاهدت مرة واحدة في حياتي مثل هذا التدفق الحماسي : كانت القبعات تتطاير ، وكان الرجال والنساء يصرخون : برافو ، هورّا ؛ كان ذلك يوم ١٤ تموز ، وكان رجال المدفعية الجزائريون يمرّون في العرض . وانتهت هذه الذكرى الى اقناعي : بأن زملائي ، بالرغم من عاهاتهم الجسدية ، وبالرغم من تكلفهم ، وبالرغم من انوثتهم الظاهرة ،

كانوا أنواعاً من الجنود ، وكانوا يجازفون بحياتهم كطلائع في معارك خفية ، فكان الناس يصفقون لشجاعتهم العسكرية ، اكثر مما يصفقون لمواهبهم . وقلت لنفسي : إن هذا صحيح إذن ! إن الناس بحاجة اليهم ! فهم ينتظرونهم في باريس ، وفي نيويورك ، وفي موسكو ، قلقين او منتشين ، قبل ان يكونوا قد نشروا كتابهم الاول ، قبل ان يكونوا قد بدأوا الكتابة ، بل حتى قبل ان يولدوا .

ولكن .. ما شأني أنا ؟ أنا الذي كانت مهمتي أن أكتب ؟ ألحق أنهم كانوا ينتظرونني . وحوّلت كورناي الى باردايان : وقد حافظ على ساقيه المشوّهتين وصدره الضيق وسحنته الشاحبة ، ولكني نزعت منه بخله وشهوته للربح ؛ لقد خلطت عن طوع وإرادة فنّ الكتابة وكرم النفس. وبعد ذلك، كان لعبةً أن أتحول الى « كورناي » ما ، وان أمنح نفسي هذه الوكالة : حماية النوع .

كانت خديعتي الجديدة تهيىء لي مستقبلاً عجيباً ؛ وكنت في تلك اللحظة أربح فيه كل شيء . لقد وُلدت ولادة سيئة ، وتحدثت عن جهودي لأولد من جديد : كانت ابتهالات البراءة المعرّضة للخطر قد أثارتني الف مرة . ولكن كان ذلك على سبيل المزاح : كنت فارساً زائفاً ، فكنت أقوم ببراعات زائفة كانت ميوعتها قد انتهت الى تنفيري . وها أن أحلامي تُردّ إليّ ، وها هي تتحقق . ذلك ان نزعتي كانت واقعية حقيقية ، ولم يكن بوسعي أن أشكّ فيها ، ما دام الكاهن الأكبر كان ضامناً لها . كنت طفلاً خيالياً ، فكنت أصبح فارساً تائهاً ستكون انتصاراته كتباً حقيقية . كنت ضرورياً ! كان الناس ينتظرون إنتاجي الذي لن يظهر الجزء الاول منه ، بالرغم من حماستي ، قبل عام ١٩٣٥ . وحوالي ١٩٣٠ ، سيبدأ الناس بفقدان صبرهم ، وسيقولون فيما بينهم : « إن صاحبنا يتباطأ ! ها قد انقضى خمسة وعشرون عاماً ونحن نغذّيه فلا يفعل شيئاً ! أترانا سنموت قبل ان يتاح لنا أن نقرأه ؟ »

وكنت أجيبهم بصوتي ، صوت عام ١٩١٣ : « هيه ! دعوا لي الوقت لكي أعمل ! » ولكني بلطف : كنت أرى جيداً انهم كانوا بحاجة – والله وحده يعلم لماذا – الى معونتي ،وأن تلك الحاجة كانت قد أنجبتني ، أنا ، الوسيلة الوحيدة لأستجيب لها . وكنت أجتهد في أن أفاجيء ، داخل ذاتي ، ذلك الانتظار العالمي ، ينبوعي الحيّ وسبب وجودي ؛ وكنت أحسبني أحياناً على وشك ان أنجح في ذلك ، ثم بعد لحظة ، أدع كل شيء يمضي . ما يهمّ : كانت تلك الإشراقات الزائفة تكفيني . كنت أستعيد اطمئناني ، فأنظر الى الخارج : لعلني أصبحت ناقصاً في بعض الأمكنة . ولكن لا : كان هذا ابكر مما ينبغي !

كنت أقبل بفرح ، وأنا موضوع جميل لرغبة كانت ما تزال تجهل نفسها ، ان أحتفظ فترة من الزمن بالتنكر ؛ وكانت جدتي تصحبني أحياناً الى المكتب الذي كانت تقرأ فيه ، فكنت أشاهد في متعة سيدات طويلات متفكرات ، غير راضيات ، ينزلقن من جدار لآخر بحثاً عن المؤلف الذي سيشبعهنّ : وكان هــذا المؤلف يظل غير موجود ، لأنه كان إياي ، هذا الطفل المختبيء في تنانيرهن ، والذي لم يكن حتى لينظرن اليه .

كنت أضحك خبثاً ، وأبكي حناناً : كنت قد أنفقت حياتي القصيرة وأنا أخترع لنفسي ميولاً واتجاهات كانت سرعان ما تذوب . وهاهم اولاء قد سبروني ، وها هو السبرْ يلتقي بالصخرة ؛ لقد كنت كاتباً على غرار ما كان شارل شوايتزر جداً : بالولادة ، والى الأبد . على انه كان يحدث أن ينفذ قلقٌ من تحت الحماسة : لقد كنت أرفض أن أرى في الموهبة التي ضمنها كارل شيئاً عـرَضياً ، وكنت قد تدبرت الأمر لأجعل منها وكالة ، ولكن لانعدام التشجيع ولانعدام مصادرة حقيقية ، لم أكن أستطيع ان أنسى انني كنت أمنحها أنا نفسي لنفسي .

لقد انبثقت من عالم قديم جداً ، يرجع الى ما قبل الطوفان ، في اللحظة

التي كنت أفلت فيها من « الطبيعة » ، لأصبح أخيراً أنا ، هذا « الآخر » الذي كنت أدعي اني إياه في عيون الآخرين ، فكنت أنظر مواجهة الى « قدري » ، وكنت أتعرّفه : إنه لم يكن الا حريتي ، المنتصبة أمامي بسبب جهودي كسلطة أجنبية . وبالاختصار ، لم أكن أنجح في أن أتخذ لي عشاً تماماً . كما لم أكن أنجح في أن انزع نفسي من اوهامي تماماً . كنت أتذبذب . وقد بعثت ترددداتي مشكلة قديمة : كيف السبيل الى أن أقرن يقين ميشال ستروغوف بكرم نفس باردايان ؟ انني لم أكن قد أخذت قط ، وأنا فارس ، أوامر الملك ؛ أفكان ينبغي ان أقبل ان اكون مؤلفاً بالأمر والقسر ؟

ولم يستمرّ الاستياء طويلاً : لقد كنت طريدة نزعتين صوفيتين متعارضتين ، ولكني كنت مقتنعاً جداً بتعارضهما . بل لقد كان يناسبني أن أكون في وقت واحد « هدية من السماء » وابناً لانتاجي . كان كلّ شيء ، في أيام المزاج الصافي ، يصدر عني ، لقد انتزعت نفسي من العدم بقواي الخاصة لأحمل للبشر القراء الذين كانوا يتمنونهم : سوف أطيع ، أنا الولد الخاضع ، حتى الموت ، ولكن سوف أطيع نفسي . أما في الساعات الحزينة ، حين كنت أشعر بتفاهة تهيؤي المنفرة ، فاني لم أكن أستطيع تهدئة نفسي إلا بأن أقتسر الاستعداد اقتساراً : فكنت أستدعي النوع البشري وأنقل اليه مسؤولية حياتي ؛ انني لم أكن إلا نتاج تطلّب جماعي . ومعظم الوقت راعيت طمأنينة قلبي بالحرص على ألاّ أستبعد تماماً الحرية التي تحمّس ، ولا الضرورة التي تبرّر .

كان بوسع باردايان وستروغوف ان يتفقا : وانما كان الخطر في مكان آخر ، وقد جعلوني شاهداً على مقابلة كريهة أجبرتني فيما بعد على اتخاذ الحيطة . والمسؤول الاول هو زيفاكو الذي لم أكن أحذره ؛ أتراه يريد أن يضايقني أم أن ينذرني ؟ الذي حدث هو أن هذا المؤلف لفت انتباهي ذات يوم ، في مدريد ، إذ لم أكن انظر إلاّ الى باردايان الذي كان يرتاح ، في نزل ، ويتناول قدحاً من الخمر يستحقه ، المسكين ، — إن هذا المؤلف

لفت انتباهي الى رجل يشرب ، لم يكن غير سرفانتس . وتعارف الرجلان وأظهرا احتراماً متبادلاً وراحا يحاولان معاً عملاً مشتركاً فاضلاً . والأسوأ من ذلك ، أن سرفانتس يصارح صديقه الجديد ، وهو في غاية السعادة ، أنه يريد ان يكتب كتاباً : وحتى ذلك الحين ، كان بطله الرئيسي ما يزال غامضاً ، ولكن شكراً لله ، كان باردايان قد ظهر ، وسيتخذ منه نفسه نموذجاً .

وتملكني الغيظ ، فأوشكت أن أقذف بالكتاب : أيّ نقص في الذوق والحس ! لقد كنت كاتباً — فارساً ، وكنت أُقطع الى نصفين ، وكان كل نصف يصبح رجلاً كاملاً ، فيلتقي الآخر ويُنكره . لم يكن باردايان أبله ، ولكن ما كان له قط ان يكتب « دون كيشوت » ؛ وكان سرفانتس يقاتل جيداً ، ولكن ما كان ينبغي الظن أن باستطاعته ان يهزم وحده عشرين جندياً مرتزقاً . لقد كانت صداقتهما نفسها ترسم حدودهما . كان الاول يفكر : « إنه ضعيف الصحة ، هذا المدّعي الغليظ ، ولكنه لا تنقصه الشجاعة . » وكان الثاني يفكر : « عجباً ! إن هذا الرجل لا يفكر تفكيراً سيئاً اكثر مما ينبغي ، بالرغم من أنه جندي ! » ثم اني لم اكن أحبّ على الاطلاق أن يُستخدم بطلي نموذجاً لفارس « الوجه الحزين » .

كان قد أُهدي إليّ في عهد « السينما » دون كيشوت منقى من الفساد ، فلم أقرأ منه اكثر من خمسين صفحة : لقد كانوا يهزّئون علناً مآثري ! وها هو زيفاكو نفسه .. فبمن أثق ؟ الحقيقة أني كنت انساناً فاسقاً ، أشبه بفتاة تتبع الجنود : كان قلبي ، قلبي الجبان ، يؤثر المغامر على المفكر ؛ كنت أستشعر الخجل ألاّ أكون إلاّ سرفانتس . ولكي أمنع نفسي من الخيانة ، جعلت الإرهاب يتسلط في رأسي وفي مفرداتي ، ورحت أطارد كلمة البطولة ولواحقها ، وأكبت الفرسان الضالين ، وأحدّث نفسي بلا انقطاع عن الادباء ، وعن الأخطار التي كانوا يتعرضون لها ، وعن ريشتهم الحـادة التي كانت تسفد الأشرار . وتابعت قراءة باردايان وفوستا ،

والبؤساء ، وخرافة القرون ، وبكيت على جان فالجان ، وعلى افيرادنوس ، ولكني ما أكاد أغلق الكتاب ، حتى كنت أمحو أسماءهم من ذاكرتي ، وأستدعي فرقتي الخاصة . سيلفيو بيلكو : مسجون مدى الحياة . اندريه شينييه : حكم اعداماً بالمقصلة . اتيان دوليه : أحرق حياً . بيرون : مات من أجل اليونان . كنت أجهد في هوس بارد بأن أشوّه نزعتي وأنا أصبّ فيها أحلامي القديمة ، ولم يجعلني شيء أتقهقر : فلويت الافكار ، وزيفت معنى الكلمات ، وانسحبت من العالم خشية اللقاءات السيئة والتشبيهات . وتبع عطلةَ روحي استنفارٌ كامل ودائم : وأصبحت دكتاتورية عسكرية .

غير أن الاستياء بقي تحت شكل آخر : كنت أشحذ موهبتي ، لا أكثر . ولكن لِمَ عساها كانت تجدي ؟ كان الناس بحاجة إليّ : من أجل ماذا ؟ كان من مصيبتي أن أتساءل عن دوري وعن مقصدي . وسألت : « ولكن ما هي القضية ؟ » وآنذاك ، حسبت كل شيء قد ضاع . لم تكن القضية قضية شيء . فليس بطلاً من يشاء ، ولا الشجاعة ولا الموهبة بكافيتين ، يجب أن يكون ثمة هدريات وتنانين . وأنا لم أكن ارى منها شيئاً في أيّ مكان .

كان فولتير وروسو قد قاتلا قتالاً شديداً في زمنهما : ذلك انه كان ما يزال هناك طغاة . وكان هوغو ودوغرنيساي قد صعقا بادنغيه الذي كان جدّي قد علمني احتقاره . ولكني لم أكن أجد مزيةً أن أعلن حقدي ما دام هذا الأمبراطور كان قد مات منذ أربعين عاماً . أما التاريخ المعاصر ، فكان شارل يظلّ صامتاً عنه : إن مناصر دريفوس هذا لم يحدثني قط عن دريفوس . يا للخسارة ! بأي حماسة كنت سأمثل دور زولا : انني أصفع لدى خروجي من « المحكمة » فأنفتلُ على موطيء عربتي ، وأحطم جوانب أشدّهم اهتياجاً — لا ، لا ، بل أنا أجد كلمة مريعة تجعلهم يتراجعون . وبالطبع ، أرفض ، أنا ، أن أهرب الى انكلترا ، وأية لذة ، بعد ان أُترك وأُعزل ، في أن أصبح من جديد غريزاليديس ، وأن أصفق بلاط باريس

من غير ان أشكّ دقيقة واحدة ان « البانتيون »[1] ينتظرني .

كانت جدتي تتلقى « لوماتان » كل يوم ، وكذلك « لاكسلسيور » اذا لم اكن مخطئاً : وتعلمت وجود السوقة الذين احتقرتهم كما يحتقرهم جميع الشرفاء . ولكن أولئك النمور ذوي السحنة البشرية لم يكونوا يناسبونني : كان السيد ليبين الشجاع يكفي وحده لترويضهم . وكان العمال أحيانا يغضبون ، وسرعان ما كانت رؤوس الأموال تتبخر ، ولكني لم أعرف شيئاً من ذلك ، وما زلت أجهل ما كان رأي جدّي في ذلك . كان يملأ بدقة واجباته الانتخابية ، وكان يخرج من الغرفة السرية وقد استعاد شبابه ، وبدا راضياً عن نفسه ؛ وحين كانت نساؤنا تناكدنه : « قل لنا ، لمن صوّتّ ! » كان يجيب بجفاء : « إن هذه قضية رجال ! » ومع ذلك ، فحين انتُخب رئيس الجمهورية الجديد ، أسمعنا في لحظة استسلام أنه كان يرثي لترشيح بامس ، وصاح في غضب : « إنه بائع سجاير ! » وكان هذا البورجوازي الصغير المثقف يريد أن يكون أكبر موظف في فرنسا واحداً من أنداده ، بورجوازياً صغيراً مثقفاً : بوانكاريه . وتؤكد لي امي اليوم انه كان يصوّت راديكالياً ، وانها كانت تعرف ذلك كل المعرفة . ذلك لا يدهشني : كان قد اختار حزب الموظفين ، ثم إن الراديكاليين كانوا يعيشون بعد موتهم : وكان شارل يملك رضى التصويت لحزب النظام فيما هو يعطي صوته لحزب الحركة . وبالاختصار ، فان السياسة الفرنسية ، اذا شئنا أن نصدّقه ، لم تكن سيئة على الاطلاق .

وكان ذلك يحزنني : كنت قد تسلحت لأحمي البشرية من الأخطار الفظيعة ، وكان الجميع يؤكدون لي أنها كانت تسير بهدوء على درب الاكتمال . وكان جدّي قد رباني في احترام الديمقراطية البو رجوازية ؛ ولكنت من

(١) مقبرة العظماء الفرنسيين — المترجم

أجلها أشهر قلمي طوعاً ؛ ولكن الفلاّح كان يقترع ، في عهد رئاسة فاليير [1] : فماذا يُطلب اكثر من هذا ؟ وما الذي يفعله الجمهوري اذا اوتي سعادة أن يعيش في الجمهورية ؟ إنه يدير إبهاميه واحداً حول الآخر ، أو هو يعلّم اللاتينية أو يصف آثار دورياك في لحظات فراغه . وهكذا كنت قد عدت الى نقطة انطلاقي ، وحسبتني مرة أخرى أختنق في هذا العالم الذي لا نزاع فيه ، والذي كان يدفع الكاتب الى البطالة .

وكان شارل هو الذي أنقذني مرة أخرى . على غير معرفة منه ، طبعاً . فانه كان قبل عامين ، لكي يجعلني أستيقظ على النزعة الانسانية ، قد عرض لي أفكاراً لم يكن ينبس عنها كلمة بعدُ ، خشية أن يشجع جنوني ، ولكنها كانت قد انحفرت في ذهني . وقد استعادت ، بلا ضجة ، حيويتها وصخبها ، ولكي تنقذ الشيء الأساسي ، حوّلت الكاتب — الفارس رويداً رويداً الى كاتب — شهيد ، وقد ذكرت كيف أنّ هذا الراعي المخفق ، الأمين على ارادة أبيه ، كان قد احتفظ بما هو إلهي ليصبه في الثقافة . ومن هذا المزيج وُلد الروح القدس ، خاصةُ « الجوهر » اللامتناهي ، سيد الآداب والفنون ، واللغات الميتة أو الحية والمنهج المباشر ، واليمامة البيضاء التي كانت تملأ اسرة شوايتزر بتجلّياتها ، وتحلّق يوم الأحد فوق الأراغن والجوقات ، وتحطّ في أيام العمل على رأس جدّي . وقد ألفت أحاديث كارل القديمة ، إذ تجمعت، خطاباً في رأسي : كان العالم فريسة « الشر » ؛ وكان ثمة خلاص واحد : أن يموت الانسان لنفسه ، للأرض ، وأن يتأمل من أعماق عملية غرق، الأفكارَ المستحيلة . ولما لم يكن المرء يبلغ ذلك من غير مراس شاق وخطر ، فانه كان قد عهد في المهمة الى هيئة من الاخصائيين . وكانت طبقة الاكليركيين تتعهد البشرية وتنقذها بقابلية عودة المزايا الى أصحابها : كان وحوش السلطة العالمية ، كباراً وصغاراً ، يملكون الوقت

---

(١) ارمان فاليير : كان رئيساً لمجلس الشيوخ عام ١٨٩٩ ورئيساً للجمهورية بين ١٩٠٦ و ١٩١٣ . — المترجم

كله لأن يتقاتلوا أو ان ينفقوا في الحَبَل حياةً لا حقيقة فيها ، ما دام الكتاب والفنانون كانوا يتأملون بدلاً منهم « الجمال » و « الخير » . لم تكن ثمة حاجة الى اكثر من شرطين لانتزاع النوع كله من الحيوانية : ان يُحتفَظ في أمكنة مراقَبة ببقايا الاكليركيين الأموات ، من مثل اللوحات والكتب والتماثيل ؛ وأن يبقى على الأقل اكليركي واحد حياً ليُتمّ العمل ويفبرك البقايا القادمة .

ترّهات قذرة : التهمتها من غير ان أفهمها كثيراً . وكنت ما أزال اؤمن بها وأنا في العشرين . وبسببها اعتبرت الأثر الفني وقتاً طويلاً حادثاً ميتافيزيقياً كانت ولادته تهمّ العالم . ونبشت هذا الدين المتوحش واتخذته ديني لكي أذهّب نزعتي الشاحبة : وابتلعت أحقاداً وحموضات لم تكن تخصني إطلاقاً ، كما لم تكن تخصّ جدّي ، وقد سممتني أنواع قديمة من صفراء فلوبير وغونكور وغوتييه ؛ وأعدائي ، بادّعاءات جديدة ، حقدُهم المجرّد على الانسان ، بعد ان دخل فيّ تحت قناع الحبّ .

وخلطت الأدب بالصلاة ، وجعلت منهما تضحية انسانية . وقررت أن اخوتي كانوا يطلبون مني بكل بساطة ان اكرّس قلمي لافتدائهم : كانوا يعانون عدم كفاية وجودية من شأنها ، لولا تدخل القدّيسين ، ان ترصدهم بلا هوادة الى التلاشي ؛ فلئن كنت أفتح عينيّ كل صباح ، ولئن كنت ارى ، وانا أهرع الى النافذة ، سادةً وسيدات ما يزالون أحياء يمرّون في الشارع ، فلأنّ عاملاً في غرفة كان قد كافح ، من الغروب حتى الفجر ، ليكتب صفحة خالدة كنا نستحقّ بها هذا اليوم من وقف التنفيذ . إنه سيعيد الكرّة عند هبوط الليل ، هذا المساء ، وغداً ، حتى يموت بلىً وفناء ؛ وسوف أحمل الشعلة عنه : فأنا أيضاً ، سأمسك النوع البشري عند حافة الهاوية بعطيتي الصوفية ، بنتاجي : وهكذا كان العسكري يتخلّى برفق عن مكانه

(١) درامة موسيقية لواغنر تنزع فيها فكرة الفداء نحو تعبير صوفي . — المترجم

للكاهن، وكنت أنا شبيهاً ببارسيفال[1] مأساوي، أهب نفسي ضحيةً للتفكير.

ومنذ اليوم الذي اكتشفتُ فيه شانتوكلير ۱ ، وُلدت عقدة في قلبي ، عقدةُ أفاعٍ تطلبت ثلاثين عاماً لكي تنحلّ : إن هذا الديك الممزّق ، الدامي ، المضروب ، يجد الوسيلة ليحمي قناً بأكمله ؛ كان غناؤه كافياً لهزم باز ، فاذا الجمعُ الكاره يبخره بعد أن كان قد هزيء به ؛ وإذ يختفي البازي ، يعود الشاعر الى المعركة ، فيُلهمه «الجمال» ويضاعف قواه أضعافاً ، فاذا هو ينقضّ على خصمه ويصعقه .

وبكيت : إن غريزاليديس وكورناي وباردايان ، انما كنت أجدهم جميعاً مرة أخرى في واحد : وسيكون شانتوكلير أنا . وقد بدا لي كل شيء بسيطاً : إن من يكتب يضيف جوهرة الى تاج الإلاهات الوحي والشعر ، ويترك للأجيال القادمة ذكرى حياة نموذجية ، ويحمي الشعب من نفسه ومن أعدائه ، ويستمطر على البشر ، في قدّاس احتفاليّ ، نعمة السماء . ولم تخطر لي فكرةُ أن المرء يمكن أن يكتب ليُقرأ .

إن المرء يكتب من أجل جيرانه أو من أجل الله . وقد صممت ان أكتب من أجل الله بسبيل انقاذ جيراني . كنت أريد مدينين ، لا قرّاء . وكان الاحتقار يفسد كرم نفسي . وكنت قد بدأت أتخلص من كرمي ، منذ كنت أحمي اليتامى اذ أراهم يختبئون . وحين أصبحت كاتباً ، لم تتغير طريقتي : فقبل ان أنقذ البشرية ، سأبدأ بعصب عينيها ؛ واذ ذاك فقط ، سأرتدّ على الجنود المرتزقة السود النشيطين ، على الكلمات ؛ وحين ستجرؤ يتيمتي الجديدة على حلّ عصابتها ، سأكون بعيداً ؛ وهي بعد أن تكون قد أُنقذتْ بمأثرة متوحدة ، لن تلاحظ باديء الأمر الكتاب الصغير الجديد الذي سيحمل اسمي ، مشعاً على أحد رفوف المكتبة الوطنية .

انني أرافع مطالباً بالظروف التخفيفية . وهناك ثلاثة ظروف :

---

(۱) اسم ديك في مسرحية شعرية لادمون روستان (۱۹۱۰) أشخاصها حيوانات ترمز الى مثالب الانسان وعواطفه . — المترجم

فعَبْر صورة صافية من حُلُم ، كان هو حقي في الحياة الذي كنت أطرحه باديء ذيبدء . إن ذلك الطفل المكتظّ بالسعادة ، والذي يكان يعاني السأم على مجثمه ، كان يمكنَ تعرّفه في تلك الانسانية التي لا تملك تأشيرة ، والتي تنتظر رغبة « الفنان » وهواه ؛ ولقد قبلت الخرافة الكريهة ، خرافة « القدّيس » الذي ينقذ الشعب المنحطّ ، لأن الشعب المنحطّ كان في نهاية المطاف أنا : انني أعلن نفسي منقذاً رسمياً للجماهير لأحقق خلاصي بالذات ، على مهل ، وكما يقول اليسوعيون ، بالاضافة الى ذلك .

ثم اني كنت في التاسعة من عمري ؛ ولم أكن أتصوّر ، أنا الابن الوحيد الذي لا رفيق له ، أنّ عزلي يمكن أن ينتهي . ويجب الاعتراف بأني كنت مؤلفاً مجهولاً جداً . وكنت قد استأنفت الكتابة . وكانت رواياتي الجديدة ، لعدم استطاعتي تحسينها ، تشبه القديمة ملمحاً ملمحاً ، ولكن لم يكن ثمة من كان يأخذ علماً بها . حتى ولا أنا ، الذي كنت أحتقر أن أقرأني مرة ثانية : كانت ريشتي تمضي سريعاً جداً حتى اني غالباً ما كنت أشعر الوجع في معصمي ؛ وكنت ألقي على الأرض الخشبية الدفاتر الممتلئة ، وينتهي بي الأمر الى نسيانها ، فكانت تختفي ؛ ولهذا السبب ، لم أكن أنجز شيئاً : فما جدوى سرد نهاية قصة حين تكون بدايتها قد ضاعت ؟ والحق أن كارل لو تنازل فألقى نظرة على تلك الصفحات لما كان قارئاً في نظري ، بل لكان قاضياً أعظم ، ولكنت أخشى ان يدينني . لم تكن الكتابة ، عملي الأسود ، تُردّ الى أيّ مرجع ، وكانت بذلك تأخذ نفسها كغاية : انني أكتب لأكتب . وأنا غير آسف على ذلك : فلو أني كنت مقروءاً ، لكنت حاولت ان أروق ، وكنت أصبح من جديد رائعاً . أما حين كنت أكتب بالخفاء ، فقد كنت حقيقياً .

واخيراً ، فان مثالية الاكليركي كانت تقوم على واقعية الطفل . وقد ذكرت ذلك من قبل : فلأنني اكتشفت العالم عبْر الكلام ، اعتبرت الكلام هو العالم وقتاً طويلاً . إنّ الذي يوجد ، يمتلك تسميةً مراقَبة ، في جهة

ما على « ألواح الكلمة » اللامتناهية ؛ وإن الذي يكتب ، يحفر عليها كائنات جديدة ، او يأخذ الأشياء ، حية في شَرَك العبارات – وكان ذلك هو وهمي الأعند – : فاذا كنت أمزج الكلمات ببراعة ، فإن الشيء كان يتشوّش ويتلبك في العلامات ، فكنت أمسكه . كنت أبدأ ، في حديقة اللكسمبورغ ، أنسحر بطيف لامع من شجر الدلب : لم أكن أراقبه ، بل كنت على العكس أضع ثقتي في الفراغ ، وكنت أنتظر ، وبعد بُرهة ، كانت أوراقه الحقيقية تنبثق تحت مظهر نعتٍ بسيط ، أو احياناً ، تحت مظهر جملة برّمتها : كنت قد أثريت الكون بخضّرة راعشة .

ولم أضع قط مكتشفاتي على الورق : وفكرت بأنها كانت تتراكم في ذاكرتي . وكنت في الواقع أنساها ؛ ولكنها كانت تجعلني أستشعر دوري المقبل : سوف أفرض الكلمات . فمنذ بضعة قرون ، كانت عدة مواعين من الورق الأبيض في أورياك تطالب بخطوط دائرية ثابتة ، بمعنى ؛ لسوف أجعل منها آثاراً حقيقية . انني انا الإرهابي لم أكن أقصد إلاّ كينونتها : وسوف أكوّنها بالكلام ؛ وكنت أنا العالم بالبيان لا أحبّ الا الكلمات ، فسوف أنصب كاتدرائيات الكلام تحت العين الزرقاء لكلمة سماء . سأبني لألوف السنين .

حين كنت أتناول كتاباً ، كنت أفتحه وأغلقه عشرين مرة ، فكنت ارى انه لم يكن ليعتكر قط . لم يكن نظري ، اذ ينزلق على ذلك الجوهر الذي لا يُفسد النص ، إلاّ عَرَضاً سطحياً ضئيلاً ، لم يكن يُزعج شيئاً ، ولم يكن يُتلف شيئاً . أما انا الجامد العابر ، فقد كنت على العكس ، بعوضة مبهورة ، تخترقها نيران منارة ؛ وكنت أغادر المكتب ، وأطفيء النور : وكان الكتاب ، غير المرئي في الظلمات ، يظلّ على إشعاعه ؛ من أجله وحده . انني سوف أمنح مؤلفاتي عُنف هذه الدفقات الضوئية القارضة ، وهي فيما بعد ، ستعيش بعد الانسان ، في المكتبات الخربة .

والتذذت بظلامي ، وتمنيت أن أطيله ، وان أجعل منه مزية لي .

وحسدت المعتقلين الخالدين الذين كتبوا في الزنزانات على ورق مشمع. كانوا قد حفظوا واجب اقتداء معاصريهم وفقدوا واجب معاشرتهم. وكان تقدم الأخلاق يقلل طبعاً حظوظي في أن أستمد موهبتي من انفراد السجن ، ولكنني لم أكن أيأس من ذلك تماماً : إن « العناية الإلهية » ستنتبه لتواضع مطامحي ، فتهتم بتحقيقها . وبالانتظار ، كنت أسجن نفسي استعجالاً .

وكانت أمي قد تعلمت المواربة من جدي ، فلم تكن تضيع مناسبة من غير أن تصور فرحاتي المقبلة : كانت تضع في حياتي ، لكي تفتنني ، كل ما كان ينقص حياتها : الهدوء والفراغ والانسجام ؛ فحين أصبح استاذاً شاباً ، لم يتزوج بعد ، ستوجرني سيدة جميلة مسنة غرفة مريحة تنبعث منها رائحة الخزامى والأغطية النظيفة ، وسأقصد الليسيه بقفزة واحدة ، وكذلك أعود منها ؛ وعند المساء ، سأتأخر قليلاً عند عتبة بابي لأثرثر مع موجرتي التي ستجن بي ؛ وسيحبني الجميع ، لأنني سأكون في الحقيقة مجاملاً ورفيع التهذيب . ولم أكن أسمع إلا كلمة : غرفتك ؛ وكنت أنسى الليسيه ، وأرملة الضابط الرفيع ، ورائحة الريف ، ولم أكن ارى بعد الا دائرة من النور على طاولتي : كنت وسط غرفة غارقة في الظلام ، والستائر مسدلة ، وكنت أنحني فوق دفتر من القماش الأسود . وكانت امي تتم قصتها ، فتقفز عشر سنوات : إن هناك مفتشاً عاماً كان يحميني ، وكان مجتمع اورياك الطيب يريد أن يستقبلني جيداً ، وكانت زوجتي الشابة تحمل لي أرق الحب ، وكنت أولدها اطفالاً جميلين ذوي صحة جيدة ، ذكرين وانثى ، وكانت ترث فأشتري قطعة أرض على حافة المدينة ، نبني عليها بيتنا ، وكانت الأسرة كلها ، أيام الأحد ، تقصده لتراقب الأعمـــال .

لم أكن أسمع شيئاً : فانني طوال تلك السنوات العشر ، لم أغادر طاولتي : كنت قصيراً ، ذا شارب شبيه بشارب أبي ، جاثماً على نضد من المعاجم ، وكان شاربي يبيض ، وكانت يدي ما تزال تركض ، وكانت

الدفاتر تتساقط على الارض الخشبية ، واحداً اثر واحد . وكانت البشرية نائمة ، فالوقت ليل ، وكانت زوجتي واولادي نائمين ، الا ان يكونوا قد ماتوا ، وكانت موجرّتي نائمة ؛ وكان النوم ، في جميع الذاكرات ، قد هدمني . أية وحدة : إن هناك ملياري إنسان بحذاء الشاطيء ، وأنا المراقب الوحيد ، فوقهم .

كان « الروح القدس » ينظر إليّ . وكان قد قرر لساعته ان يتخذ قرار العودة الى السماء وترك البشر ؛ ولم يكن امامي الا أن أقدم نفسي ، فكنت أريه جروح روحي ، والدموع التي كانت تبلل أوراقي ، فكان يقرأ من فوق كتفي ، فيزول غضبه . أكان الذي هدّأه عمق آلامي ام روعة النتاج ؟ كنت اقول : النتاج ، وكنت أفكرّ خفية : الآلام . ومفهوم أن الروح القدس لم يكن يقدر الا الكتابات الفنية حقاً ، ولكني كنت قد قرأت موسيه ، وكنت أعرف أن « اكثر الأناشيد يأساً هي أجملها » وكنت قد عزمت أن ألتقط « الجمال » بيأس ذي شرك .

وكانت كلمة « عبقرية » قد بدت لي دائماً مشبوهة : فكدت أنفر منها كلية . لو كنت أملك الموهبة ، فأين عساه سيكون القلق ، او الامتحان أو الاغراء الفاشل او البراعة ؟ كنت قلما أحتمل ان يكون لي جسم ، وأن يكون لي كل يوم الرأس نفسه ، انني لن أدع نفسي أسجن في جهاز . كنت أقبل تسميتي شريطة ألاّ تستند الى شيء ، وأن تلتمع ، مجانيةً ، في الفراغ المطلق . وكانت قد جرت لي محادثات مع الروح القدس ؛ كان يقول لي :

— سوف تكتب .

وكنت أنا أقلب يديّ وألويهما :

— ما الذي أملكه ، يا سيدي ، لكي تختارني ؟

— لا سبب هناك .

— أتراني أملك على الأقل سهولة في القلم ؟

– لا تملك اية سهولة . هل تظنّ ان الآثار العظيمة تولد من الاقلام السهلة ؟

– سيدي ، ما دمت مندفعاً الى هذا الحد ، كيف تراني أستطيع تأليف كتاب ؟

– بالاجتهاد .

– إن كل انسان إذن يستطيع ان يكتب ؟

– كل انسان . ولكني إنما اخترتك أنت .

وكان هذا التزوير مناسباً : لقد كان يسمح لي أن أعلن تفاهتي وأن احترم ، في الوقت نفسه ، مؤلف الروائع القادمة . كنت مختاراً ، ومدفوعاً ، ولكن بلا موهبة : فكل شيء سيأتي من صبري الطويل ، ومن مصائبي ؛ كنت انكر على نفسي كل تفرّد : إن ملامح الشخصية تغور ؛ ولم أكن اميناً إلاّ للالتزام الملكي الذي كان يقودني الى المجد عن طريق العذابات ؛ وكان يبقى ايجاد هذه العذابات ؛ كانت تلك هي المشكلة الوحيدة ، ولكنها كانت تبدو بلا حلّ ، ما داموا قد نزعوا مني أمل أن أعيش بائساً : فسواء أكنت عظيماً أم مغموراً ، فاني سأقبض من موازنة « التعليم » ، ولن أحسّ الجوع ابداً .

ووعدت نفسي بألوان قاسية من عذاب الحبّ ، ولكن بلا حماسة : فقد كنت أحتقر المحبين المأخوذين ؛ كان سيرانو يثير دهشتي واستنكاري ، ذلك « الباردايان » الزائف الذي كان يتبلّد أمام النساء : أما الحقيقي ، فقد كان يجرّ خلفه جميع القلوب ، حتى من غير أن يتنبه لذلك ؛ ومن العدل أن نقول إن موت فيوليتا ، حبيبته ،قد مزّق قلبه الى الأبد . انه ترمّل ، جرح غير قابل للشفاء : بسبب ، بسبب امرأة ، ولكن لا بغلطتها : إن ذلك سيتيح لي أن أردّ جميع طلبات الاخريات . وأن أحفر . ولكن ، على أي حال ، لنفرض أن زوجتي « الأورياكية » الشابة اختفت في حادث ، فإن تلك المصيبة لن تكون كافية لاختياري : فهي قد كانت اعتباطية ، وعامة

أكثر مما ينبغي .

وانتصر غضبي على كل شيء : إن هناك بعض المؤلفين الذين ضُربوا ، واستهزيء بهم ، وظلوا حتّى آخر نفس من أنفاسهم غارقين في الخزي والليل ، ولم يكن المجد قد كلل إلاّ جثثهم : هذا ما سوف أكونه . سوف اكتب عن اورياك وعن آثارها وتماثيلها ، بكل دقة ووعي . ولن أقصد إلاّ الى المصالحة ، أنا الذي كنت غير جدير بالحقد ، وإلاّ الى الخدمة . ومع ذلك ، فان كتابي الأول لا يكاد يظهر ، حتّى يثير الفضيحة ، وسأصبح عدواً عاماً : سوف تشتمني صحف « اوفيرنيي »،وسيرفض التجار أن يخدموني ، وسيقذف بعض المتحمسين زجاج بيتي بالحجارة ؛ وسوف يتوجب عليّ ان أهرب ، لأنجو من الاعدام بلا محاكمة . وسأقضي أنا المصعوق بضعة أشهر في البلادة ، وأنا أردد بلا انقطاع : « ليس هذا الا سوء تفاهم ، ما دام جميع الناس طيبين ! » ولن يكون ذلك في الواقع الا سوء تفاهم ؛ ولكن الروح القدس لن يسمح بأن يتبدّد ، وسوف أشفى ؛ وسأجلس ذات يوم الى طاولتي ، وسأكتب كتاباً جديداً : عن البحر أو عن الجبل . ولن يجد هذا الأخير ناشراً . وسأكون ملاحقاً ، وسأكون متنكراً ، وربما منفياً ، ولكني سأكتب كتباً أخرى ، كتباً كثيرة ، وسأترجم « هوراس » شعراً ، وسأعرض أراء متواضعة وحكيمة عن التربية . ولا مفرّ : ستتراكم كتبي في صندوق ، وتظلّ جديدة غير مطبوعة .

وقد كان للحكاية خاتمتان ، وكنت اختار هذه أو تلك ، حسب مزاجي . ففي الأيام الكئيبة العابسة ، كنت أتمثلني أموت فوق سرير من حديد ، مكروهاً من الجميع ، يائساً ، في اللحظة التي يتخذ فيها الموت لهجته السامية . وكنت في أحيان اخرى أمنح نفسي بعض السعادة . وفي الخمسين من عمري ، أردت ان أجرّب ريشة جديدة ، فكنت أكتب اسمي على مخطوطة كانت تضيع بعد فترة . ويجدها أحدهم في عنبر للحبوب ، أو في الساقية ، أو في خزانة البيت الذي غادرته ، فيقرأها ويحملها متأثراً الى ارتيم فايار ، ناشر

ميشال زيفاكو الشهير . ويكون النصر العظيم : عشرة آلاف نسخة تخاطفها القراء في يومين . وكم يساور الندم القلوب ! كان مئة مخبر صحفي ينقذفون بحثاً عني ولم يكونوا يجدونني . ولما كنت مسجوناً ، فاني أظلّ لمدة طويلة جاهلاً انقلاب الرأي العام هذا . وأخيراً ، أدخل ذات يوم مقهى اتقاء للمطر ، فأرى مجلة ملقاة ، وماذا أرى ؟ « جان بول سارتر ، الكاتب المقنّع ، شاعر اورياك ، وشاعر البحر » وذلك في الصفحة الثالثة ، على ستة أعمدة ، بالأحرف الكبيرة . وأطير فرحاً . لا : بل أنا كئيب كآبة شهوانية . وأعود على أي حال الى منزلي ، فأغلق صندوق الدفاتر وأربطه بمساعدة مؤجرتي وأرسله الى فايار ، غير ان أعطي عنواني .

وعند هذه النقطة من قصتي ، كنت أكفّ لكي أرمي نفسي في دسائس لذيذة : لو أنني أرسلت الصندوق من المدينة التي أسكن فيها ، فان الصحفيين سرعان ما سيكتشفون عزلتي . وإذن ، فقد كنت أحمل الصندوق الى باريس ، فأكلف عميل نقل بايصاله الى دار النشر ؛ وقبل أن أستقل القطار ، أعود الى مطارح طفولتي ، شارع لوغوف ، وشارع سوفلو ، وحديقة اللكسمبورغ . وكان « البازار »[1] يجتذبني ؛ واذكر ان جدّي – الذي كان ميتاً آنذاك – كان قد اصطحبني اليه احياناً عام ١٩١٣ : وكنا نجلس جنباً الى جنب على المقعد الخشبي الطويل ، وكان الناس ينظرون الينا نظرة تواطؤ ، فكان يطلب كأس بيرة كبيرة له ، ويطلب لي قدحاً صغيراً ، وكنت أحسني محبوباً . واذن ، فقد كنت ، أنا الخمسيني الحزين ، أدفع باب الحانوت وأطلب قدحاً صغيراً . وعلى الطاولة المجاورة ، تجلس نساء صبيات وجميلات ويتحدثن بحيوية ، ويتلفظن باسمي . وتقول احداهن :

– آه ! من الممكن أن يكون شيخاً ، وأن يكون قبيحاً ، ولكن ما يهمّ :

(١) حانوت كبير يباع فيه مختلف الأشياء والبضائع . – المترجم

اني على استعداد للتنازل عن ثلاثين عاماً من عمري لكي أصبح زوجته ! وأوجه لها بسمة معتزّة وحزينة ، فتجيبني ببسمة مندهشة ، وأنهض ، فأختفي .

لقد قضيت وقتاً طويلاً وأنا أؤلف بعناية هذا الفصل ومئة فصل اخرى أوفرها على القارىء . وسوف تُعرف فيها طفولتي نفسها ، منقولة الى عالم مستقبل ، وكذلك وضعي ، واختراعات عامي السادس ، وأحزان فرساني التائهين . وكنت ما أزال أعبس ، وأنا في التاسعة ، وأجد في ذلك متعة كبيرة : فبالعبوس ، كنت أنا الشهيد المتصلب ، أحافظ على سوء تفاهم كان الروح القدس نفسه يبدو انه قد ضجر منه . لماذا لا أقول اسمي لتلك المعجبة الفاتنة ؟ كنت أقول لنفسي : آه ، انها تأتي بعد فوات الأوان .

– ولكن ما دامت تقبلني على أي حال ؟

– ولكني أفقر مما ينبغي !

– أفقر مما ينبغي ؟ وحقوق التأليف ؟

ولم يكن هذا الاعتراض ليوقفني : فلقد كنت كتبت لفايار أن يوزع على الفقراء المال الذي كنت أستحقه . ومع ذلك ، فقد كان ينبغي أن أختم : حسناً ! كنت انطفىء في غرفتي الصغيرة ، متروكاً من الجميع ، ولكن رائقاً مشرقاً : لقد قمت بالمهمة خير قيام .

إن شيئاً يستوقفني في هذه الحكاية المردّدة ألف مرة : منذ أن أرى اسمي في الجريدة ، يتحطّم نابض فيّ ، وانتهي ؛ انني أتمتع حزيناً بشهرتي ولكني أنقطع عن الكتابة . إن الحلّين ليسا الا واحداً : فسواء متّ لأولد في المجد ، أم أتى المجد أولاً ليقتلني ، فان شهوة الكتابة تتضمّن رفضاً للحياة . وحوالي تلك الفترة ، قرأت حكاية لا أدري اين ، فأثارت اضطرابي .

انها ترجع الى القرن الماضي : كاتب في محطة سيبيرية يذرع الطريق جيئة وذهاباً في انتظار القطار . ليس من بيت صغير في الأفق ، ولا روح في

الحياة. ويُحس الكاتب مشقّة في حمل رأسه الكبير الموحش. إنه حسير النظر، عازب، فظّ، دائم الغضب؛ انه ضَجر، يفكّر في بروستاته، وفي ذيوله. وتنبثق كونتسية شابة، في مركبتها، على الطريق الذي يُحاذي سكة الحديد: وتقفز من المركبة، وتعدو نحو المسافر الذي لم تره من قبل قط، ولكنها تدّعي انها تعرفه من صورة أروها اياها، فتنحني، وتتناول يده اليمنى فتقبّلها.

كانت القصة تتوقف هنا، ولا أدري ما الذي كانت تقصد اليه. واذ كنت في التاسعة، كنت مسحوراً أن يجد ذلك المؤلف المزمجر قارئات له في البور الروسي، وأن تأتي امرأة جميلة ذلك الجمال لتذكّره بالمجد الذي كان قد نسيه: كانت تلك ولادة. بل كانت، في المظهر الأعمق من الأمر، موتاً. كنت أحسّ ذلك، وكنت أريده على هذا النحو؛ لم يكن ممكناً لانسان عاميّ حيّ أن يتلقّى من ارستوقراطية شهادة إعجاب مماثلة: «لئن استطعت أن أجيء اليك وأن ألمسك، فذلك لأنه لم يكن ثمة بعد حتى حاجةٌ الى المحافظة على رفعة الطبقة؛ انني لا أهتمّ حتى بما عساه يكون رأيك في بادرتي، فأنا لا أعتبرك بعدُ إنساناً، وانما أعتبرك رمزاً لنتاجك».

وإنّ ثمة مسافراً قتلته قبلة يد: لقد كان يشتعل، على بُعد الف كيلومتر من سانت بطرسبرغ، بعد خمسة وخمسين عاماً من ولادته، وكان مجده يحرقه، فلا يُبقي منه، بحروف من لهب، الا مجموعة مؤلفاته. ولقد كنت أرى الكونتيسة تصعد الى مركبتها ثانية، وتختفي، ويعود البور فيسقط في الوحدة؛ وعند المغيب، كان القطار يمرّ بالمحطة فلا يتوقّف عندها ليستدرك تأخّره، وكنت أحسّ في أعماقي رعشة الخوف، وأذكر «رياح في الأشجار» وأقول لنفسي: «لقد كانت الكونتيسة هي الموت.» سوف تأتي: وذات يوم، على طريق خالية، ستقبّل أصابعي.

كان الموت دُواري، لأني لم أكن أحبّ أن أعيش: وهذا ما يشرح

الإرهاب الذي كان يوحيه لي . واذ وحّدته بالمجد ، جعلت منه غاية قصدي لقد أردت ان أموت ، وكان الهول يثلج نفاد صبري أحياناً ، ولكن لا لمدة طويلة قط ؛ فقد كانت فرحتي المقدّسة تولد من جديد ، وكنت أنتظر لحظة الصاعقة حين سألتهب حتى العظم . إن مقاصدنا العميقة هي مشاريع وفرارات مرتبطة ارتباطاً لا فكاك منه : فمشروع الكتابة المجنون ، بقصد أن أصفح عن وجودي ، أرى جيداً انه كان يملك بعض الحقيقة والواقع ، بالرغم من ضروب التبجّح والأكاذيب : والدليل اني ما زلت اكتب ، بعد خمسين عاماً . ولكني اذا رجعت الى المصادر ، فاني ارى فيه فراراً الى الأمام ، انتحاراً بطريقة ساذجة ؛ أجل ، انما كنت أبحث عن الموت ، اكثر مما كنت أبحث عن الملحمة أو عن الاستشهاد .

وكنت قد جزعت طويلاً ان أنتهي كما بدأت ، في أيّ مكان ، وبأي شكل ، وألاّ يكون ذلك الموت المبهم الا انعكاساً من ولادتي المبهمة . ولكن نزعتي غيّرت كل شيء : إن ضربات السيف تذهب ، والكتابات تبقى ، واكتشفت ان « الواهب » في الآداب الجميلة يمكن أن يتحوّل الى « هبته » بالذات ، اي الى شيء محض .

كانت المصادفة قد جعلتني رجلاً ، وسوف يجعلني كرم النفس كتاباً ؛ سأستطيع أن أصبّ رسالتي ووعيي في حروف من برونز ، وان أستبدل ضجيج حياتي بكتابات لا تمحى ، ولحمي بأسلوب ، وخطوط « الزمن » الحلزونية الرخوة بالخلود ، وأن أظهر للروح القدس كراسب كلام ، وان أصبح إحساساً متسلّطاً للنوع البشري ، وان أكون آخَرَ في نهاية المطاف ، آخر غيري ، آخر غير الآخرين ، آخر غير كل شيء . سأبدأ باعطاء نفسي جسماً غير قابل للبلى ، ثم أسلّم نفسي للمستهلكين . ولن أكتب لمجرد اللذة في الكتابة ، وانما لأنحت من الكلمات جسم المجد هذا .

وبدت لي ولادتي ، وأنا أتأملها من فوق قبري ، شراً ضرورياً ، تجسيداً موقتاً تماماً كان يُمهِّد لتحوّلي : فلكي أولد من جديد ، كان ينبغي ان أكتب ،

ولكي أكتب كنت بحاجة الى عقل ، وعينين وذراعين ؛ حتى إذا انتهى العمل ، فإن هذه الأعضاء ستتلاشى من تلقاء نفسها : وحوالي عام ١٩٥٥ ، ستنفجر دودة ، وستخرج منها خمس وعشرون فراشة - طلحية ، ستخفق بكل صفحاتها لتذهب فتحط على رف من المكتبة الوطنية . وتلك الفراشات لن تكون إلا أنا : خمسة وعشرون جزءاً ، ثمانية عشر الف صفحة من النصوص ، ثلاثمئة صورة بينها صورة المؤلف . إن عظامي من الجلد والورق المقوى ، ولحمي الرقي تنبعث منه رائحة الصمغ والفطر ، وعبر ستين كيلو من الورق أستريح على كيفي . انني اولد من جديد ، وأصبح أخيراً رجلاً كاملاً ، مفكراً ، متكلماً ، مغنياً ، مزمجراً يوكد نفسه مع جمود المادة القاطع . إن الناس يأخذونني فيفتحونني ، ويبسطونني على الطاولة ، ويملسونني بباطن أيديهم ، وأحياناً يجعلونني أطقطق . وأستسلم لهم ، ثم فجأة ألتمع وأبهر ، وأفرض نفسي على مسافة ، وتعبر سلطاتي الحيز والزمان ، فتصعق الأشرار ، وتحمي الطيبين . وليس ثمة من يستطيع نسياني ، ولا من يغرقني في الصمت : إنني صنم كبير هين ومريع . صحيح أن ضميري متفتت : ولكن هذا أفضل . لقد تكفلت بي ضمائر أخرى . إنني «أقرأ» ، فأنا أقفز الى العيون : «وأُحدَّث» ، فأنا في جميع الأفواه ، لغة عالمية وفريدة ! وأنا في ملايين الأنظار أنتصب فضولاً قابلاً للاتساع ؛ انني بالنسبة لمن يعرف أن يحبني قلقه الأوفر صميمية ، ولكنه اذا شاء أن يلمسني ، أمحيت واختفيت : فأنا لست موجوداً بعد في أي مكان ، انني «موجود» أخيراً ! انني في كل مكان : انني طفيلي البشرية ، فحسناتي تقرضها وتجبرها بلا انقطاع على ابتعاث غيابي .

وتنجح عملية الشعوذة هذه : انني اكفن الموت بكفن المجد ، ولا أفكر بعد الا في هذا الأخير ، لا في ذاك قط ، من غير أن أتنبه الى أن الاثنين لم يكونا الا شيئاً واحداً . وفي الساعة التي أكتب فيها هذه الأسطر ، أعلم

اني بعد سنوات ، سأكون غير قابل للاستعمال . وأنا أتمثل بوضوح ، بغير مرح مبالغ فيه ، الشيخوخة التي تُعلن عن نفسها وهرمي المقبل ، وهرم الذين أحبهم وموتهم : أما موتي ، فلا أتمثّله على الاطلاق . ويتّفق لي أن أعبّر لأقربائي – وفيهم من يصغرني بخمسة عشر أو بعشرين او بثلاثين عاماً – عن أسفي العميق بأن أعيش بعدهم ؛ فيستهزئون بي ، وأضحك معهم ، ولكن ذلك لا يؤثر في الأمر شيئاً ، ولن يؤثر فيه شيئاً : فقد جرت لي وأنا في التاسعة عملية انتزعت مني وسائل الإحساس بما هو مؤثر ، وهو ما يوصف بأنه خاصيّة وضعنا البشري . وبعد عشر سنوات ، كان هذا المؤثر ، في مدرسة المعلّمين العليا ، يوقظ في الرعب أو في سورة الغضب بعضاً من آثر اصدقائي لديّ : ذلك اني كنت أشخر كقارع الجرس أو كنافخ البوق . وبعد مرض خطير ، كان أحدهم يؤكّد لنا أنه كان قد عرف آلام الاحتضار بما فيها آخر تنفّس ، وكان « نيزان » أشدّ من أخذ ، فقد كان أحياناً ، وهو في ابّان اليقظة ، يرى نفسه جثّة ، فكان ينهض وعيناه تنغلان بالدود ، ويأخذ بالتلمّس قبّعته ذات الطاقية المستديرة ويختفي ؛ وكان يُعثر عليه في اليوم التالي مع مجهولين ، وهو في حال السكر الشديد .

وكان هؤلاء المحكومون يروون فيما بينهم ، وهم في أحد البيوت ، قصص لياليهم البيضاء وتجاربهم العدَميّة غير الناضجة : فكانوا يتفاهمون أربع الكلمات . وكنت أصغي اليهم ، وكنت أحبّهم بما فيه الكفاية لكي تمنّى بهوس أن أشبههم ، ولكني مهما كنت أجهد في ذلك ، فاني لم أكن أدرك ولا ألتقط إلا أفكاراً مبتذلة عن الدفن : إن المرء يعيش ويموت ، لا يدري من يعيش ومن يموت ؛ وقبل ساعة من الموت ، يكون ما زال حياً . ولم أكن أشكّ أنّ في أحاديثهم معنى كان يفوتني ؛ فكنت أصمت ، منفيّاً ، حاسداً . وكانوا أخيراً يلتفتون إليّ ، منزعجين سلفاً ، فيسألونني :

– إن ذلك يتركك بارداً ، أنت ؟

فكنت أباعد ذراعيّ علامة العجز أو الخضوع. وكانوا يضحكون من فرط الغضب، مبهورين بالبدهية الصاعقة التي لم يكونوا ينجحون في إيصالها إليّ:

— ألم تحدّث نفسك قط، وأنت تلجأ الى النوم، أنه كان ثمة أناسٌ يموتون وهم نائمون؟ ألم تفكّر قط، وأنت تدلك أسنانك بالفرشاة: هذه المرة، قُضي الأمر، فهذا آخر يوم في حياتي؟ أولم تشعر قط انه كان ينبغي المضيّ بسرعة، بسرعة، بسرعة، وانه لم يكن ثمة وقتٌ بعدُ؟ أتحسب أنك مخلّد؟.

فكنت أجيبهم بدافع من التحدّي من جهة، وبدافع من التمرين، من جهة أخرى:

— «هو كذلك: انني احسبني مخلّداً.»

ولم يكن ثمة ما هو اكثر زيفاً من ذلك: كل ما في الأمر، أني كنت قد احترست من الميتات العرَضية؛ وكان الروح القدس قد أوصاني بكتاب ذي نَفَس طويل، فكان ينبغي أن يَدَعَ لي الوقت الكافي لأنجازه. أن أموت ميتة مشرّفة، تلك هي ميتتي التي كانت تحميني من الانحرافات، واحتقانات الاعضاء والتهابات البريتون: وكنا قد تواعدنا على اللقاء، انا وهي؛ فاذا كنت أجيء الموعد في وقت مبكّر اكثر مما ينبغي، فانني لن التقيها ابداً؛ وقد كان بوسع اصدقائي أن يأخذوا عليّ ألاّ أفكّر فيها أبداً، انهم كانوا يجهلون اني لم أكن اكفّ دقيقة عن أن أعيشها.

وأنا اليوم، أراهم على حق؛ كانوا قد قبلوا كلّ شيء من وضعنا البشري، وحتى القلق؛ وكنت قد اخترت أن أكون مطمئناً: وكان حقاً، في نهاية الأمر، اني كنت أحسبني مخلّداً: كنت قد قتلت نفسي مسبّقاً، لأنّ المتوفّين هم الوحيدون الذين ينعمون بالخلود. كان نيزان وماهو يعرفان أنهما سيكونان هدف هجوم وحشي، وأنهما سيُنتزعان من العالم حيّين، مضرّجين بالدم. أما أنا، فكنت أكذب على نفسي: فلكي أنزع من الموت بربريته، كنت قد جعلت منه غايتي، وكنت قد

اتخذت من حياتي الوسيلة الوحيدة المعروفة للموت ، وكنت أمضي على مهل الى نهايتي ، غير مالك من الآمال والرغبات إلاّ ما يلزم لملء كتبي ، واثقاً أن آخر خفقة من قلبي ستُسجَّل على آخر صفحة من آخر جزء من مؤلفاتي ، وان الموات لن يأخذ إلاّ ميتاً .

كان نيزان ينظر ، وهو في العشرين ، الى النساء والسيارات ، والى جميع خيرات هذا العالم ، في استعجال يائس : كان ينبغي رؤية كل شيء ، وأخذ كل شيء على الفور . وقد كنت أنا أنظر أيضاً ، ولكن بحماسة اكثر مما كنت أنظر بطمع : انني لم أكن على الأرض لأتمتّع ، بل لأقوم بجردة ؛ وكان ذلك يسيراً اكثر مما ينبغي . كنت قد تراجعتُ بدافع من خجل طفل عاقل اكثر مما ينبغي ، أمام مخاطر حياة مفتوحة ، وحرة ، وبلا ضمانة من العناية الالهية ؛ كنت قد أقنعت نفسي بأن كل شيء مكتوب سلفاً ، بل اكثر من ذلك ، تامّ كامل .

وكانت هذه العملية الخادعة توفّر عليّ طبعاً إغراء أن أحبّ نفسي ؛ وكان كل من أصدقائي مهدّداً بالانهيار ، فكان يتحصّن بالحاضر ويكتشف المزية التي لا تستبدل لحياته المعرّضة للموت ، وكان يحكم على نفسه بأنه مؤثّر ، ثمين ، فريد ؛ وكان كلّ منهم يروق لنفسه : أما أنا ، الميت ، فلم اكن أروق لنفسي . كنت أجدني عادياً جداً ، واكثر إضجاراً من كورناي العظيم ، ولم يكن تفرّدي كفاعل يحمل في نظري من الأهمية الا بمقدار ما يمهّد للخطة التي ستغيّرني الى شيء . فهل تراني كنت من جرّاء ذلك اكثر تواضعاً ؟ لا ، بل اكثر خبثاً : كنت أكلّف نسْلي أن يحبّني بدلاً منّي . سوف يكون لي يوماً ما سحرٌ ، ولا أدري ماذا ، في نظر رجال ونساء لم يولدوا بعدُ ، وسأحقّق سعادتهم . كنت أملك مزيداً من الدهاء والرياء : إن تلك الحياة التي كنت أجدها مضجرة والتي لم أكن قد عرفت ان أصنع منها إلاّ آلة موتي ، كنت أرتدّ اليها خفيةً لأنقذها ؛ كنت أنظر اليها عبر عينين للمستقبل ، وكانت تتبدّى لي كقصة مؤثرة ومدهشة كنت قد عشتها من

أجل الجميع ، ولن يكون لأحد أن يعيشها مرة ثانية ، بفضلي أنا ، وسيكون كافياً أن تُروى . وقد وضعت فيها سُعْراً حقيقياً : لقد اخترت كمستقبلٍ ماضيَ ميتٍ عظيم ، وحاولت ان أعيش بالمقلوب . وأصبحت بين التاسعة والعاشرة ، حياً بعد موتي .

ليست هذه هي غلطتي وحدي : كان جدّي قد ربّاني في الوهم المتعلّق بالماضي . والحق إنه ليس هو كذلك مذنباً ، وأنا غير عاتب عليه : إن ذلك السراب انما يولد تلقائياً من الثقافة . حين يختفي الشهود ، يكفّ موت رجل عظيم عن أن يكون ضربة صاعقة ، ويجعل منه الزمن ملمّح شخصية . لقد مات شيخ متوفٍ بالبنية ، فهو في المعمودية مثله في المسحة الأخيرة ، لا أكثر ولا أقلّ ؛ إن حياته تخصّنا ، فنحن ندخلها من جهة أو من أخرى ، أو من الوسط ، ونحن نهبط فيها أو نصعد على هوانا : ذلك أن النظام التأريخي قد نُسف ، ومن المستحيل إعادته : إن ذلك الشخص لا يتعرّض بعد لأي خطر ، بل هو لا ينتظر بعدُ أن تؤدّي دغدغة منخره الى العطس . إن وجوده يبدو في مظهر البسط والانتشار ، ولكن ما أن يُراد إعادة بعض الحياة له ، حتى يسقط من جديد في المعيّة . إنك تجهد في أن تحلّ محلّ الغائب ، وتتظاهر بأنك تشاطره مشاعره وعذاباته ، وضروب جهله وآرائه المسبقة ، وانك تبتعث ألواناً من المقاومة المنهارة ، او ظلالاً من نفاد الصبر أو الخوف المبهم ، ولكنك لن تستطيع ان تمتنع عن تقدير مسلكه على ضوء نتائج لم تكن متوقّعة ومعلومات لم يكن يملكها بعد ، ولا أن تُضفي جلالة خاصة على أحداثٍ طبعتهُ نتائجها فيما بعد ، ولكنه عاشها بأهمال .

ذلك هو السراب : المستقبل الأكثر واقعية من الحاضر . وليس في ذلك ما يدعو للدهشة : فان النهاية ، في حياة منتهية ، هي حقيقة البداية . إن المتوفّي يبقى في منتصف الطريق بين الكينونة والقيمة ، بين الواقع الخام واعادة البناء ، وتاريخه يصبح نوعاً من الجوهر الدائري يتلخّص في كل

لحظة من لحظاته .

إن هناك ، في صالونات «اراس»[1] ، محامياً شاباً ، بارداً ومتدللاً ، يحمل رأسه تحت ذراعه لأنه المغفور له روبسبير ، وذلك الرأس يقطر دماً ولكنه لا يلطخ السجادة ؛ وليس في المدعوين من يلاحظه ، ولا نرى إلاّه ؛ وكان ينبغي أن يكون قد تدحرج الى السلة منذ خمسة أعوام ، ومع ذلك ، فها هو ذا مقطوع ، ينطق بقصائد غزلية بالرغم من فكه المتدلي . فاذا اعترفنا بهذا الخطأ البصري ، فانه غير مزعج : إن هناك وسائل لتصحيحه ؛ ولكنّ اكليركيي تلك الحقبة كانوا يقنّعونه ، وكانوا يغذّون منه مثاليتهم . كانوا يوحون بأنّ الفكرة العظيمة ، حين تريد أن تولد ، فانها تذهب لتُصادِرَ في بطن امرأة الرجلَ العظيم الذي سيحملها ؛ انها تختار له وضعه ، ووسطه ، وهي تقيس على الضبط ذكاء أقربائه وعدم فهمهم ، وتنظّم تربيته ، وتخضعه للامتحانات الضرورية ، وتشكّل له بلمسات متتابعة شخصيةً غير ثابتة تقود اختلالات توازنه ، الى أن ينفجر الشيء الذي كان موضع هذه العنايات جميعاً فيتمخّض عنها . إن هذا لم يُعلَنْ عنه في أي مكان ، ولكن كل شيء كان يوحي بأن تسلسل الأسباب كان يغطّي نظاماً عكسياً وسرّياً .

واستعملت هذا السراب في حماسة لأنجز ضمانة قَدَرِي . وأخذت الزمن ، فقلبته رأساً على عقب ، فاذا بكل شيء يتّضح . وبدأ ذلك بكتاب صغير أزرقٍ ذي حواشٍ مذهّبة مسوّدة بعض الشيء ، وكانت تنبعث من أوراقه السميكة رائحة الجثث ، وكان عنوانه «طفولة الرجال العظام» ؛ وكان عليه طابعٌ يشهد بأن خالي جورج كان قد تلقّاه عام ١٨٨٥ ، كجائزة ثانية في مادة الحساب . وكنت قد اكتشفته ، في عهد رحلاتي الغريبة ، فقلّبته ثم قذفت به ضجراً : إن أولئك المختارين الشبّان لم يكونوا يشبهون

(١) مدينة فرنسية تقع على بعد ١٧٥ كلم شمالي باريس ، وهي مسقط رأس روبسبير . المترجم

في شيء أطفالاً مُدهشين ؛ لم يكونوا يقتربون مني الا بتفاهة فضائلهم ، وكنت أتساءل لماذا كانوا يتكلمون عنهم . وفي النهاية اختفى الكتاب : كنت قد أزمعت أن أعاقبه بأن أخبئه . وبعد عام ، قلبت جميع الرفوف لأعثر عليه من جديد : كنت قد تغيّرت ، وكان الطفل المدهش قد أصبح رجلاً كبيراً فريسة الطفولة . وأية مفاجأة ! كان الكتاب قد تغيّر هو أيضاً . كانت هي الكلمات نفسها ، ولكنها كانت تحدثني عن نفسي . وشعرت بأن هذا الكتاب يوشك أن يفقدني ، فاحتقرته ، وخفت منه .

كنت كل يوم ، قبل ان أفتحه ، أذهب فأجلس عند النافذة : ففي حالة الخطر ، سأدخل في عينيّ نور النهار الحقيقي . وانهم ليضحكونني كثيراً اليوم ، اولئك الذين يأسفون على تأثير « فانتوماس » او اندريه جيد : لقد كنت ألتهم كتابي وانا أشعر بما يشبه إماتة الإحساس لدى متناولي المخدّرات . على انه كان يبدو وديعاً ، غير موذٍ . كان المؤلف يشجّع قرّاءه الصغار : إن الحكمة والتقوى البنوية تقودان الى كل شيء ، وحتى الى أن يصبح المرء رامبرانت او موزار ؛ وكان يصوّر في قصص قصيرة المشاغل العادية جداً لأطفال عاديين جداً ، ولكنهم حسّاسون وأتقياء ، كانوا يُدعون جان ــ سيبستيان ، أو جان ــ جاك ، او جان ــ باتيست ، وكانوا يسعدون أقاربهم كما كنت أسعد أقاربي . على أن السمّ كان هنا : إن هذا الرجل ، من غير أن يلفظ ابداً اسم روسو ، او باخ ، او موليير ، كان يبذل كل فنّه في أن يبذر في كل مكان ايماءات الى عظمتهم المقبلة ، وأن يُذكّر تذكيراً لامبالياً ، بواسطة تفصيل من التفاصيل ، بمؤلفاتهم أو بأعمالهم العظمى ، وأن يدسّ حكاياته دسّاً محكماً ، بحيث لا يمكن فهم أتفه حادث من غير ردّه الى أحداث سابقة ؛ كان يُنزل في التشوّش اليومي صمتاً كبيراً خرافياً يشوّه كل شيء : المستقبل . فمثلاً كان ثمة طفل يُدعى سانزيو كان يموت رغبةً في رؤية البابا ؛ وقد ظلّ مصرّاً حتى أخذوه الى الساحة العامة يوم كان قداسة البابا يمرّ فيها ؛ وكان الطفل يمتقع ، ويحملق بعينيه ،

وكان يُقال له أخيراً : « أعتقد انك مسرور يا رافائيلو ؟ هل نظرت اليه جيداً ، قداسة البابا ؟ » ولكنه كان يجيب : « أي قداسة بابا ؟ انني لم أر إلاّ ألواناً ! » وفي يوم آخر ، كان ميكال الصغير الذي كان يريد أن يدخل الجيش ، جالساً تحت شجرة ، يتلذّذ بقراءة رواية فروسية ، حين انتفض فجأة لسماعه صوت حديد راعد : لقد كان مجنون قديم من الجيران ، نبيل قروي مفلس ، يُركض حصاناً هزيلاً ويصوّب سهمه الصديء الى طاحونة . وعلى مائدة العشاء ، كان ميكال يروي الحادث بلهجة لطيفة وطريفة ، حتى انه كان يثير ضحكاً جنونياً لدى الجميع . ولكنه ، فيما بعد ، كان يقذف بروايته على أرض غرفته ، ويدوس عليها ، ويبكي طويلاً .

كان هؤلاء الأطفال يعيشون في الخطأ : كانوا يظنّون انهم يتحركون ويتكلّمون بالاتفاق ، بينما كانت أتفه أحاديثهم تتخذ غاية حقيقية لها إعلان قدَرهم . وكنّا أنا والمؤلف نتبادل ابتسامات مشفقة من فوق رؤوسهم ؛ وكنت أقرأ حياة أولئك العاديين المزيّفين كما وضعها الله : ابتداءً من نهايتها . وكنت أول الأمر عظيم الفرح : لقد كانوا اخوتي ، وسيكون مجدهم مجدي . ثم إن كل شيء كان يفقد توازنه : فكنت أجدني ثانية في الجانب الآخر من الصفحة ، في الكتاب : كان ينبغي ان تشبه طفولة جان بول طفولتيْ جان جاك وجان سيبستيان ، وألاّ يحدث لي شيء على الاطلاق إلاّ وهو إرهاصي . غير أن المؤلف كان هذه المرة انما يتبادل الغمزات مع أحفادي الصغار . اما أنا ، فكنت مرثياً ، من الموت حتى الولادة ، من قِبَل هؤلاء الأطفال المقبلين الذين لم أكن أتصورهم ، ولم أكن أني أبعث لهم رسائل لم تكن ألغازها قابلة للحلّ في نظري .

كنت أرتعش ، مرتعداً من موتي ، المعنى الحقيقي لجميع حركاتي ، منتزعاً من نفسي بالذات ، وكنت احاول أن أعبر ثانيةً الصفحة باتجاه معاكس وأن أجدني مرة أخرى بجانب القراء ، وكنت أرفع رأسي ، وأطلب المعونة من النور : « ذلك أيضاً » ، كان رسالة ؛ ذلك القلق المفاجيء ، وذلك الشكّ ،

وحركة العينين والعنق تلك ، كيف تُرى ستُفسّر ، عام ٢٠١٣ ، حين يملك الناس المفتاحين اللذين لا بدّ ان يفتحاني ، النتاج والموت ؟

لم أستطع الخروج من الكتاب : كنت قد أنجزت قراءته منذ وقت طويل ، ولكني كنت أظلّ أحد أشخاصه . كنت أرصد نفسي : كنت قبل ذلك بساعة قد ثرثرت مع أمي ، فماذا أعلنت ؟ وكنت أتذكّر بعض عباراتي ، فكنت أردّدها بصوت مرتفع ، ولكن ذلك لم يكن ليجديني . كانت الجُمل تَزْلق ، ممتنعة على الاختراق : كان صوتي ، في أُذنيّ بالذات ، يُصدي كصوت أجنبيّ ، وكان ملاك غشّاش يُقرصن أفكاري حتى في رأسي ، ولم يكن ذلك الملاك الا طفلاً صغيراً أشقر من القرن الثلاثين ، جالساً بازاء نافذة ، يراقبني عبْر كتاب . وبذعرٍ محبّ ، كنت أحسّ نظره يسمّرني بعصري . لقد غششت نفسي ، في نظره : لقد فبركت كلمات ذات معنى مزدوج وكنت أقذفها في الجمهور . وكانت آنماري تجدني جالساً الى طاولتي ، وكانت تقول :

ـ ما أشدّ الظلام ! ان حبيبي الصغير يفقأ عينيه !

وكانت تلك مناسبة ان أجيب بكل براءة :

ـ سأكتب في الظلام .

وكانت تضحك ، وتدعوني الأبله الصغير ، وتضيء النور ؛ ويكون الدور قد مُثّل ؛ وقد كنا نجهل كلانا أني قد أطلعت العام ثلاثة آلاف على عاهتي المقبلة .

والواقع أنني ، في اخريات أيامي ، سأكون من العمى اكثر مما كان بتهوفن من الصمم ، وسأكتب بالتلمّس كتابي الأخير : وسيُعثر على المخطوطة بين أوراقي ، وسيقول الناس ، خائبين : « ولكن هذا لا يُقرأ ! » بل سيكون وارداً ان يُلقى في القمامة . وفي نهاية المطاف ، ستطالب به مكتبة اورياك البلدية ، بدافع من محض التقوى ، وسيبقى فيها مئة عام ، منسياً . ثم يأتي يوم يحاول فيه بعض العلماء الشبّان ، بدافع من حبّ لي ،

أن يحلّوا ألغازه : ولن يكون لديهم في حياتهم كلّها متّسع من الوقت ليعيدوا تأليف ما سوف يكون طبعاً أروع نتاجي .

كانت امي قد غادرت القاعة ، وكنت وحيداً ، وكنت أردّد لنفسي على مهل ، ومن غير أن أفكّر بما أقول خصوصاً : « في الظلام ! » وكان ثمة صوت طقّة جافّ : كان حفيد حفيدي ، فوق ، يُغلق كتابه : كان يحلُم بطفولة جدّ خاله ، وكانت دموع تسيل على خدّيه ، وكان يتنهّد قائلاً : « إن ذلك صحيح ، بالرغم من كل شيء ، لقد كتب في الظلام ! » وعشت في جهلٍ موجّه .

كنت أروح وأجيء ، كأني في عرض ، أمام أطفال سيولدون ، وكانوا يشبهونني ملمحاً ملمحاً ، وكنت أنتزع من عيني دموعاً ، مفكّراً بالدموع التي سأجعلهم يذرفونها . كنت أرى موتي بعيونهم ؛ كان قد وقع ، وتلك كانت حقيقتي : وأحسستني احساساً عذباً ، حيّاً بعد موتي .

قرأ صديق ما سبق ، فتأمّلني بهيئة قلقة ، وقال لي :

ــ لقد كنتَ مصاباً اكثر مما كنتُ أتصوّر .

مصاب ؟ لست أدري . كان هذياني واضح التبرّم . والقضية الرئيسية ، في نظري ، هي على الأصح قضية صدقي . فحين كان عمري تسع سنوات ، كنت أظلّ دونه ؛ أما بعد ذلك ، فقد كنت أتجاوزه .

في البدء كنت سليماً كالعين : غشّاش صغير كان يعرف ان يتوقّف في الوقت المناسب . ولكني اجتهدت ؛ وحتّى في الغش ، كنت أبقى مجتهداً اكثر مني ذكياً ؛ وأنا أعتبر اليوم بهلوانياتي تمارين روحية ، وعدم صدقي كاريكاتوراً لصدق كلّي كان يلامسني بلا انقطاع ويفوتني .

لم أكن قد « اخترت » نزعتي : وانما فرضها عليّ آخرون . والواقع انه لم يكن ثمة شيء : كلمات في الهواء ، ألقتها امرأة عجوز ، ومكيافيلية شارل . ولكن كان يكفي اني كنت مقتنعاً . كان الأشخاص الكبار القائمون في روحي يومئون باصبعهم الى نجمي ؛ ولم أكن اراه ، ولكني كنت أرى الاصبع ؛ كنت اومن بالأشخاص الكبار الذين كانوا يدّعون انهم يؤمنون بي . وكانوا قد علّموني وجود الموتى العظام : نابليون ، تاميستوكل ، فيليب ـــ اوغست ، جان بول سارتر . ولم أكن أشكّ في ذلك : لأني كنت سأشكّ فيهم . على اني ببساطة كنت أحبّ أن ألقى الأخير وجهاً لوجه . كنت أفغر فمي ، وكنت ألوي عضلات وجهي لأستثير الحدس الذي سيغمرني ، كنت امرأة باردة تستدعي تشنّجاتها ذروة النشوة ثم تحاول ان تحلّ محلّها . فاذا بالغتُ قليلاً في ذلك ، أتوصف بأنها متظاهرة ام صادقة ؟

ومهما يكن من أمر ، فاني لم أكن أحصل على شيء ؛ لقد كنت دائماً قبل – او بعد – الرؤية المستحيلة التي كان من شأنها ان تكشفني لنفسي ، وكنت أجدني في نهاية تماريني ، متشككاً غير رابحٍ شيئاً ، اللهم الا بعض الاثارات العصبية . لقد كانت وكالتي مؤسسة على مبدأ السلطة وعلى الطيبة غير المنكورة التي كان يبديها الأشخاص الكبار ، فلم يكن باستطاعة شيء ان يوكّدها أو يكذّبها : كانت خارج نطاق الإصابة ، وكانت مختبئة ، فكانت تبقى فيّ ، ولكنها لم تكن ملكي الا بقدرٍ يسير جداً حتى اني لم أكن أستطيع قط ، ولو للحظة ، ان أضعها موضع الشك ، واني كنت غير قادر على تذويبها وهضمها .

إن الايمان لا يكون كاملاً قط ، حتى ولو كان عميقاً . وينبغي دعمه بلا انقطاع ، أو على الأقل الامتناع عن تهديمه . كنت منذوراً ، شهيراً ، وقد «كان لي» قبري في « بيرلاشيز »[1] وربما في البانتيون ، وجادّتي في باريس وحدائقي وأمكنتي في الريف ، وفي الخارج : ومع ذلك ، فانا الذي كنت في قلب التفاؤل ، غير مرئيّ وغير مسمّى ، كنت أحتفظ بالشك بعدم صلابتي .

كان في سانت–آن[2] مريض يصرخ من سريره : « انني أمير ! فليُعتقل الدوق الكبير ! » وكانوا يقتربون منه ، فيهمسون في أذنه : « تمخّط ! » فكان يتمخّط . وكان يُسأل : « ما هي مهنتك ؟ » فكان يجيب على مهل : « إسكافي » ثم يعود الى الصياح .

وأتصوّر أننا نشبه جميعاً هذا الرجل ؛ وعلى أي حال ، فقد كنت وأنا في بدء التاسعة من عمري ، أشبهه : كنت أميراً واسكافياً .

بعد عامين ، كان يمكن الظنّ بأني قد شُفيت : كان الأمير قد اختفى ،

(١) احدى مقابر باريس – المترجم .
(٢) مرفأ في الغوادولوب ، احدى جزر الانتي الفرنسية . – المترجم .

ولم يكن الاسكافي يؤمن بشيء ، بل لم أكن حتى لأكتب ؛ كانت دفاتر الروايات قد قُذفت في القمامة او ضُيِّعت او أُحرقت ، فأفسحت المجال لدفاتر المنطق والاملاء والحساب. ولو قد أدخل أحدٌ في رأسي المفتوح لكل الرياح ، لالتقى فيه بعض التماثيل وجدول ضرب منحرفاً وقاعدة الثلاثة ، واثنتين وثلاثين مقاطعة مع عواصمها ولكن بلا ولاياتها ، وزهرة تدعى «روزاروزاروزامروزابروزابروزاي» وآثاراً تاريخية وأدبية ، وبعض أمثال التربية المدنية محفورة على مسلاّت ، وأحياناً غلالة من ضباب يخيّم فوق هذه الحديقة الحزينة ، حلماً سادياً ، ولما التقى بأية يتيمة ، ولما وجد أيّ أثر لشجاع . لم تكن كلمات بطل ، وشهيد ، وقديس ، مكتوبة في أي مكان ، ولم يكن يردّدها أيّ صوت . اما «بارداياَن» السابق فقد كان يتلقّى كل ثلاثة أشهر نشرات طبّية مُرضية : إنه طفل ذو ذكاء متوسط ، ونزعة اخلاقية رفيعة ، قليل الميل للعلوم الدقيقة ، خياليّ بلا تطرّف ، حسّاس ؛ عاديّ الى حدّ ممتاز ، بالرغم من بعض التصنّع الذي يخفّ تدريجياً .

والحق اني كنت قد أصبحت مجنوناً تماماً . وقد وقع حادثان أحدهما عامّ ، والآخر خاصّ ، فمسحا بقية العقل الذي كان ما يزال باقياً لي .

كان الأول مفاجأة حقيقية : ففي شهر تموز ١٩١٤ ، كان ما يزال هناك بعض الأشرار ؛ ولكن في ٢ آب ، استولت الفضيلة فجأة على السلطة وحكمت :فأصبح جميع الفرنسيين طيّبين . وكان أعداء جدّي يرتمون في ذراعيه ، ودخل ناشرون في الجندية ، وكان الشعب البسيط يتنبّأ : كان اصدقاؤنا يستقبلون بالترحاب الكلمات العظيمة البسيطة التي كان ينطق بها بوّابو بناياتهم ، وساعي البريد ، والحدّاد ، وينقلونها لنا ، وكان الجميع يتصايحون فرحين ، ما عدا جدّتي ، التي كانت مشبوهة بكل تأكيد .

وكنت مفتوناً :كانت فرنسا تعطيني التمثيل ، فكنت أمثّل من أجل فرنسا . ولكن ما لبثت الحرب أن أضجرتني : كان إزعاجها لحياتي ضعيفاً

جداً حتى اني كنت أنساها بلا شك ؛ ولكني نفرت منها حين لاحظت أنها كانت تهدم مطالعاتي . لقد اختفت من الأكشاك الصحفية منشوراتي المفضّلة ؛ وترك ارنولد غالوبين ، وجوفال ، وجان دولاهير ابطالهم المألوفين ، اولئك المراهقين ، إخوتي الذين كانوا يطوفون العالم بالطائرة ، والذين كانوا يعتركون في الأدغال ، اثنين أو ثلاثة ضد مئة ؛ وحلّت محلّ روايات المستعمرات المعروفة قبل الحرب ، رواياتٌ حربية ، عامرة بالنوتيين ، وبالالزاسيين الشبّان . وكنت أحتقر هؤلاء القادمين الجدد . لقد كنت أعتبر مغامري الغاب الصغار أطفالاً مدهشين لأنهم كانوا يقتلون سكاناً محليين متوحشين كانوا ، بعد كل حساب ، بالغين : وأنا نفسي الطفل المدهش ، كنت أتعرّف ذاتي فيهم .

أما أولاد الجيش هؤلاء ، فكان كل شيء يتمّ خارجاً عنهم . وترنّحت البطولة الفردية : لقد كانت مدعومةً ، ضد المتوحشين ، بتفوّق التسلّح ؛ فما العمل ، ضد المدافع الألمانية ؟ كان لا بدّ من مدافع أخرى ، ومن مدفعيين ، ومن جيش ...

وكان الطفل المدهش ، وسط الجنود الشجعان الذين كانوا يربّتون على كتفه وكانوا يحمونه ، يعود فيسقط في الطفولة ؛ وكنت أعود فأسقط معه فيها . وبين الفينة والفينة ، كان المؤلف ، بدافع الشفقة ، يكلّفني بحمل رسالة ، فيأسرني الألمان ، وكنت أردّ عليهم باجابات معتزّة ، ثم كنت ألوذ بالفرار ، فأعود الى خطوطنا واضطلع بالمهمة . وكانوا بالطبع يهنئونني ، ولكن بلا حماسة حقيقية ، ولم أكن أجد ثانية في عيني الجنرال الأبويتين النظرة المبهورة التي كنت أجدها في عيون الأرامل واليتيمات .

كنت قد فقدت المبادرة : كانت المعارك تُربح ، وستربح الحرب بدوني ؛ وكان الأشخاص الكبار يستعيدون احتكار البطولة ، وكان يتفق لي أن ألتقط بندقية جندي ميت وأن أطلق عدة طلقات ، ولكن لم يسمح لي ارنولد غالوبين ولا جان دولاهير قط أن أحشو بندقية ذات حربة . كنت ، وأنا

البطل المدرّب ، أنتظر بفارغ الصبر ان أبلغ سنّ التجنّد . أو بالأصح لا : كان هو ولد الجيش الذي ينتظر ، يتيم الألزاس . كنت أنسحب منهم ، وأغلق الكرّاس . إن الكتابة ستكون عملاً طويلاً عاقّاً ؛ وكنت أعرفه ، وسأتذرّع بكل ألوان الصبر . أما الكتابة ، فكانت عيداً : كنت أريد جميع الأمجاد على الفور . وأيّ مستقبل كانوا يقدّمون لي ؟ جنديّ . يا له من عمل جميل !! إنّ الجندي الشجاع إذ يكون معزولاً ، لا يعدّ اكثر من طفل . لقد كان يشارك في الهجمة الأخيرة مع الآخرين ، وكانت الفرقة هي التي تكسب المعركة . ولم أكن أهتمّ بأن أشارك في انتصارات جماعية . فحين كان ارنولد غالوبين يريد أن يميّز عسكرياً ، لم يكن يجد أفضل من أن يُرسله لنجدة قائد جريح . وكان هذا الاخلاص الغامض يزعجني : كان العبد ينقذ السيد . ثم انها لم تكن الا مهارة مناسبة رخيصة : فالشجاعة في زمن الحرب هي موضع الاشتراك المتساوي ؛ فكل جندي آخر ، اذا اوتي بعض الحظّ ، يحرز النصر نفسه .

وكان يستخفّني الغضب : إن ما كنت أفضّله في بطولة ما قبل الحرب ، انما هو توحّدها ومجانيتها : كنت أترك خلفي الفضائل اليومية الباهتة ، وأخترع الانسان لي وحدي ، بدافع من كرم النفس . وكان « الطواف حول العالم بالطائرة » و « مغامرات صبي في باريس » ، « والكشّافون الثلاثة » ، كل هذه النصوص المقدسة كانت تقودني في درب الموت والبعث . وها أن مؤلّفيها يخونونني دفعة واحدة : انهم يضعون البطولة في متناول الجميع ؛ وكانت الشجاعة وبذل النفس فضيلتين يوميتين ؛ بل الأسوأ أنهما كانتا تُردّان الى صف الواجبات الأكثر بدائية . وقد كان تغيير الديكور على صورة هذا التحوّل : كان ضباب « الأرغون »[١] الجماعيّ قد حلّ

(١) منطقة من الروابي المشجرة الرطبة تقع في شرق الحوض الباريسي ، وكانت مسرح معارك دامية في الحرب العالمية الاولى — المترجم

محلّ الشمس الوحيدة العظيمة ونور « الاكوادور » الفرديّ .

بعد انقطاع بضعة أشهر ، عزمت على أن أتناول القلم من جديد لأكتب رواية وفق هواي وأعطي هؤلاء السادة درساً نافعاً . وكان ذلك في تشرين الأول ١٩١٤ ، ولم نكن قد غادرنا اركاشون .

واشترت لي أمي دفاتر متشابهة ، وكانت أغلفتها البنفسجية تحمل صورة جان دارك ترتدي القبعة ، علامة الازمان . وتحت حماية جان‌دارك ، بدأت قصة الجندي « بيران » : كان يخطف « الكيزر »[1] ويعود به موثقاً إلى خطوطنا ، ثم يدعوه ، بحضور الفرقة المتجمّعة ، الى مبارزة فريدة ، فيصعقه ويقسره ، والمدية على عنقه ، أن يوقّع صلحاً مهيناً ، وأن يعيد لنا الألزاس واللورين . وفي نهاية الاسبوع أضجرتني قصتي . وكنت قد استعدت فكرة المبارزة من روايات الوشاح والسيف : كان ستويرتبيكر ، وهو ابن اسرة رفيعة مُبعد ، يدخل مغارة لصوص ، فيهينه رئيس العصابة وهو رجل شديد البأس ، ولكنه يقتله بضربات قبضته ، ويأخذ مكانه ويعود فيخرج ، وهو رئيس اللصوص ، في الوقت المناسب لحمل فرقته على باخرة للقراصنة . وكان ثمة قوانين ثابتة دقيقة تحكم الاحتفال : كان ينبغي أن يبقى بطل « الشر » غير قابل للانهزام ، وأن ينهزم بطل « الخير » تحت الهتافات المعادية ، وأن يزرع انتصاره غير المنتظر الرعب المثلج في قلوب المستهزئين . ولكني أنا ، بقلة تجربتي ، كنت قد خالفت جميع القواعد ، وقمت بعكس ما كنت أتمنّاه : فبالرغم من مظهر « الكيزر » القويّ ، فان ساعده لم يكن صلباً ، وكان من المعروف سلفاً ، أن « بيران » ، العتليّ الرائع ، لن يجعل منه أكثر من لقمة واحدة . ثم إن الجمهور كان يكنّ له العداء ، وكان جنودنا الشجعان يصارحونه بحقدهم : ولكن بقلبٍ للأدوار

(١) كلمة ألمانية تعني « الامبراطور » . —المترجم

خلّفني مشدوهاً ، اغتصب غليوم الثاني ، المجرم ولكن الوحيد ، والذي كان مغطّى بالسخرية والبصاق – اغتصب تحت نظري استرخاء ابطالي الملكي .

وكان ثمة ما هو أسوأ . لم يكن شيء حتى ذلك الحين قد أكّد أو نفى ما كانت لويز تسمّيه بـ « هذياناتي » : كانت افريقيا واسعة ، بعيدة ، قليلة السكان ، وكانت الأنباء قليلة عنها ؛ ولم يكن ثمة من يستطيع أن يثبت أن رحّالتي لم يكونوا موجودين فيها ، وأنهم لم يكونوا يطلقون النار على « الأقزام » في الساعة نفسها التي كنت أروي فيها معركتهم . ولم أكن أذهب الى حدّ ان اعتبر نفسي مؤرّخهم ، ولكني كنت قد حُدّثت كثيراً عن حقيقة الأعمال الروائية حتى اني كنت أعتقد اني أقول الحقيقة عبر خرافاتي ، على نحوٍ كان ما يزال يفوتني ، ولكنه لا بدّ أن يبهر قرّائي القادمين .

وقد حدث في شهر تشرين ذاك المزعج أني شاهدت ، وأنا عاجز ، رصداً للخيال والحقيقة : كان « الكيزر » الذي وُلد من قلمي يأمر ، وهو مهزوم ، بوقف اطلاق النار ؛ فكان ينبغي إذن بالمنطق السليم أن يشهد خريفُنا عودة السلام ؛ ولكن الصحف والبالغين كانوا يرددون صباح مساء ، ان الناس يشهدون الحرب وانها ستستمر . وأحسستني مخدوعاً : كنت كذّاباً ، وكنت أروي ترّهات لم يكن أحد يريد تصديقها : وبالاختصار ، لقد اكتشفت الخيال .

وللمرة الأولى في حياتي ، قرأت ثانية ما كتبت ، والاحمرار يصبغ جبيني . لقد كنت انا ، ، أنا الذي التذذت بتلك الشطحات الصبيانية ! ولولا قليل ، لعدلت عن امتهان الأدب . وأخيراً ، حملت دفتري الى الشاطيء ودفنته في الرمل . وتبدّد الاستياء ؛ واستعدت الثقة : لا ريب في اني كنت موهوباً ؛ ولقد كان للأدب الجميل سرّه ، بكل بساطة ، وسوف يكشفه لي ذات يوم . وبالانتظار ، فان سنّي كانت توصيني بتحفّظ شديد . وانقطعت عن الكتابة .

وعدنا الى باريس . وتركت الى الأبد ارنولد غالوبين وجان دولاهير : لم أكن أستطيع ان أغفر لأمثال هذين الانتهازيين أن يكونوا قد تغلّبوا عليّ . وعبست في وجه الحرب : ملحمة الدونية ؛ وهجرت العصر ، وأنا متبرّم ، والتجأت الى الماضي . وكنت قبل ذلك ببضعة أشهر ، في نهاية ١٩١٣ ، قد اكتشفت « نيك كارتر » و « بيفالوبيل » و « تكساس جاك » و « سيتنغ بول » ؛ وقد اختفت هذه المنشورات منذ بدء الحرب : وزعم جدّي أن ناشرها كان ألمانياً . ومن حسن الحظ انه كان يوجد لدى باعة الأرصفة معظم الاجزاء الصادرة . وقد جررت امي الى شواطيء السين ، وشرعنا نبحث في الأكشاك واحداً واحداً ، من محطة اورساي الى محطة اوسترليتز : وكان يتفق لنا أن نعود بخمسة عشر كراساً في وقت واحد ؛ ولم ألبث أن جمعت منها خمسمئة .

وكنت أضعها في تلال منتظمة ، ولم أكن أني أعدّها ، وان ألفظ بصوت مرتفع عناوينها السرّية : « جريمة في كرة » ، « ميثاق مع الشيطان » ، « عبيد البارون موتوشيمي » ، « بعث دازار » . وكنت أحبّ أن تصفرّ ، وتتلطّخ ، وتنثني زواياها ، وأن تنبعث منها رائحة غريبة لأوراق ميتة : « لقد كانت » أوراقاً ميتة ، خرائب ، ما دامت الحرب قد اوقفت كل شيء ؛ وكنت أعرف ان المغامرة الأخيرة التي يقوم بها الرجل ذو الشعر الطويل ستظل مجهولة لديّ الى الأبد ، وانني سأجهل الى الأبد أيضاً التحقيق الأخير الذي قام به ملك المحققين البوليسيين : لقد كان أولئك الأبطال المتوحّدون ، مثلي ، ضحايا الصراع العالمي ، وكنت أزداد حبّاً لهم ، من جراء ذلك . ولكي أترنح من الفرح ، كان يكفيني أن أتأمل الصور الملونة التي كانت تزين الأغلفة . كان بوفالوبيل يركض على حصانه في البراري ، تارة يلاحق الهنود ، وتارة يلاحقونه . وكنت أفضل صور نيك كارتر . صحيح انه كان بالامكان ان نجدها رتيبة : فقد كان الشرطي الأكبر ، في الصور جميعاً ، يَقْتُل او يُضرَب . ولكن تلك المنازعات

كانت تحدث في شوارع مانهاتان ، وهي اراض واسعة تحفّها سياجات من الشجر أو أبنية مكعبة دقيقة بلون الدم المجفف : كان ذلك يسحرني ، وكنت أتصوّر مدينة طهرية دامية يلتهمها الحيّز ، وهي لا تكاد تخفي السُّهب الذي كان يحملها : كانت الجريمة والفضيلة فيها خارج القانون كلتاهما ؛ وكان القاتل والقاضي حرّين وسيدين كلاهما ، وكانا يتفاهمان مساء ، بضربات المدى . في هذه المدينة كما في افريقيا ، وتحت شمس النار نفسها ، كانت البطولة تعود فتصبح ارتجالاً أبدياً : من هنا حبي المهووس لنيويورك .

نسيت الحرب ووكالتي في وقت واحد . وحين كنت أُسأل :

— ما الذي ستفعله حين تصبح كبيراً ؟

كنت أجيب بلطف ، وبتواضع ، انني سأكتب ، ولكني كنت قد تخليت عن أحلامي بالمجد وعن تمريناتي الروحية . ولعله بفضل ذلك كانت أعوام ١٩١٤ أسعد أعوام طفولتي . كنت أنا وأمي في سن واحدة ، ولم نكن لنفترق . وكانت تدعوني بفارسها الخادم ، ورجلها الصغير ؛ وكنت أقول لها كل شيء . بل اكثر من كل شيء : لقد كتمتُ الكتابة ، فغدت ثرثرة وخرجت من فمي ، فكنت أصف ما كنت أراه ، وما كانت آن ماري تراه مثلي ، البيوت والأشجار والناس ؛ وكنت امنح نفسي مشاعر لمجرّد رغبتي في أن أطلعها عليها ، وأصبحت محوّلاً للطاقة : كان العالم يستخدمني ليتكلم . وكان ذلك يبدأ بثرثرة مغفلة في رأسي ؛ كان ثمة من يقول : « انني أمشي ، أجلس ، أشرب قدح ماء ، آكل لوزة ملبسة . » وحسبت أن لي صوتين كان أحدهما ، وهو الذي يكاد لا يخصّني ولا يتوقف على إرادتي ، يملي على الآخر عباراته ؛ وقررت اني كنت مزدوجاً .

وقد بقيت ألوان البلبلة الخفية هذه حتى الصيف ؛ وكانت ترهقني ، فكنت انزعج منها ، وانتهيت منها الى الخوف . وقلت لأمي : « إن هناك ما يتكلم في رأسي » ولكنها لحسن الحظ ، لم تقلق .

ولم يكن ذلك يُفسد سعادتنا ولا اتحادنا . كانت لنا أساطيرنا ، وعادات منطقنا ، ومزاجنا الطقوسي . وقد أنهيت عباراتي ، طوال عام تقريباً ، بهذه الكلمات التي كنت ألفظها ، مرة على عشر ، بخضوع ساخر : « ولكن لا بأس في ذلك . » وكنت أقول مثلاً : « هوذا كلب أبيض . إنه ليس أبيض ، بل هو رمادي ، ولكن لا بأس في ذلك » واعتدنا أن نروي فيما بيننا أحداث حياتنا الطفيفة بأسلوب ملحمي ، كلما كانت تقع ؛ وكنا نتحدث عن نفسنا بصيغة الجمع الغائب . كنا ننتظر الاوتوبيس ، فكان يمرّ بنا من غير ان يتوقف ، وعندها كان أحدنا يصرخ : « لقد ضربوا الأرض بقدمهم وهم يلعنون السماء . » ثم كنا نأخذ في الضحك .

وكان لنا في الجمهور أعمالنا المتواطئة : كانت غمزة عين تكفي . كانت بائعة مثلاً تبدو لنا في حانوت او في صالون شاي مثيرة للضحك ، فكانت أمي تقول لي وهي خارجة :

ـ انني لم انظر اليك ! كنت أخشى ان أنفجر ضاحكة في وجهها !

وكنت أحسّني فخوراً بسلطتي : ليس ثمة أطفال كثيرون يستطيعون بنظرة واحدة أن يجعلوا أمهم تنفجر ضحكاً . كنّا خَجِليْن ، فكنا كلانا نخاف معاً : كنت قد اكتشفت يوماً ، على المحطات ، اثني عشر جزءاً من « بوفالوبيل » لم أكن أملكها بعد ؛ وكانت أمي تتهيأ لشرائها حين اقترب رجل سمين ممتقع ، ذو عينين فحميتين ، وشاربين ملمّعين ، وقبعة ضيّقة الحرف ، وذلك المظهر الملتهب الذي كان يتظاهر به شبّان ذلك العهد . وكان يحدّق في أمي ، ولكنه توجّه إليّ انا . وأخذ يردد بسرعة :

ـ انهم يفسدونك بالدلال ، أيها الصغير ، انهم يفسدونك !

وأحسست أولاً بأني أُجرَح : فأنا لم أعتد أن تُرفَعَ معي الكُلفة بهذه السرعة ؛ ولكني فاجأت نظرته المهووسة ، فلم نكن بعدُ ، انا وآن‌ماري الا فتاة واحدة ضارية قفزت الى الخلف .

وأسقط في يد الرجل ، فابتعد : ولقد نسيت ألوفاً من الوجوه . بيد

اني ما أزال اذكر تلك السحنة الشحمية المخنزرة ؛ كنت أجهل كل شي من قضايا الجسد ، ولم أكن أتصوّر ما كان ذلك الرجل يريده منا ، ولكن وضوح الشهوة كان يبلغ حدّاً خُيّل إليّ معه اني كنت أفهم كل شيء ، وأن كل شيء قد كُشف لي على نحوٍ ما .

تلك الشهوة ، كنت قد استشعرتها عبر آنماري ؛ وعَبْرَها ، تعلّمت أن أشمّ الذكَر ، وأن أخشاه ، وأن أحتقره . ولقد وثّق ذلك الحادث صلاتنا : كنت انطنط بهيئة قاسية ، ويدي في يد أمي ، وكنت واثقاً أني أحميهـــا .

أتكون ذكرى تلك السنوات ؟ انني ما زلت اليوم أحسّ السرور وأنا أرى طفلاً جادّاً أكثر مما ينبغي يحدّث برصانة ورقة أمّه الطفلة ؛ انني أحب تلك الصداقات العذبة الوحشية التي تولد بعيداً عن الناس ، وضدّهم . انني أنظر طويلاً الى أولئك الأزواج الطفوليين ، ثم أتذكّر انني رجل ، فأصرف رأسي .

أما الحدث الثاني ، فقد وقع في اكتوبر ١٩١٥ : كان لي من العمر عشرة أعوام وثلاثة أشهر ، ولم يكن بالمستطاع التفكير في وضعي مدة أطول تحت الحجز . وكبت شارل شوايتزر أحقاده وسجّلني في ليسيه هنري الرابع بصفة طالب خارجي . .

وفي المسابقة الأولى ، كنت الأخير . ولقد كنت ، أنا الاقطاعي الصغير ، اعتبر التعليم صلةً شخصية : كانت الآنسة ماري لويز قد أعطتني علمها بدافع الحب ، وكنت قد تلقيته بدافع الطيبة ، بدافع محبّي لها . وقد تشوّشت بتلك الدروس « الجليلة » التي كانت توجّه محبّي لها ، ببرودة القانون الديمقراطيـــة .

وأخضعت ألوان تفوّقي التي كنت أحلم بها لمقارنات مستمرة ، فتلاشت : كان يوجد ثمة دائماً من يجيب أفضل مني وأسرع مني . وكنت محبوباً اكثر مما ينبغي لكي أضع نفسي من جديد موضع التساؤل ؛ كنت معجباً إعجاباً

صادقاً برفاقي ، ولم أكن أحسدهم : فسيكون لي دوري . حين أبلغ الخمسين .

وبالاختصار فقد كنت أضيّع نفسي من غير أن أتألم ؛ كنت أوُخذ بما يشبه الجنون الجاف ، فكنت أقدّم مسابقاتي القبيحة بحماسة كبيرة . وكان جدّي يبدأ بتقطيب حاجبيه ؛ وقد أسرعت أمي تطلب موعداً من السيد اوليفييه ، أستاذي الأساسي .

واستقبلنا في شقته الصغيرة ، شقة العازب ؛ واتخذت امي لهجتها المغنّية ، وكنت أنا واقفاً بازاء أريكتها أصغي اليها وأنا أنظر الى الشمس عبر غبار المربعات الزجاجية ،واجتهدت لكي تثبت انني كنت خيراً من فروضي : فانني كنت قد تعلّمت القراءة وحدي ، وكنت أكتب روايات ؛ وكانت حجتها الأخيرة اني ولدت وعمري عشرة أشهر ، انني كنت مطبوخاً أفضل من الآخرين ، واكثر تذهيباً ، وألذّ وأعذب لأني بقيت مدة أطول في الفرن .

وكان السيد اوليفيه يستمع اليها بتنبّه ، متأثراً بجاذبيتها اكثر من تأثره بمزاياي . وكان رجلاً طويلاً رقيق العود ، أصلع ، ذا عينين غائرتين ، وبشرة شمعية ، وكان له شارب أحمر تحت أنف طويل معقوف . وقد رفض أن يعطيني دروساً خصوصية ، ولكنه وعد أن « يتابعني » . ولم أطلب منه اكثر من ذلك : كنت أرصد نظره في أثناء الدروس ؛ ولم يكن يتكلم إلاّ من أجلي ، وكنت واثقاً من ذلك ؛ وحسبت انه كان يحبني ، فكنت أحبّه ، وأتت بضع كلمات طيبة فأنجزت الباقي : فاذا أنا أصبح ، بلا جهد ، تلميذاً جيداً بما فيه الكفاية .

وكان جدّي يدمدم وهو يقرأ أوراق العلامات كل ثلاثة أشهر ، ولكنه لم يكن يفكر بعدُ بأن يسحبني من الليسيه ، وفي الصف الخامس ، كان لي معلّمون آخرون ، فخسرت الحظوة التي كنت أعامل بها ، ولكني كنت قد ألفتُ الديمقراطية .

لم تكن أعمالي المدرسية تترك لي وقتاً للكتابة : وقد نزعت مني صداقاتي الجديدة حتى الرغبة في الكتابة . لقد كان لي أخيراً رفاق : فمنذ اليوم الأول ،

وبصورة أكثر ما تكون طبيعية ، تبنّوني ، أنا مطرود الحدائق العامة : ولم أكن لأصدّق ذلك ! والحق يقال أن أصدقائي كانوا يبدون أقرب إليّ منهم الى « الباردايانات » الفتيان الذين كانوا قد حطّموا قلبي : كانوا طلاباً خارجيين ، وأبناءً مدلّلين ، وطلاّباً مجتهدين . وايّاً ما كان ، فقد كنت أذوب فرحاً .

وأصبحت لي حياتان . ففي الأسرة ظللت أقلّد الرجل كالقرد . ولكن الأولاد فيما بينهم يحتقرون الولْدنة : إنهم رجالٌ بحق وحقيق . كنت رجلاً بين الرجال ، فكنت أخرج من الليسيه كل يوم بصحبة أولاد أسرة « مالاكين » الثلاثة ، جان ورينيه وأندريه ، وصحبة بول ونوربير ماير ، وبران ، وماكس بيركو ، وغريغوار ؛ وكنا نعدو ونحن نصيح في ساحة البانتيون ، وكانت تلك لحظة سعادة جدية : لقد كنت أتطهّر من المسرحية العائلية ؛ وكنت أتصادى بالضحك ، بعيداً عن رغبة الالتماع ، وكنت اردّد الأوامر والكلمات الحلوة ، وكنت أصمت ، وأطيع ، وأقلّد حركات جيراني ، وكنت أحسّني من فولاذ ، محرّراً أخيراً من إثم أن أُوجَد ؛ كنا نلعب بالكرة ، بين فندق « ليغران زوم » وتمثال جان جاك روسو ؛ وكان لا يُستغنى عني : The right man at the right place [1] ولم أكن لأحسد السيد سيمونو على شيء بعد : فلمن كان ماير يُرسل الكرة ، خادعاً غريغوار ، لو لم أكن « أنا موجوداً هنا ، الآن » ؟ لكم كانت تبدو باهتةً ، حزينة ، أحلامي بالمجد إزاء ضروب الحدْس البارقة تلك التي كانت تكشف لي ضرورتي !

ومن أسف أنها كانت تنطفيء بأسرع مما كانت تبرق . كانت ألعابنا « تثيرنا » كما كانت تقول أمهاتنا ، وتحوّل فرقنا أحياناً الى حشد صغير يشدّه الاجماع ، غير اننا كان يبتلعني . ولكننا لم نستطع قطّ أن ننسى طويلاً ذوينا الذين كان حضورهم غير المنظور يجعلنا نسقط مرة أخرى في الوحدة

---

(١) هكذا في الاصل ، وترجمة العبارة الانكليزية : « الرجل الصالح في المكان الصالح » — المترجم

المشتركة ، وحدة المستعمرات الحيوانية . كان مجتمعنا بلا هدف ولا غاية ولا تسلسل ، فكان يتذبذب بين الذوبان الكامل والتقارب . ولأننا كنّا معاً ، كنا نعيش في الحقيقة ، ولكننا لم نكن نستطيع ان نمتنع عن الاحساس الذي كان يُعزى الينا ، وأن كلاً منا كان ينتمي الى مجموعات ضيّقة ، وقادرة وبدائية كانت تصنع أساطير ساحرة ، وتتغذّى بالخطأ وتفرض علينا اعتباطها .

ولأننا كنّا مدلّلين ، ومؤمنين ، وحسّاسين ، وعاقلين ، يجفلنا التشوّش والفوضى ، ونحتقر العنف والظلم ، متوحّدين ومفترقين بالاعتقاد الصامت بأن العالم انما كان قد خُلق لنستعمله ، وأن ذوينا كانوا أفضل الناس في الدنيا ؛ كنّا حريصين على ألاّ نجرح أحداً ، وان نظلّ ملاطفين حتى في ألعابنا . وكانت ضروب السخرية والشتم ممنوعة علينا ؛ وكان من يغضب ، يحيط به الفريق كلّه ويهدّئه ويحمله على الاعتذار ، وتكون أمه هي التي توبّخه بلسان جان مالاكير او لسان نوربير ماير . والحق ان جميع تلك النسوة كن متعارفات ، وكن يتعاملن بقسوة : كنّ يتبادلن سرد أحاديثنا وانتقاداتنا ، وأحكام كلّ منا على الآخرين ؛ أما نحن الأبناء ، فكنّا نخفي أحكامهنّ .

وقد عادت أمي مرة حانقة ، بعد زيارة قامت بها للسيدة مالاكين التي كانت قد قالت لها بكل صراحة :

ـ إن أندريه يجد ان « بولو » يتعالى على الأولاد !

ولم تثر هذه الملاحظة اضطرابي : إن الامّهات يتحدّثن هكذا فيما بينهنّ ؛ ولم أعتب على أندريه ، ولم أنبس ببنت شفة أمامه حول هذه القضية .

ومجمل القول اننا كنا نحترم الناس جميعاً ، الأغنياء والفقراء ، العسكريين والمدنيين ، الشبان والشيوخ ، البشر والحيوان : ولم نكن نحتقر إلاّ الطلاب نصف الداخليين والداخليين ؛ فلا بدّ انهم مذنبون جداً حتى تخلّى عنهم ذووهم ؛ ربما كان لهم أهل أردياء ، ولكن ذلك لم يكن يحلّ شيئاً : فالأولاد يُرزقون الآباء الذين يستحقونهم . وكانت الليسيه ، بعد أن يغادرها الطلاب الخارجيون عند الساعة الرابعة ، تصبح مَهْلكة .

ولا تتمّ صداقات على هذا الجانب من الحيطة من غير برودة. ولقد كنّا نفترق في العُطل الصيفية بلا أسف. ومع ذلك، فقد كنت أحب « بيركو ». كان ابن امرأة أرمل، فكان أخاً لي. كان جميلاً ودقيق العود وعذباً، وكان شعره مسرّحاً على طريقة جان دارك. غير أننا كنّا نعتزّ بأننا قرأنا كل شيء، وكنّا نختلي في ركن من الملعب لنتحدث في الأدب، أعني لكي نُعيد مئة مرة، في غير ما لذة، تعداد الكتب التي مرّت بين أيدينا. وقد نظر إليّ ذات يوم بهيئة مأخوذة وأسرّ لي انه كان يريد أن يكتب. وقد التقيته فيما بعد في صف البلاغة، وكان ما يزال جميلاً، ولكنه كان مسلولاً: وقد مات وهو في الثامنة عشرة.

وكنا جميعاً، حتى « بيركو » العاقل، معجبين « ببينار »، وهو صبيّ بريد أشبه بفرّوج. وكانت ضجة مزاياه قد بلغت حتى مسامع أمهاتنا اللواتي كنّ ينزعجن منه قليلاً ولكنهنّ لا ينين يستشهدن به كنموذج، من غير أن ينجحن في تنفيرنا منه. فليُحكم على تغرّضنا: كان نصف داخلي، ومع ذلك، فقد كنا نكنّ له مزيداً من الحب؛ لقد كان، في نظرنا، تلميذ شرف خارجياً. وكنا في المساء، تحت مصباح الأسرة، نفكر في هذا المُرسَل الذي كان يبقى في الغاب ليهدي وحوش القسم الداخلي، وكان خوفنا يخفّ من جراء ذلك. ومن العدل القول إن الداخليين أنفسهم كانوا يحترمونه. ولست أفهم بعدُ بوضوح أسباب هذا الإقرار الجماعي. كان بينار رقيقاً، حفيّاً، حسّاساً؛ وهو الى ذلك، الأول في جميع الموادّ. ثم إن امه كانت تحرم نفسها من أجله. لم تكن أمهاتنا يعاشرن تلك الخيّاطة، ولكنهنّ كن يحدّثننا عنها غالباً ليجعلننا نقدّر عظمة الحب الأمومي؛ ولم تكن تفكر إلاّ ببينار: لقد كان شعلة تلك المسكينة وفرحتها؛ وكنّا نحسّ عظمة الحب البنويّ؛ وأخيراً، كان الجميع يرقّون لهذين المسكينين الطيبين. ومع ذلك، فان هذا ما كان ليكفي: فالحقيقة ان بينار لم يكن يعيش الا نصف عيشة؛ فأنا لم يسبق لي أن رأيته بغير منديل من صوف يحيط به

عنقه ؛ كان يبسم لنا بلطف، ولكنه كان يتكلم قليلاً ، وأذكر انه كان قد مُنع من ان يشارك في ألعابنا . وكنت من جانبي أحترمه ، لا سيما وأنّ رخاصته كانت تفصلنا عنه : كان قد وُضع تحت الزجاج ؛ وكان يرسل لنا التحيات والايماءات من وراء الزجاج ، ولكننا لم نكن نقترب منه : كنا نحبّه من بعيد لأنه كان يملك ، وهو حيّ ، امّحاء الرموز . إن الطفولة انقيادية : وكنا نعترف له بأن يدفع الكمال الى حدّ اللاشخصية . فهو اذا تحدث معنا ، كانت تفاهة عباراته تسحرنا لذة ؛ ولم نَرَه قط غاضباً أو مفرط المرح ؛ وفي الصف ، لم يكن قطّ ليرفع إصبعه ، ولكن حين كان يُسأل ، كانت « الحقيقة » تتكلم بفمه ، بلا تردّد ولا حماسة ، كما ينبغي أن تتكلم « الحقيقة » تماماً . وكان يُلقي الاستغراب على عصبتنا ، عصبة الأولاد المُدهشين ، لأنه كان أفضلنا ، من غير أن يكون مدهشاً .

في ذلك الوقت ، كنا جميعاً يتامى الأب ، بدرجات متفاوتة : فقد كان السادة الآباء اما أمواتاً أو في الجبهة ؛ أما الذين كانوا يبقون ، فكانوا لشعورهم بأنهم أقلّ رجولة وقدراً ، يسعون ليجعلوا أبناءهم ينسونهم ، كان العهد عهد سلطة الامهات : وكان بينار يعكس لنا الفضائل السلبية لنظام الأمومة هـذا .

ومات بينار في نهاية الشتاء . والجنود والأطفال لا يهتمون قط بالموتى : ومع ذلك فقد كنّا أربعين نبكي وراء نعشه . وكانت أمهاتنا ساهرات، فغطّيت الحفرة بالزهور . وقد فعلن كثيراً حتى اننا اعتبرنا غيابه جائزة امتياز كبرى أُعطيت خلال العام . ثم إن بينار كان يعيش قليلاً جداً حتى انه لم يمت حقاً : فظلّ بيننا ، حضوراً مبثوثاً مقدّساً . وقفزت معنوياتنا قفزة : لقد كان لنا متوفّانا العزيز ، وكنا نحدّثه بصوت خافت ، في سرور كئيب . ربما سنؤخذ مثله قبل الأوان : وكنّا نتصوّر دموع أمهاتنا وكنّا نحسّنا ذوي قيمة ثمينة .

ومع ذلك ، فهل قد حلمت ؟ إني أحتفظ ، في غموض ، بذكرى

بدَهية قاسية : لقد فقدت تلك الخياطة ، تلك الأرمل ، «كل شيء» ، أتراني حقاً قد اختنقت ذُعراً من هذه الفكرة؟ هل لمحت «الشر» ، وغياب الله ، وعالماً لا يُسكن؟ أعتقد ذلك : وإلاّ فلماذا احتفظت صورة بينار ، في طفولتي المنكورة ، المنسية ، الضائعة ، بوضوحها المؤلم ؟

بعد ذلك بأسابيع ، كان صف الخامس مسرح حدث فريد : ففي درس اللاتينية ، فُتح الباب ، ودخل بينار يرافقه الحاجب ، فحيّا السيد دوري ، استاذنا ، وجلس . وتعرّفنا جميعاً نظارته الحديدية ومنديله الصوفي وأنفه المعقوف قليلاً ، وهيئته هيئة الفرّوج المرتعش برداً : وحسبت أن الله كان يردّه لنا . وبدا السيد دوري وكأنه يقاسمنا ذهولنا : وتوقّف ، وتنفّس بقوّة ثم سأل :

ـ الاسم ، والعائلة ، والصنعة ، ومهنة الوالدين .

فأجاب بينار انه كان نصف داخلي ، وابناً لمهندس ، وان اسمه هو بول‌ـايف نيزان . وكنت أكثر الجميع دهشة ؛ وفي الاستراحة تودّدت اليه ، فبادلني الودّ : وأصبحنا مرتبطين . على أن هنالك تفصيلاً جعلني أشعر اني لم أكن بازاء بينار ، وانما بازاء تمثاله الشيطاني : كان نيزان أحول النظر . وكان الأوان قد فات لتعليق أية أهمية على ذلك : كنت قد أحببت في ذلك الوجه تجسّد «الخير» ، وانتهيت الى ان أحبّه لِذاته . كنت قد أُخذتُ في الشَرَك ، وكانت نزعتي للفضيلة قد أفضت بي الى حبّ «الشيطان» .

والحقّ أن بينار «المستعار» لم يكن رديئاً جداً : كل ما هنالك أنه كان يعيش ؛ كان يملك جميع مزايا ليمه[1] ، ولكن في حالة الذبول . وكان احتراس بينار يتحول فيه الى مداراة ؛ كان اذا صعقته الانفعالات العنيفة والسلبية ، لا يصرخ قط ، ولكننا رأيناه يبيضّ من فرط الغضب ، ويتأتىء :

(١) اليم هو الشخص المشابه شخصاً آخر مشابهة كلية. ـ المترجم

وما كنّا نحسبه عذوبة ، لم يكن في حقيقته إلا ّ شللاً موقتاً ؛ ولم تكن الحقيقة هي التي تعبّر عن نفسها في فمه ، وانما هو نوعٌ من الموضوعية الوقحة الخفيفة كان يتركنا منزعجين لأننا لم نكن قد ألفناه ؛ وبالرغم من أنه كان يعبد ذويه ، بالطبع ، فقد كان الوحيد الذي يتحدث عنهم بسخرية . وفي الصفّ ، كان أقل ّ لمعاناً من بينار . ولما كنت مأخوذاً بهذا الشبه ، فاني لم أكن أعرف قط إن كان عليّ أن أمدحه أن يُعطي مظهر الفضيلة ، أو أن ألومه ألا ّ يعطي منها إلا ّ المظهر ؛ وكنت أنتقل بلا انقطاع من الثقة العمياء الى الحذر الذي لا يقوم على العقل . ولم نصبح صديقين حقيقيين الا بعد ذلك بكثير ، بعد افتراق طويل .

تلك الأحداث واللقاءات قطعت طوال عامين اجتراراتي من غير أن تزيل سببها . ولم يكن شيء في الواقع قد تغيّر عمقاً : فتلك الوكالة التي وضعها البالغون فيّ ضمن ظرف مختوم ، لم أكن أفكّر فيها بعدُ ، ولكنها كانت ما تزال قائمة . لقد استولت على شخصي . كنت وأنا في التاسعة من عمري أراقب نفسي ، حتى في أسوأ ألوان تطرّفي . وفي العاشرة أضعت نفسي . كنت أركض مع « بران » وكنت أتحدث مع « بيركو » ، ومع نيزان : وفي تلك الأثناء ، كانت مهمتّي قد تُركت لذاتها ، فتجسدت ، وفي نهاية الأمر ، سقطت في ليلي : فلم أرها مرةً اخرى بعدُ ، وكانت تمارس قوة جاذبيتها على كل شيء ، مُحنيةً الأشجار والجدران ، مقبّبةً السماء فوق رأسي . كنت قد حسبتُني أميراً ، وكان جنوني أني كنتُه . يقول محلّل نفسي من أصدقائي إن ذلك عصابٌ في الشخصية [1] . وهو على حق : فبين صيف ١٩١٤ وخريف ١٩١٦ ، أصبحت وكالتي هي شخصيّ ؛ لقد غادر هذياني رأسي ليسيل في عظامي .

---

(١) مرض الطفل اللامتأقلم الذي يكون طبيعي الذكاء ، ولكن شخصيته تمثل بعض الوان الاضطراب كالتمرد والحذر والمجون الخ ... – المترجم

لم يكن يحدث لي شيء جديد : كنت أجد ثانية ما كنت قد مثلته ، وما تنبّأت به ، وهو لم يصب بأيّ أذى . هناك فرق واحد : لقد « أدركت » كل شيء ، من غير معرفة ولا كلمات ، وبشكل أعمى . كنت لثلاثة أشهر خلت أتمثّل حياتي بالصور : كان ذلك موتي وهو يسبّب ولادتي ، وكانت ولادتي وهي تقذفني نحو موتي ؛ وما أن تخلّيت عن رؤيتها حتى أصبحت أنا نفسي هذا التبادل ، وتمدّدت حتى لكدت أنفجر بين هذين الطرفين ، وأنا أولد وأموت عند كل خفقـة قلب . وأصبح خلودي المقبـل هو مستقبلي المحسوس : كان يضرب كل لحظة بالخفة والتفاهة ، مهما كان مضمونها ، وقد أصبح ، في مركز التنبّه الاعمق ، تسليةً أشدّ عمقاً ، وفراغ كل امتلاء ، ولاواقعية كل واقع ، كان يقتل من بعيد طعم قطعة كاراميل في فمي ، والهموم والمسرّات في قلبي ؛ ولكنه كان ينقذ اللحظة الأشدّ بُطلاً ، مهما بلغت من الإضجار والكآبة ، لمجرّد أنها كانت تأتي في الأخير ، وانها كانت تقرّبني منه . لقد أعطاني خلودي هذا الصبر على الحياة : فلم أتمنّ بعدُ أبداً أن أقفز عشرين عاماً ، ولا أن أقلّب صفحات عشرين أخرى ، ولم أتصوّر بعدُ أبداً أيام انتصاري البعيدة ؛ بل انتظرت. في كل دقيقة ، انتظرت التالية ، لأنها كانت تجذب نحوها التي تتلوها . وعشت بهدوء في العجلة القصوى : فلأنني ابداً سابقٌ ذاتي ، كان كل شيء يمتصّني ، ولم يكن شيء ليمسكني . فأي عزاء ! في الماضي ، كانت نهاراتي من فرط التشابه بحيث كنت أتساءل أحياناً عما اذا لم يكن محكوماً عليّ أن أتقبّل العودة السرمدية للنهار نفسه . ولم تكن قد تغيّرت كثيراً ، بل كانت تحتفظ بعاداتها السيئة أن تسقط وتسترخي وهي ترتعش ؛ ولكني « أنا » كنت قد تغيرت فيها : فلم يكن الزمن بعدُ هو الذي يرتدّ الى طفولتي الثابتة ، بل أنا الذي كنت سهماً مرشوقاً بأمر ، يثقب الزمن ويمضي تواً نحو الهدف .

في عام ١٩٤٨ ، كان البروفسور فان لينيب يطلعني في « اوترخت »

على تجارب تملك خاصّة الدفع الى الأمام. وقد استوقفتْ نظري صورة: كان قد رُسم عليها حصان يعدو، ورجل يسير، ونسر في إبّان طيرانه، وقارب آلي يقفز؛ وكان على المسؤول أن يشير الى أيهم كان يمنح الإحساس بالسرعة الأكبر. فقلت: «انه القارب». ثم نظرت بفضول الى الرسم الذي كان قد فرض نفسه بتلك القسوة: كان القارب يبدو وكأنه ينفصل عن البحيرة، إنه بعد لحظة سيُحلّق فوق ذلك الخمود المتموّج. وبدا لي سبب اختياري على الفور: فقد داخلني وأنا في التاسعة شعور بأنّ حيزومي [1] كان يشقّ الحاضر وينتزعني منه؛ ومنذ ذلك اليوم ركضت، وما أزال أركض. إن السرعة — في نظري — لا تُسجّل بالمسافة المقطوعة في فترة محدودة من الزمن بقدر ما تُسجّل بقدرتها في الانتزاع.

ومنذ اكثر من عشرين عاماً، كان جياكوميتي يعبر ذات مساء ساحة ايطاليا، فصدمته سيارة؛ وجُرح والتوت ساقه، وفي الغيبوبة اليقظة التي سقط فيها أحسّ أولاً بنوع من الفرح: «وأخيراً، لقد حصل لي شيء!» وأنا أعرف راديكاليته، ثم انه سرد لي الكلمات الممزّقة التي كانت تخترقه: كان ينتظر ما هو أسوأ؛ فتلك الحياة التي كان يحبها الى درجة ألاّ يتمنّى سواها ابداً، كانت قد قُلبت فجأة، وربما حُطّمت بعنف المصادفة البليد، وكان يقول: «وإذن، فاني لم أكن مجعولاً لأنحت، حتى ولا لأعيش؛ لم أكن مصنوعاً لأي شيء.» وما كان يثير حماسته، انما كان النظام المهدّد للأسباب المكشوفة فجأة، وأن يثبّت على أضواء المدينة، وعلى الناس، وعلى جسمه ذاته الملتصق بالوحل، النظرةَ المحجّرة لانقلاب عظيم في مسطح الأرض: إن حكم المعادن ليس قط ببعيد، في نظر النحّات. واني لمعجب بهذه الارادة التي تتلقى كل شيء. فلئن كان المرء يحبّ المفاجئات

(١) الحيزوم: صدر السفينة. — المترجم

فيجب أن يحبّها حتى هذا الحدّ ، حتى هذا الوميض النادر الذي يكشف للهواة أن الأرض ليست مصنوعة لهم .

كنت في التاسعة من عمري أدّعي أني لا أحبّ إلاّ المفاجئات . إن كل حلقة صغيرة من حياتي كان ينبغي أن تكون غير متوقّعة ، وأن تنبعث منها رائحة الدهان الرطب . كنت أوافق مقدّماً على المعاكسات وحوادث السوء ، ولكي أكون عادلاً ، يجب القول إني كنت أرحّب بها . وقد انطفأت الكهرباء ذات مساء ، بسب عطل ؛ ونادوني من غرفة أخرى ، فبسطت ذراعيّ المتباعدتين ورحت أصدم رأسي بمصراع باب صدمةً شديدة جداً ، حتى اني كسرت سنّاً من أسناني . وقد خلّف ذلك مَرَحاً فيّ ، بالرغم من الألم ، وضحكت من جرّاء هذا : كما لا بدّ أن جياكوميتي قد ضحك فيما بعد بسبب ساقه . ولكن لأسباب معاكسة تماماً : فلما كنت قد عزمت سلفاً على أن تكون لحكايتي نهاية سعيدة ، فان اللامنتظر لا يمكن أن يكون الا خديعة ، والجديد الا مظهراً ؛ كان مطلب الشعوب ، حين وُلدت نفسي ، كان قد دبّر كلّ شيء : لقد رأيت في تلك السنّ المكسورة علامة ، إخطاراً مبهماً سأفهمه فيما بعد . وبعبارة أخرى ، كنت أحافظ على نظام الغايات في كل مناسبة ، وبأي ثمن ؛ كنت أنظر الى حياتي عَبْرَ موتي ، ولم أكن أرى إلاّ ذاكرة لم يكن ممكناً أن يخرج منها شيء ، ولم يكن يدخل فيها شيء . فهل يُتصوّر أمني وطمأنينتي ؟

لم تكن المصادفات موجودة : ولم يكن أمامي إلاّ أشكال مقلّدة منها حقّقتها العناية الالهية . لقد كانت الصحف توحي بأن ثمة قوى متناثرة في الشوارع تحصد الأشخاص الصغار . أما انا ، المختار ، فلن ألتقي بها . ربما فقدت ذراعاً أو ساقاً او العينين كلتيهما . ولكن كل شيء كان متوقفاً على الطريقة : إن أسوأ مصائبي لن تكون أبداً إلاّ امتحاناً وتجربة ، والا وسيلة لصنع كتاب . وتعلّمت أن أتحمّل الهموم والأمراض : ورأيت فيها طلائع موتي المجيد ، والدرجات التي كان يبنيها ليرفعني إليه .

ولم تكن هذه العناية لتسوءني . وكنت حريصاً على أن أكون جديراً بها . كنت أعتبر الأسوأ شرطاً للأفضل ؛ وكانت أخطائي نفسها تخدمني ، وهذا ما كنت على يقين منه ، وذلك يعني انني لم أكن ارتكب أخطاء .

في العاشرة من عمري ، كنت واثقاً من نفسي : ولكوني متواضعاً ، متصلّباً ، كنت أرى في تحلّلاتي شروط انتصاري بعد الموت . ولكوني أعمى ، مقعداً ، مضلّلاً بأخطائي ، فسأربح الحرب من فرط خسارتي للمعارك . ولم أكن أميّز بعدُ بين المحن المرصودة للمختارين والهزائم التي كنت أحمل تبعتها ، وهذا يعني أن جرائمي كانت تبدو لي ، في حقيقتها ، مصائب ، وأني كنت أطالب بنكباتي كأعمال ؛ كنت أعترف بأخطائي من غير أن أنفعل بها ؛ وبالمقابل لم يكن ممكناً أن ألتقط مرضاً ، حتى ولو كان الحصبة أو الزكام ، من غير أن أعتبر نفسي مذنباً في ذلك : فلا بدّ انني كنت مفتقراً الى مزيد من النشاط ، ولا بدّ اني نسيت ان أرتدي معطفي .

لقد آثرت دائماً ان أتهم نفسي على أن أتهم الآخرين ؛ وليس ذلك بدافع من طيبة ، وإنما لكي لا أكون متوقّفاً على سواي . ولم تكن هذه الغطرسة تنفي الخضوع : كنت اعتبرني قابلاً للخطأ بمقدار ما كانت ألوان ضعفي بالضرورة أقصر طريق الى « الخير » . وكنت أتدبرّ امري لأحسّ في حركة حياتي انجذاباً لا يُقاوم كان يقسرني بلا انقطاع ، ولو على مضض مني ، أن أحقق ضروباً جديدة من التقدّم .

إن جميع الاولاد يعرفون أنهم يتقدمون . والحق أنه لا يُسمح لهم بأن يجهلوا ذلك : « عليه ان يتقدّم ، في تقدّم ، تقدّم جادّ ومنتظم .. » وكان الأشخاص الكبار يروون لنا تاريخ فرنسا : فبعد الجمهورية الاولى التي كانت متردّدة حائرة ، جاءت الثانية ثم الثالثة التي كانت هي الجيدة : ليس هناك اثنان قط بلا ثلاثة . وكانت التفاؤلية البورجوازية تتلخص آنذاك في برنامج الراديكاليين : غزارة الثروات المتنامية ، والغاء العوز والفقر بمضاعفة الأنوار والملكية الصغيرة ، وكنّا ، نحن السادة الشبان ،

قد وضعناها في متناولنا ، وكنا نكتشف ، راضين ، أن ما نحرزه من تقدّم شخصي كان يعكس تقدّم « الأمة » . وندرةٌ كانوا اولئك الذين كانوا يريدون ان يرتفعوا فوق آبائهم : لم تكن القضية ، بالنسبة لمعظم الشبان ، الا بلوغ سن الرجال ؛ وبعد ذلك ، سينقطعون عن ان ينموا ويكبروا . وكان بعضنا ينتظر تلك اللحظة بنفاد صبر ، وآخرون بخوف ، وسواهم بأسف وحسرة .

أما أنا ، فقد كنت ، قبل أن أُنذر ، أكبرُ في اللامبالاة : كنت لا أبالي بالثوب الحجّة . وكان جدّي يجدني قصيراً ويحزن لذلك ؛ وكانت جدّتي تقول لاغاظته : « ستكون له قامة سارتر » وكان يتظاهر بأنه لا يسمع ، وينزرع أمامي ويشهر أصبعه في وجهي « إنه ينبت » من غير اقتناع كبير . ولم اكن أقاسمه قلقه ولا أمله : إن الأعشاب الرديئة ، تنبت هي ايضاً ؛ وهي تصبح ضخمة ، من غير ان تكفّ عن ان تكون رديئة . وتغير كل شيء ، حين أخذت حياتي تسرع : فلم يكن كافياً بعدُ ان يُحسن المرء العمل ، بل كان ينبغي أن يُحسّنه في كل ساعة . ولم يكن لي بعدُ الا قانون واحد : أن أتسلّق نحو اكتمالي ، نحو موتي . ولم يكن شعوري بحاجة الى أدلّة : كان ينبعث مباشرة من هذياني . ومع ذلك ، فقد أردت أن أمنح نفسي أدلّة ؛ فلكي أُغذّي ادعاءاتي وأقنّع تجاوزاتها ، عمدتُ الى التجربة المشتركة : وقد أردت أن أرى فيما أحرزته طفولتي من تقدّم مترنح نتائجَ تدرُّج لا يُرّد . وتلك التحسينات الحقيقية ، ولكن الصغيرة والعادية جداً ، قد أعطتني وْهمَ أن أحسّ قوتي التصعيدية . وتبنّيت أسطورة طبقتي وجيلي : كنت أفيد من المكسوب ، وكنت أموّل التجربة ، وكان حاضري يغتني من كل ماضيّ . وقد كنت أنا الطفل العلنيّ ، أؤمن بذلك علناً . اما في الخلوة ، فكنت أقل ايماناً . لم أكن أستطيع أن أفهم أن يُتلقّى الكائن من الخارج . ولا أن يحافظ على نفسه بالجمود ، ولا أن تكون حركات الروح نتائج حركات سابقة .

وكنت إنا المولود من انتظارٍ مُقبل ، أثب مشرقاً ، كلياً في كل لحظة ، وكانت كل لحظة تردد احتفال ولادتي : وكنت اريد أن أرى في عواطف قلبي زفير شرارات . فلماذا يُفرض في الماضي ان يُغنيني ؟ إنه لم يكن قد صنعني ، بل كنت على العكس أنا الذي أنبعث من رمادي وأخرِج من العدم ذاكرتي بخلقٍ مستعادٍ دائماً . كنت أولد من جديد ولادة أفضل ، وكنت استعمل استعمالاً أفضل مذخورات روحي لسبب بسيط هو أن الموت ، الذي كان أقربَ في كل مرة ، كان ينيرني — في حيوية اكبر — بنوره المظلم . كان غالباً ما يقال لي : إن الماضي يدفعنا ، ولكني كنت مؤمناً أن المستقبل كان يجذبني ؛ وكنت سأحتقر أن أحس في قوى رقيقة تعمل ، التفتح البطيء لاستعداداتي . وأخذتُ تقدّم البورجوازيين المتصل ، ودسسته في روحي وجعلت منه محرّكاً ذا انفجارات : طالبته بأن يُخفض الماضي أمام الحاضر ، والحاضر أمام المستقبل ، وحوّلت نزعة تطوّرية هادئة الى نزعة كوارثية ثائرة ومتقطعة . ولقد نبّهوني منذ أعوام الى ان شخصيات مسرحياتي ورواياتي يتخذون قراراتهم بصورة مفاجئة ، وفي الأزمة ، وانه كانت تكفي لحظة مثلاً لكي ينجز اورست تحوّله . عجباً : ذلك اني أصنعهم جميعاً على صورتي ؛ لا كما أنا بلا شك ، بل كما أحببت أن أكون .

أصبحت خائناً وظللت كذلك. ومهما حاولت أن أصبّ نفسي كاملاً في ما أباشر، وأن استسلم بلا تحفّظ للعمل، والغضب، والصداقة، فاني سأنكر نفسي ذات لحظة؛ انني أعرف هذا وأريده، وأبدأ بخيانة ذاتي، في إبّان الحماسة والهوس، بأن استشعر في فرح خيانتي المقبلة.

وأنا اجمالاً أقوم بالتزاماتي ككل إنسان؛ ولما كنت ثابتاً في عواطفي وفي سلوكي، فاني غير أمين لانفعالاتي: وقد أتى وقت كان آخر مــا رأيت فيه من الآثار واللوحات والمناظر هو أجمله؛ وكنت أُثير استياء أصدقائي إذ أبتعث في القحة او في الخفة ذكرى مشتركة كان يمكن ان تظلّ لديهم أثيرة، وذلك لأقنع نفسي بأني انفصلت عنها. ولكوني لا أحبّ نفسي بما فيه الكفاية، فاني أفرّ الى أمام؛ وتكون النتيجة أن احبّ نفسي أقلّ فأقلّ، وهذا التدرّج الذي لا يلين يـُزيل حظوتي في عينيّ بلا انقطاع: بالأمس، أسأت التصرّف لأنه كان أمس، وأنا أتنبّأ اليوم بالحكم القاسي لليوم المقبل. ليس ثمة من اختلاط، على الأخصّ: إنني أظلّ من ماضيّ على بُعد محترم. فالمراهقة والسن الناضجة، بل حتى السنة التي انقضت، سيكونّ ذلك كلّه من «العهد القديم»: أما الجديد فيتبدى في الساعة الحاضرة، ولكنه ليس مشيّداً على الاطلاق: إنه غداً سيُهدم مجاناً. وقد حذفتُ خصوصاً سنواتي الاولى. كان يُقال لي، وأنا في الثلاثين: «لكأنك لم يكن لك أهل. ولا طفولة» وقد اوتيت حماقةَ أنْ أفتتن بذلك. على اني احب واحترم الاخلاص المتواضع العنيد الذي يحتفظ به بعض الناس – ولاسيما بعض النساء – لأذواقهم ورغباتهم

ومشاريعهم القديمة ، والأعياد المختفية ، وأعجب بأرادتهم في ان يبقوا هم أنفسهم وسط التغيرّ ، وان ينقذوا ذاكرتهم ، وأن يأخذوا في الموت لعبةً اولى او سناً راضعة ، او حباً اول . وقد عرفت من ضاجعوا في أواخر حياتهم امرأة مسنّة لسبب واحد هو أنهم كانوا قد اشتهوها في شبابهم ؛ وعرفت آخرين يحقدون على الموتى او يؤثرون ان يُضرَبوا على ان يعترفوا بغلطة تافهة ارتكبوها قبل عشرين عاماً . أما أنا ، فلا أحتفظ بالاحقاد ، وأعترف بكل شيء ، في بشاشة : أنني موهوب للنقد الذاتي ، شريطة ألاّ يُفرض عليّ فرضاً . لقد تعرَّض الشخص الذي كان يحمل اسمي الى مناكدات مُزعجة عام ١٩٣٦ ، وعام ١٩٤٥ : فهل هذا يعنيني ؟ انني اسجّل عليه الإهانات التي تلقّاها : فقد كان ذلك الأبله لا يعرف حتى ان يجعل الناس يحترمونه . يلتقيني صديق قديم ، فيقدّم عرضاً مرّاً : إنه يُغذّي شكاية منذ سبعة عشر عاماً ، فأنا قد عاملته ، في مناسبة معينة ، بلا مراعاة . وأذكر اني كنت أدافع عن نفسي ، آنذاك ، بهجوم معاكس ، وكنت آخذ عليه حساسيته المفرطة ، وشغفه بتعذيب نفسه ، وبالاختصار كنت أُفهمه أنّ لي تفسيري الخاص حول ذلك الحادث : ولا أفعل في ذلك إلاّ أن أعجّل في تبنّي تفسيره ؛ انني أشاطره رأيه ، وأرهق نفسي : فقد تصرّفت تصرّف الاناني المغرور ، وكنت قاسي القلب ؛ وتلك كانت مجزرة ! وأتلذّذ بصفاء بصيرتي : فأن أعترف بأخطائي على هذا النحو من الرضى والطواعية ، يعني أن أثبت لنفسي انني لن أستطيع بعدُ ارتكابها . فهل يُصدَّق هذا ؟ إن صدقي واخلاصي واعترافي السخيّ ليس من شأنها إلا أن تغيظ الشاكي . لقد خدعني ، وهو يعرف أني أستخدمه ؛ إنه يعتب عليّ ، أنا الحيّ ، الحاضر ، الماضي ، الانسان « نفسه » الذي عرفه دائماً ؛ وما الذي فعلته إلاّ اني تركت له جثة جامدة لرغبتي في أن أحسّني البراءةَ نفسها ، « طفلاً يولد » ؟ وانتهيت الى أن أغضب بدوري على هذا الغاضب الذي ينبش الجثث .

وعلى العكس من ذلك ، لو جاء من يذكّرني بمناسبة يقول اني لم أكن فيها رديئاً ، فأني اكنس بيدي هذه الذكرى ؛ ويحسب الناس اني متواضع بذلك ، والأمر عكس هذا تماماً : فأنا أفكر بأني سأفعل اليوم ما هو أفضل ، وغداً ما هو أفضل « بكثير » . إن الكتّاب الناضجين لا يحبون أن يُهنّأوا على كتابهم الاول تهنئة مفرطة ، ولكني واثق من أنّ هذه التهاني تخلّف لديّ أقلّ السرور .

إن أفضل كتاب عندي هو الذي أنا بصدد كتابته ؛ ويأتي بعده مباشرة آخر كتاب منشور ، ولكني أهيىء نفسي ، على مهل ، للنفور منه عما قريب . فلئن وُجدَ اليوم رديئاً ، فربما جُرحتُ بسببه ، ولكن النقاد يتركون لي مهلة ، فبعد ستة أشهر لن أكون بعيداً عن مشاطرتهم رأيهم . على ان هناك شرطاً : فمهما بدا لهم هذا الكتاب فقيراً تافهاً ، فإني أريد ان يضعوه فوق كل ما أصدرت قبله ؛ انني أقرّ ان قيمة النتاج كله ستُنقص بذلك ، ولكن المهمّ المحافظة على التدرّج الزمني ، وهو الشيء الوحيد الذي يُبقي لي حظوظي بأن أكتب غداً ما هو أفضل ، وبعد غد ما هو أفضل ايضاً ، حتى أنتهي بانتاج رائعة من الروائع .

ولست بالطبع مخدوعاً : فأنا ارى جيداً أننا نكرّر أنفسنا . ولكن هذه المعرفة ، المكتسبة في زمن أحدث ، تقرض بدهياتي القديمة ، من غير ان تبدّدها تماماً . إن لحياتي بعض شهود قساة لا يسامحونني في شيء ؛ وهم غالباً ما يفاجئونني أسقط مجدداً في العادات المزمنة نفسها . ويقولون لي ذلك ، فأصدقهم ، ثم أهنىء نفسي في اللحظة الأخيرة : لقد كنت بالأمس أعمى ؛ وتقدّمي اليوم هو أني قد فهمت انني لا أتقدّم بعدُ . وفي بعض الأحيان ، أكون انا نفسي شاهد إثباتي : فالاحظ مثلاً اني ، لعامين خلوا ، كتبت صفحة يمكن أن تخدمني ، وأبحث عنها فلا أجدها ؛ ذلك أفضل : فقد كنت ، خضوعاً مني للكسل ، اوشك أن ادسّ شيئاً قديماً في كتاب جديد : انني اليوم اكتب أفضل جداً من الأمس ، وإذن ،

فسأعيد كتابة تلك الصفحة . وحين أفرغ من العمل ، تضع مصادفةٌ ما الصفحة الضائعة في يدي . ذهول : لقد كنت أعبرّ عن الفكرة نفسها بالعبارات ذاتها ، لولا بعض الفواصل . وأتردد لحظة ، ثم ارمي في السلة تلك الوثيقة الحائلة ، وأحتفظ بالنص الجديد : إن لها ما لا ادري من التفوّق على الماضية . وبكلمة واحدة ، أتدبّر امري : انني ، بعد خيبة ، أغشّ نفسي لأستشعر مرة اخرى ، رغم الشيخوخة التي تضعضعني ، ما يُحس به المصعّد في الجبال من سُكْرٍ نابض .

لم أكن وأنا في التاسعة أعرف بعدُ أهوائي وعاداتي الغريبة وتكراراتي ، ولم يكن الشك يلامسني : لقد كنت أقفز وأثرثر ، مسحوراً بمشاهد الشارع ، ولم أكن أني أتخذ جلداً جديداً ، وكنت أسمع جلودي القديمة تسقط واحداً فوق واحد في خشخشة الأوراق الميتة . وحين كنت أصعد شارع سوفلو ، كنت أحسّ في كل خطوة ، عبر اختفاء الواجهات الباهر ، الى يميني ، حركةَ حياتي ، وقانونها ، والوكالة الجميلة أن أكون غير أمين لشيء . كنت اصطحب نفسي كلياً معي .

وتريد جدتي ان تبتاع أواني تنسجم مع أواني مائدتها ، فأصحبها الى حانوت للزجاجيات والصينيات ؛ وتشير الى صحفة للحساء تعلو غطاءها تفاحة حمراء وصحون ذات زهور . ولا تكون الصحفة هي ما تريده تماماً : إن على صحونها طبعاً زهوراً ، ولكنّ عليها ايضاً حشرات سمراء ترقى الغصون . وتهتاج البائعة بدورها : إنها تعرف جيداً ما تريده الزبونة ؛ لقد كانت تملك هذه البضاعة ، ولكنهم كفّوا عن صنعها منذ ثلاثة أعوام . وهذا النموذج الحالي هو أحدث وأربح ، ثم إن الزهور هي بالحشرات او بدونها زهور ، أليس كذلك ، ولن يذهب أحدٌ ليفتش عن الحشرات ، ولابدّ من قول هذا . ولكن جدتي ليست من هذا الرأي ، وهي لذلك تُلحّ : اليس بالامكان البحث في المستودع ؟ آه ، في المستودع ، بكل تأكيد ، ولكن ذلك يتطلب وقتاً ، والبائعة الآن وحدها : فقد تركها

عاملُها. وكنت قد رُكنت في زاوية، وأُوصيتُ بالاّ أمسّ شيئاً ؛ ونُسيت هناك، مذعوراً بالأشياء الرخصة التي تحيط بي، وبشرارات مغبرّة، وبقناع باسكال ميتاً، وباناء يمثّل رأس الرئيس فاليير. والواقع انني بالرغم من المظاهر، شخص ثانوي مزيّف. وعلى هذا النحو، يدفع بعض المؤلفين «منافع» الى مقدمة المسرح ويقدمون ابطالهم بصورة خفيّة في وضع جانبيّ ضائع. ولا ينخدع القاريء بذلك: لقد قلّب الفصل الأخير ليرى إن كانت نهاية الرواية جميلة، وهو يعرف أن في بطن الشاب الممتقع، الواقف بازاء المدخنة، ثلاثمئة وخمسين صفحة. ثلاثمئة وخمسون صفحة من الحب والمغامرات. وقد كان لديّ على الأقل خمسمئة. كنت بطل حكاية طويلة تنتهي نهاية جميلة. وتلك الحكاية، كنت قد كففت عن ان أرويها لنفسي: فما جدوى ذلك؟ لم يكن في رأسي شيء، شيء على الاطلاق: كل ما في الأمر اني كنت أحسني حالماً، أرى الحياة كأنها رواية. وكان الزمن يجذب الى الخلف السيدات العجائز المتبرّمات، والزهور الخزفية والحانوت كلّه، وكانت التنانير السود تصفرّ، وكانت الأصوات تصبح مزغبرة، وكنت أشفق على جدتي، إنها لن تُرى مرة اخرى بالطبع في القسم الثاني. أما بالنسبة لي، فقد كنت البدء والوسط والنهاية متجمعةً في ولد صغير كان قد شاخ، ومات، هنا، في الظلّ، بين أنضاد من الصحون اكثر ارتفاعاً منه، وفي الخارج، بعيداً، تحت شمس المجد المأتمية. كنت الجُسَيْم في بدء خطّ مسيره، وقطار الموجات الذي يرتدُ إليه بعد ان يكون قد اصطدم بالعقبة الاصطناعية القائمة عند نقطة الوصول. كنت في التاسعة، وأنا متجمّع، مشدود، تلامسُ قبري بيد، ومهدي بالأخرى، أحسّني موجزاً وباهراً، ضربة صاعقة محتْها الظلمات.

ومع ذلك، فان السأم لم يكن يغادرني ؛ وكنت أستسلم، وأنا متحفظ تارة، ومنفّرٌ تارة اخرى، لأشدّ أنواع الإغراء شؤماً، حين لم أكن

أستطيع تحمله بعد : لقد فقدت اورفيه أوريديس ، بسبب نفاد الصبر ؛ وبسبب نفاد الصبر فقدت نفسي غالباً . ويحدث لي ، وقد شردت بسبب التعطّل ، ان أعود الى جنوني في وقت يجب فيه أن أتجاهله ، وأبقيه بعيداً ، وأركّز انتباهي على الأشياء الخارجية ؛ في تلك اللحظات كنت أريد أن « أحقق » نفسي على الفور ، وأن أعانق بنظرة واحدة الكلّيةَ التي كانت تسكنني حين اكون غير مفكرٍ فيها . كارثة ! إن التقدم ، والتفاؤلية ، والحيانات الفرحة ، والغائية السرّية ، كل ذلك كان ينهار مما كنت قد أضفته أنا نفسي الى نبوءة السيدة بيكار . كانت النبوءة تبقى ، ولكن ما كان عساني أستطيع أن أعمل بها ؟ كانت تلك المعجزة التي لا مضمون لها ، إذ ترغب في إنقاذ جميع لحظاتي ، تمنع على نفسها أن تميزّ أياً منها ؛ لم يكن المستقبل بعدُ ، وقد جفّ فجأة ، إلاّ هيكلاً ، وكنت ألقى مجدّداً صعوبة أن أكون ، وألاحظ أنها لم تكن قد غادرتني قط .

ذكرى بلا تاريخ : إنني جالس على مقعد ، في حديقة اللكسمبورغ : وقد رجتني آنماري أن أرتاح بقربها ، لأني كنت أسبح في العرق من طول ما ركضت . هذا هو على الأقل نظام الأسباب . وانني من شدّة السأم بحيث تأخذني الغطرسة لقلبه : لقد ركضت لأنه كان « يجب » أن أسبح في العرق لأمنح أمي فرصة استدعائي . كل شيء يفضي الى هذا المقعد ، وكان لابدّ لكل شيء من ان يفضي إليه . فما هو دوره ؟ انني أجهله ، ولا أهتمّ به باديء ذي بدء : فلن يضيع انطباعٌ واحد ، من جميع الانطباعات التي تخطر لي ، إن هناك هدفاً : وسأعرفه ، وسيعرفه أحفادي . إنني أؤرجح ساقيّ القصيرتين اللتين لا تبلغان الأرض ، وأرى رجلاً يحمل علبة ويمرّ أمامي ، وأرى امرأة حدباء : إن ذلك سيخدمنا . وأردّد لنفسي وأنا في النشوة : « من المهم جداً أن أبقى جالساً . » ويتضاعف السأم ؛ ولا أستطيع بعدُ الامتناع عن أن أجازف بنظرة في داخلي : انني متواضع ، ولست أطلب إيحاءات مثيرة ، ولكني أودّ لو أحزر معنى

هذه الدقيقة ، وأن أحسّ ضرورتها ، وأن أتمتّع قليلاً بذلك العلم الشعوري المسبّق الحيوي الغامض الذي أعيره لموسيه وهوغو . وبالطبع ، لا ألمح إلاّ ضباباً . إن الافتراض التجريدي لضرورتي والحدس الخام لوجودي يبقيان جنباً الى جنب من غير ان يتقاتلا او يمتزجا . ولا افكر بعدُ الا في أن أفرّ ، إلاّ ان ألتقي من جديد السرعة الصمّاء التي كانت تحملني : ولكن عبثاً ؛ لقد زال السحر . إنّ في مأبضيّ نملاً ، وأني لأتلوّى : وتتدخّل « السماء » في الوقت المناسب وتعهد إليّ في مهمة جديدة : إن من المهم جداً أن أعود الى الركض .

وأقفز على قدميّ ، وأمضي بأقصى السرعة ؛ وفي نهاية الممرّ ألتفت : لم يتحرّك شيء ، ولم يحدث شيء . وأخفي خيبتي بالكلمات : سوف يكون لهذا الركض ، في غرفة مؤثثة بمدينة اورياك ، حوالي عام ١٩٤٥ ، نتائج لا تقدّر ، اؤكد ذلك . وأصارح نفسي بأني في غاية السرور ، وتأخذني النشوة ؛ ولكي أقسر الروح القدس ، أقدّم له ثقتي : فأقسم ، وانا في السُّعز ، أن أستحق الحظّ الذي أعطاني إياه . إنّ كل شيء يُمثل على الأعصاب ، وأنا أعرف ذلك . وتكون أمي قد انقضّت عليّ : هذه هي السترة الصوفية ، وهذه هي الغلالة ، وهذا هو المعطف ؛ وأتركها تُلبسني ، فأنا أشبه بالرزمة . يجب أن أتحمّل ثانيةً شارع سوفلو ، وشاربي البوّاب ، وسُعال المصعد المائي .

وأخيراً يجد المدّعي ذو البليّة الكبيرة نفسه في المكتبة ، يجرجر قدميه من كرسيّ الى كرسي ، وهو يقلّب صفحات الكتب ويقذف بها ؛ وأقترب من النافذة ، فأرى ذبابة تحت الستار ، وأحشرها في شرَك من الشاش وأوجّه اليها سبابةً قاتلة . وهذه اللحظة هي خارج البرنامج ، مستخرجةٌ من الزمن العامّ ، موضوعةٌ على حدة ، لا تُضاهى ، جامدة ، لن يخرج منها شيء هذا المساء ولا فيما بعد : إن اورياك ستجهل دائماً هذه الأبدية المعتكرة . إن البشرية ناعسة ؛ وأما الكاتب الشهير — وهذا قدّيس لا يؤذي ذبابة — فهو خارجٌ لساعته . إن ثمة ولداً وحيداً لا مستقبل له ،

في دقيقة آسنة ، يطلب من القتل أحاسيس قوية ؛ فما داموا يرفضون منحي قَدَرَ إنسان ، فسأكون قَدَر ذبابة . انني لا استعجل ، بل أترك له فرصة أن يصبح العملاق الذي ينحني عليها : وأدفع إصبعي ، فتنفجر ، وهأنا مخدوع ! ما كان ينبغي أن أقتلها ، يا إلهي ! لقد كانت ، من جميع المخلوقات ، الكائن الوحيد الذي يخافني ؛ فأنا الآن لا أهمية لي بعدُ في نظر أحد . جرعة قتل حشرة . وآخذ محلّ الضحية ، فأصبح حشرة بدوري . انني ذبابة ، ولقد كنت كذلك دائماً . لقد لمست القاع ، هذه المرة ، ولا يبقى لي إلاّ أن اتناول من على الطاولة « مغامرات الكابتن كوركوران » ، وأن أتداعى للسقوط على السجادة ، فاتحاً الكتاب الذي قرىء مئة مرة ، على اية صفحة ؛ وأنا متعب جداً ، وحزين جداً حتى أني لا أحسّ بعدَ أعصابي ، وأني أنسى نفسي ، منذ السطر الاول . إن كوركوران يصطاد في المكتبة ، وبندقيته تحت ذراعه ، وفهدتُه في أعقابه ؛ وتتمركز أدغال الغابة في سرعةٍ حولهما ؛ وقد زرعتُ بعيداً بعض الأشجار ، حيث كانت القرود تقفز من غصن الى غصن . وفجأة تأخذ « لويزون » ، الفهدة ، في الزمجرة ، فيتسمّر كوركوران : هوذا العدوّ . وتلك هي اللحظة النابضة التي يختارها مجدي ليستردّ منزله ، وتختارها « البشرية » لتستيقظ منتفضة وتناديني لنجدتها ، ويختارها الروح القدس ليهمس لي هذه الكلمات التي تهزّني : « انك لن تبحث عني اذا لم تكن قد وجدتني » .

ستضيع ألوان التملّق هذه : فليس هنا أحدٌ ليسمعها ، ماعدا كوركوران العظيم . ويعود الكاتب الشهير ، كما لو أنه لم يكن ينتظر الا هذا التصريح ؛ ويحني حفيدُ حفيدِ رأسه الأشقر على قصة حياتي ، فتبلّل الدموع عينيه ، وينهض المستقبل ، ويُسربلني حبٌّ لامتناهٍ ، وتدور في قلبي أنوار ؛ انني لا أتحرّك ، ولا أوجّه نظرةً الى الحفلة . بل أنا أتابع قراءتي في هدوء ، وتنتهي الأنوار الى الانطفاء ، ولا أحسّ بعدُ إلاّ بايقاع ، بنبضة لا تُقاوم ، وأهمّ بالانطلاق ، وقد انطلقت ، وأتقدّم ، ويزمجر المحرّك . وأستشعر سرعة روحي .

تلك هي بداءتي : لقد كنت أهرب ، وقد نحتتْ قوى خارجية هربي وصنعتني . كان الدين يظهر من خلال مفهوم باطل للثقافة ، فكان بمثابة تصميم او نموذج مصغر : طفولي ، ليس ثمة ما أهو أقرب لطفل . كانوا يعلمونني التاريخ المقدّس ، والإنجيل ، وكتاب التعليم المسيحي ، من غير ان يعطوني وسائل الايمان : وكانت النتيجة تشوّشاً أصبح نظامي الخاصّ . وقد حدثت تغضّنات ، ونقلٌ هامّ ؛ لقد اقتُطع المقدّس من الكاثوليكية ، فحطّ في الآداب الجميلة ، وظهر رجلُ القلم بديلاً دوناً للمسيحي الذي لم أستطع ان أكونه : كانت قضيته الوحيدة الخلاص ، ولم يكن لمكوثه في هذه الدنيا من هدف سوى ان يجعله يستحق غبطة ما بعد الموت بتجارب تحمّلها بجدارة . وكان الموت يتقلّص الى طقس انتقال ، وبرز الخلود الأرضي كبديل عن الحياة السرمدية . ولكي يطمئنوني بأن الجنس البشري سيخلّدني ، تواطأوا في رأسي على ان هذا الجنس لن ينتهي . فاذا انطفأتُ فيه ، فهذا كان يعني ان اولد واصبح لامتناهياً : ولو عبّروا أمامي عن فتراض حدوث اهتزاز عظيم يهدم الكرة الأرضية ذات يوم ، حتّى ولو ابعد خمسين الف سنة ، لكنت أصاب بالذعر ؛ واليوم وقد زال عني السحر ، لا أستطيع بعدُ ان افكر ، من غير خوف ، بأن الشمس تبرد : إنه سواء لديّ ان ينساني بنو جنسي في اليوم الذي يلي دفني ؛ فما داموا

يعيشون ، فسوف أسكنهم ، غير قابل للالتقاط ، غير مسمّى ، حاضراً في كلّ منهم كما يحضر فيّ ملايين الموتى الذين أجهلهم والذين أقيهم من التلاشي والعدم ؛ أما إذا اختفت البشرية ، فان انهيارها سيقتل موتاها قتلاً حقيقياً .

كانت الأسطورة بسيطة جداً ، وقد هضمتها بلا مشقّة . لقد كان انتمائي الطائفي المزدوج ، أنا البروتستانتي والكاثوليكي ، يحول دون أن اومن بالقدّيسين ، وبالعذراء ، وأخيراً بالله ، ما داموا يُدعون باسمائهم . ولكن قوة جماعية هائلة كانت قد نفذت الى أعماقي ، واستقرّت في قلبي ، وكانت ترقب وتترصّد ؛ إنها ايمان الآخرين ؛ يكفي تغيير الاسم وتبديل الموضوع العادي : لقد تعرّفته تحت التنكرّات التي كانت تخدعني ، فارتمت عليه وشدّته ببرائنها .

كنت أحسبني أهب نفسي « للأدب » حين كنت في الحقيقة أرتقي الى درجات الكهنوت . وأصبح يقين المؤمن الخاضع فيّ البدهيةّ المعتزّة للاختيار . ولِمَ لا أكون مختاراً ؟ أليس كل مسيحيّ مختاراً ؟ لقد كنت أنبت ، أشبه بالنبتة المجنونة ، على تراب الكاثوليكية ، وكانت جذوري تمتصّ عصارتها فأجعل منها نسغي ؛ وهذا مصدر العمى الواعي الذي عانيت منه ثلاثين عاماً .

كنت ذات صباح من عام ١٩١٧ ، أنتظر في « لاروشيل » رفاقاً كان المفروض أن يصحبوني الى الليسيه ؛ وقد تأخروا ، ولم أدرِ ما الذي أخترعه لأتسلى ، فقرّرت أن أفكر بالعليّ القدير . وسرعان ما تدحرج عند الأفق ، واختفى من غير ان يعطي تفسيراً ؛ وقلت لنفسي في دهشة متأدّبة : انه غير موجود ، وحسبت القضية مبتوتاً فيها . وقد كانت كذلك ، على نحوٍ ما ، لأني منذ ذلك الحين لم يأخذني ايّ إغراء في بعثه . ولكن « الآخر » كان باقياً ، « اللامرئي » ، ذلك الذي كان يضمن وكالتي ويحكم حياتي بسلطات عظيمة ، مغفلة ومقدّسة . ولقد وجدت مشقة

كبيرة للتحرّر من هذا ، لاسيما وأنه كان مقيماً في مؤخرة رأسي ، في الافكار المختلسة التي كنت أستعملها لأفهم نفسي ، وأموضعها وأبرّرها. كانت الكتابة تعني ، لمدة طويلة ، أن أطلب من « الموت » ومن « الدين » ، ـ تحت قناع ما ـ ان ينتزعا حياتي من المصادفة والاتفاق. لقد انتميت « للكنيسة ». لقد أردت ، وأنا المجاهد ، أن أنقذ نفسي بالآثار المؤلّفة ؛ وحاولت ، وأنا الصوفيّ ، أن اكشف صمت الكينونة بصخب الكلمات ، وخلطت خصوصاً بين الكلمات وأسمائها : وهذا هو الايمان. كانت على عينيّ غشاوة ، واعتبرتُني متخلصاً من الورطة ، ما دامت موجودة. وفي الثلاثين من عمري ، نجحت في أن أصوّر ، في « الغثيان » ، ـ تصويراً صادقاً ، وبوسع الناس أن يصدّقوني ـ الوجودَ اللامبرّر ، المرّ ، لدى بني جنسي ، وأن أضع حياتي خارج القضية. « لقد كنت » روكانتان ، وكنت أُظهر فيه بلا تلذّذ ، حبكةَ حياتي ؛ وفي الوقت نفسه كنت « أنا » ، المختار ، مؤرّخ حوليات مثاوي النفوس بعد الموت ، ومصوّراً مجهرياً أنحني فوق أشربتي الجبِلّية الخاصة. وفيما بعد ، عرضت بمرح أن الانسان مُحال ؛ وانا نفسي المحال ، لم أكن أختلف عن الآخرين إلاّ بوكالة واحدة : شهادة هذه الاستحالة التي كانت سرعان ما تتغيرّ فتصبح امكانيتي الأكثر صميمية ، وغاية مهمتي ، ووسيلة مجدي بعد الموت.

كنت أسيرَ هذه البدهيّات ، ولكني لم أكن أراها : كنت أرى العالم عَبْرها. وأنا المزوّر حتى العظم ، المخدوع المخاتَل ، كنت أكتب بفرح عن وضعنا البائس. وأنا العقائدي ، شككت بكل شيء إلاّ بأن أكون مختارَ شكّي ؛ كنت أبني بيد ما كنت أهدمه بالأخرى ، وكنت أعتبر القلق ضمانةً لأمني ، كنت سعيداً.

لقد تغيرت. وسأروي فيما بعد أية حوامض قرضت الشفافيات المشوّهة التي كانت تسربلني ، ومتى وكيف قمت بتعلّم العنف ، واكتشاف قبحي ـ الذي كان لمدة طويلة مبدئي السلبي ، وحجر الكلس الذي ذوّب فيه

الطفل المدهش نفسه — وما هو السبب الذي دفعني لافكر بصورة نظامية ضد نفسي ، الى درجة ان أقيس بدهية فكرةٍ ما بالاستياء الذي كانت تحدثه لي . لقد تفتّت الوهم المتعلق بالماضي ؛ فالاستشهاد ، والخلاص ، والخلود ، كلّها تتعطل ، ويسقط البناء منهدماً ، والربّ الذي كان مختبئاً فيه قد حشرتُه في الأقبية وطردته ؛ إن الالحاد مشروع قاسٍ وذو نَفَس طويل : وأحسب أني دفعتُه حتى الذروة . إنني أرى بوضوح ، وقد زالت الغشاوة عن عيني ، وأنا اعرف مهماتي ، وأستحقّ بالتأكيد جائزة في الغيرة الوطنية ؛ انني منذ عشر سنوات تقريباً انسان يستيقظ ، انسان قد شُفي من جنون طويل ، مرّ ، عذب ، وهو لا يصدّق ذلك ، ولا يستطيع ان يتذكر — من غير ان يضحك — ضلاله وتشرّده القديم ، ولا يدري بعدُ ماذا يفعل بحياته .

لقد أصبحت من جديد المسافرَ الذي لا يحمل تذكرة ، المسافر الذي كنتُه وأنا في السابعة : لقد دخل المراقب الى قاطرتي ، فنظر إليّ نظرة اقلّ قسوة من ذي قبل : وهو فعلاً لا يطلب إلا أن يذهب ، الا ان يَدَعني أنهي الرحلة بسلام ؛ فلأُعْطِه ايّ عذرٍ مقبول ، وسيكتفي به . ولكني لسوء الحظ لا أجد أي عذر ، ثم انني في الحق ليست لديّ الرغبا في البحث عن عذر : وسوف نبقى وجهاً لوجه ، في الضيق والانزعاج ، حتى « ديجون » حيث أعرف جيداً أن ليس ثمة من ينتظرني .

لقد تخلّيت عن الوكالة ، ولكني لم أنزع ثوب الرهبنة : فأنا ما أزال أكتب . وأي شيء آخر أفعله ؟ Nulla die sine linea [1]. انها عادتي ، ثم انها مهنتي ، وقد طالما اعتبرت القلم سيفاً : وأنا الآن أعرف عجزنا . ومهما يكن ، فاني أعمل وسأعمل كتباً . إن ذلك واجب ، وهو يقدّم خدمة بالرغم من كل شيء . صحيح ان الثقافة لا تنقذ شيئاً ولا أحداً ،

---

(١) هكذا في الاصل، وهي عبارة لاتينية تعني « لا يمضي يوم بدون كتابة سطر » — المترجم

وهي لا تبرّر. ولكنها نتاج من نتاج الانسان: فهو يعكس نفسه فيها، ويتعرّف نفسه، وحيداً، وهذه المرآة الناقدة تردّ له صورته. ثم إن هذا البناء المؤدّي الى الإفلاس، خديعتي، هو ايضاً شخصيتي: إن المرء لا يُصلح نفسه من مرضٍ عصبي، ولا يشفي نفسه من نفسه، وإن جميع ملامح الطفل قد بقيت لدى الخمسينيّ، وقد امحت وأُذلّت وزُويت. وهي غالباً ما تنبسط في الظلّ، وتترصّد: وعند اول لحظة غفلة، ترفع رأسها وتدلف الى النور متنكّرة؛ وأنا أدّعي باخلاص أني لا أكتب الا لزمني، ولكني انزعج من شهرتي الحالية: إن ذلك ليس هو المجد، ما دمت أعيش، وهذا يكفي مع ذلك لتكذيب احلامي القديمة، أيكون ذلك بسبب اني ما أزال أغذّيها بصورة سرّية؟ ليس هذا تماماً: بل أظنّ أني أملكها، متأقلمة؛ وما دمت قد فقدت حظوظي بأن أموت مجهولاً، فيأخذني احياناً غرورٌ أن أكون غير مقدَّرٍ تقديراً كافياً، ويروقني التفكير بأني سأبقى كذلك حتّى آخر نسمة. إن غريزاليديس لم تمت. ولا يزال بارديان يسكنني. وسترّوغوف كذلك. انني غير متعلّق الا بهما، هما غير المتعلقين إلا بالله وأنا لا اومن بالله. تعرّفوا انتم انفسكم فيه. أما أنا، فلا أتعرّف نفسي فيه، وأتساءل أحياناً ألست العب لعبة مَنْ يخسرْ يربح وأجتهد في ان أدوس أحلامي الماضية لكي يُردّ لي كلّ شيء مئة ضعف؟ لئن صحّ هذا، فسأكون فيلوكتيت[1]: لقد أعطى هذا المريض، الرائع المنتن، كلّ شيء يملكه حتّى قوسه بلا شرط؛ ولكن بالامكان التأكّد من أنه ينتظر، تحت الأرض، مكافأته.

---

(١) أحد القادة الأغريق في حصار طروادة، وقد نقل له هيراكليس سهامه المسمومة. وفيما هو متجه الى طراودة، لدغتـه حية وأنتج جرحه رائحة كريهة جـداً حتى أنه ترك في جزيرة ليمنوس؛ وقد ظل فيها عشرة أعوام، وأقبل اوليس وديوميد ليأخذاه منها، بعد أن وقعت معجزة وأعلنت ان طراودة لن تؤخذ الا بسهام هيرا كليس. وقد أوحت قصة فليوكتيت باحدى مسرحيات سوفوكل التراجيدية (٤٠٩ ق.م) — المترجم

لنَدَع هذا . ولو كانت مامي موجودة لقالت : « انسلّوا ، أيها الميّتون ، ولا تُلحّوا . » انّ ما احبّه في جنوني ، هو أنه حماني ، منذ اليوم الاول ، ضد اغراءات « النخبة » : فانني لم أظنني قطّ المالك السعيد لـ « موهبة » : كانت قضيتي الوحيدة أن أنقذ نفسي — لا شيء في اليدين ، لا شيء في الحبيبين — بالعمل والأمل . من أجل ذلك ، لم يكن اختياري المحض يرفعني فوق أحد ؛ وبلا تجهيز ، وبلا أدوات ، انصرفت للعمل كلياً ، لأنقذ نفسي كلياً . إذا نحّيت « الخلاص » المستحيل الى دكان اللواحق ، فماذا يبقى ؟ إنسانٌ مصنوعٌ من جميع الناس ، وهو يسواهم جميعاً ، ويسواه ايّ واحدٍ منهم .

هذا الكتاب

تفخر « **دار الآداب** » بأن تقدم هذه الترجمة العربية الأمينة لأحدث ما كتب المفكر الوجودي العالمي **جان بول سارتر**. وقد اشترت دار الآداب من دار غاليمار الفرنسية حقوق الترجمة العربية لهذا الكتاب الذي يعتبر من اروع ما ألف سارتر. وهذه الترجمة تصدر في بيروت قبل ان يصدر الكتاب بلغته الفرنسية الأصلية في باريس...

ويروي سارتر في هذا الجزء من « **سيرتي الذاتية** » طفولته الاولى باسلوب جديد فذ لم يسبقه اليه كاتب، وهو لا يقف عند الأحداث والتفاصيل الا ليطبق عليها مفاهيم مذهبه الفلسفي في صفاء ذهني عجيب وعمق لا يتميز به كثير من الفلاسفة المعاصرين.

غير ان سارتر يعالج موضوع طفولته، وكيف تعلم القراءة، وكيف بدأ يكتب، وكيف راح يشترك في «التمثيلية» الكبيرة التي كان يعيشها أهله ومجتمعه . . كل ذلك بروح ادبية رائعة تتميز بالصدق والصراحة وتوفر لقارىء هذا الكتاب متعة روحية قلما يصيبها في أي كتاب آخر.

« **سيرتي الذاتية** » رائعة جديدة يضيفها احد كبار ادباء العالم الى مؤلفاته الغنية السابقة ويبلغ بها ذروة في الفن والابداع والاصالة.

الثمن: ٣٥٠ ق. ل.

٤٥٠ ق. س.